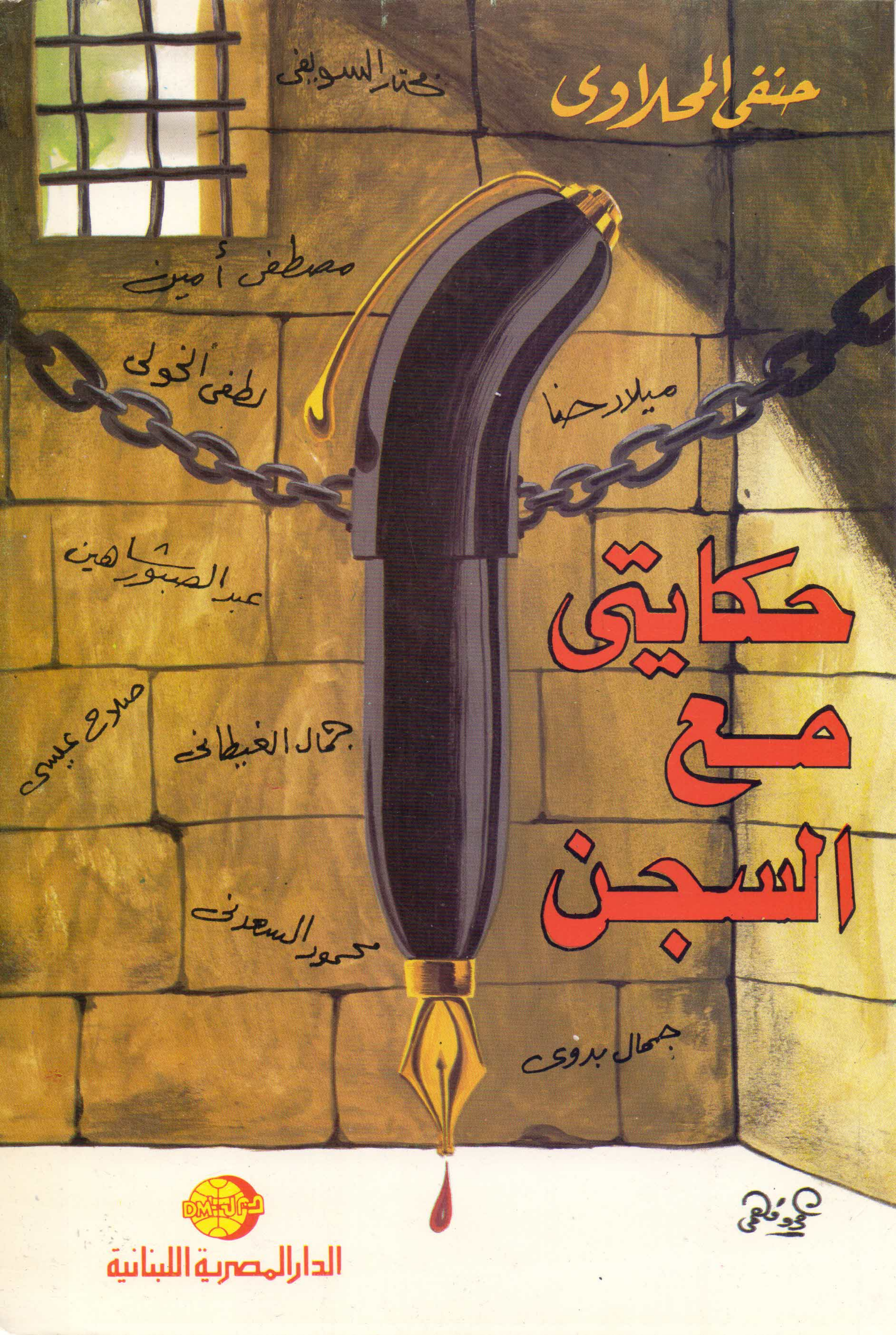

حنفى المحلاوى
مختار السويفى
مصطفى أمين
لطفى الخولى
ميلاد حنا
عبد الصبور شاهين
حكايتى
مع
السجن
صلاح عيسى
جمال الغيطانى
محمود السعدنى
جمال بدوى
الدار المصرية اللبنانية

حكايتى مع السجن

كم مرة دخلت فيها السجن .. ولماذا .. ؟

وما هى أحاسيسك ومشاعرك عندما كنت تعيش وراء القضبان ؟ .. وما رأيك فى تجريم الفكر الخالص من شبهة العنف ؟ .. وهل يجوز أن يسجن المفكر مع المجرمين من اللصوص والقتلة ومرتكبى الجرائم الأخلاقية .. ؟

وما هو تأثير تجربة السجن عليك ككاتب ومفكر ؟ .. وهل ألفت كتباً وأنت خلف الجدران ، أو ما هى الأفكار التى خرجت بها من هذه التجربة .. ؟

وما هى أهم الشخصيات التى قابلتها أو تعرفت عليها أثناء وجودك بالسجن ؟ .. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر ؟ .. وما رأيك فى أحوال السجون فى مصر ؟ .. وإذا كنت مأموراً لأحد السجون فكيف تتعامل مع المسجونين بتهمة الفكر ؟ .. وإذا كنت رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليك قائمة بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم فما هو رد فعلك وكيف ستتصرف .. ؟

هذه نوعية من عشرات الأسئلة المماثلة التى صاغها الكاتب الصحفى المميز « الأستاذ حنفى المحلاوى » بطريقة ذكية لتسبر الأغوار النفسية والفكرية لمجموعة من الكتاب والمفكرين المصريين الذين اعتقلوا أو سجنوا بسبب أفكارهم وكتاباتهم النظرية الخالصة الخالية من أى عنف أو لجوء لاستخدام القوة ..

أما الإجابات على تلك الأسئلة ، فكانت تختلف باختلاف منهج وشخصية كل كاتب أو مفكر من الذين يحكون حكاياتهم مع السجن فى هذا الكتاب الممتع .. !

الناشر



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

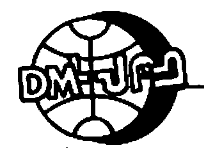
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

مفكرون وقضبان

حكايتى .. مع السجن

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٢٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3922525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO



حنفى المحلاوى

مفكرون وقضبان

حكايتى .. مع السجن

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ

(صدق الله العظيم)

(سورة يوسف)
جزء من الآية (٣٣)

مفكرون وقضبان:

حكايتى مع السجن

كم مرة ....
دخلت فيها السجن ؟ !

رأيت من حقى وقبل بداية رحلتنا داخل عقول المفكرين الذين هم ضيوف هذه الصفحات.. أن أتساءل .. (كم مرة .... ؟). ولكننى سرعان ما أدركت خطأ السؤال .. الذى ربما ستكون الإجابة عليه خطأ أيضاً لأننى أعرف طبقاً للقواعد العامة أن مابنى على خطأ فهو خطأ .. ومع ذلك وجدت بداخلى إصراراً غريباً لتوجيه هذا السؤال .. رغم اقتناعى الكامل أنه سوف يثير فى النفس الشجون ، ويسترجع من اللاوعى الألم والفزع..

ـ كم مرة دخل هذا المفكر أو ذاك السجن ؟ وعاش خلف القضبان ؟

والعبرة من الحصول على الإجابة لم يكن معرفة الزمن، أو المدة التى قضاها هناك أو هنا ، بقدر ماكانت الرغبة فى معرفة الكثير عن الماضى القريب . فكنت على يقين من أننى حين أوجه هذا السؤال على الرغم من ألفاظه التى لايعترف بها المفكر .. فسوف أحصل على القدر الكافى من خلاصة التجارب التى عاشها أو سجلها المفكر سجين القبضان .. الذى وجد نفسه بين لحظة وأخرى وسط عالم غريب .. ربما لم يتصوره مرة واحدة فى كتاباته وأفكاره ..

ولاشك أن الآلاف غيرى .. بل إن شئت قل الملايين الذين هم فى شوق الآن .. يريدون أن يعرفوا الإجابة على السؤال .. والظروف التى واجهتنى نفسياً حين كنت ألقى به على ضيوفى عبر هذه الصفحات .

بداية .. وللأمانــة وللتاريخ .. أسجل هنا .. وبقلمى .. أننى عبر رحلتى الطويلة التى استغرقت كل هذه الأوراق .. بعدما نقلت فوقها أحاسيس هؤلاء المفكرين، وسجلتها فى جلسات طويلة .. قد شعرت أنهم أى المفكرون فى حاجة مثلى إلى توصيل انطباعاتهم عما لا قوه فى داخل السجون .. بالـرغم من أن كل واحد منهم قد عبر عن فترة وجوده خلف القضبان بطرق شتى ، وبآلاف الصفحات .. وبألوان متعددة من أدوات الاتصال مابين رواية أو قصة أو مسرحية وسيناريو فيلم ومابين كتاب مطبوع .

وكانت البداية دائماً ـ عبر أسلاك التليفون ـ ومن قبلها كنت أعيش لحظات تعيسة .. أبحث خلالها عن أرق الكلمات التى سوف تكون سبيلى لإقناع محدثى على الخط الآخر بالموضوع وجديته .. ومن ثم الفوز بلقاء نتحاور فيه وندخل خلاله سوياً ولو للحظات إلى زنزانة .. وكثيراً ما أنجح .. وقليلاً ما أفشل .. وأنا كلى تقدير لهؤلاء الأعلام المفكرين الذين قبلوا أن يفتحـوا لى قلوبهم وصدورهـم .. ولم يصبنى اليأس ، فتكـرار المحاولة يعنى المزيد من الجديــة .. والحمد للــه .. اقتربت كثيراً من عالم هــؤلاء العظماء الذين فى غفلة من الـزمان وضعوهم وراء القضبــان مع نخبة من المجرمين والقتلــة .. وتحدثنا كثيراً .. وعــدت إلى نفسى مراراً أسأل عن المدخل والمخــرج .. وأجرى وراء كل حــرف أعيـد سماعــه من الشرائط العديـدة التى سجلت عليهـا هــذه الحوارات .... والتى هى خلاصة ماكتبته فوق هذه الأوراق.. مستعيناً بتلك الكتابات التى سطروها فوق أوراق دفنوها داخل كتب عديدة .. محاولاً أن أعيش الجو النفسى الذى كان يسيطر آنذاك على هــذا المفكـر أو ذاك .. لأننى أجلس الآن أمــامهم بعــد مــرور عشرات السنين على هــذه التجربــة .. ومطلوب أن أسجل مــابداخلهم بأمــانة وما أشعــر به أنــا أيضاً بأمــانة .. وماســوف تشعرون أنتم بــه أيضاً .. وكــان شاغلى الشاغل أن أحصــل ولو حتى على عناوين هذه المؤلفات أو السطور التى كتبوها ولو فوق جدران الزنزانة ..

ومن أجل تأكيـد منهجى فى التفكير والكتــابة والتعــريف بضرورة أن يعيش المؤلف

لحظات الاخرين حين يكتب عنهم .. ماسمعته من أحدهم وهو يروى عن واقعة لمفكر مصرى دخل السجن .. وأبعدوه فى الواحات حيث الصحراء .. وجردوه من كل شئ حتى اسمه .. وحولوه إلى شئ يتحرك ويحمل رقماً .. هذا الفنان المفكر طبقاً لرواية الراوى .. رغم أنه عاش حياة صعبة كلها تعذيب وتغريب فقد كان فى أوقات فراغه يحن إلى مايفكر فيه ويسعى جاهداً إلى أن يخرج فكره فناً مكتوباً أو مرسوماً.. ورغم عدم وجود الأدوات التى تعينه على ذلك فقد استمر يحفر بأظافره فوق باب خشبى مهمل ألقوه فى فناء السجن .. ولما اكتشفوا حيلته .. بعد أن أكمل حفر اللوحة .. قذفوا بالباب فى النار .. واعتبروا أن ذلك هو آخر مطاف تقييد المفكر الفنان وحرمانه من أدوات التوصيل التى اكتشفها هو رغماً عنهم .. ولم يصبه اليأس فقد لجأ إلى باب الزنزانة نفسها .. ومع ليالى القمر وآهات التعذيب ودموع الفرح والضيق .. أخذ يحفر ويحفر .. بأسنانه وأظافره وأخيراً .. وبعد سنوات تحول الباب إلى لوحة .. وتحولت جدران السجن إلى متحف ..

وبعد سماع هذه القصة .. سعيت للقاء هذا المفكر الفنان .. لكننى عرفت أنه رحل عن عالمنا .. وعلى أية حال لقد تعلمت منها الكثير وسعدت حين علمت أن باب الزنزانة معروض الآن فى أحد المعارض الفنية .

❋ ❋ ❋

وكانت تلك هى المرحلة الأولى .. لقاء وأكثر من اتصال .. إقناع .. ثم حوار وتسجيل ولقطات تذكارية .. وكلمات توجع العقل قبل القلب .. أما الشئ اللافت للنظر أننى فى كل لقاء مع مفكر عملاق .. كنت أشعر بأن واقعة السجن أو الحبس أو الاعتقال .. بالنسبة له كانت واقعاً بدأ مؤلماً ثم تحول إلى حلم جميل كانت تتخلله لحظات رعب بين الحين والحين .. عندما تتدخل أدوات التعذيب ولكمات الزبانية .. فقد اعتبرها معظمهم فترة لإعادة الحسابات واختبار النفس .. وبداية الانطلاقة نحو التمسك بالفكرة والموت من أجلها ، بل وكانت بالنسبةلبعض هؤلاء فرصة اللقاء والمحاورة والتأمل .. مع أنه كان ينقصها أدوات التعبير من أوراق وأقلام .. تلك المشكلة التى نجح فى التغلب عليها

المفكرون والفنانون الذين كانـوا يعبرون عن واقعهم حتى بدمائهم ويستخدمون القش فى رسم هـذا الـواقع .. كما كانـوا يحفـرون بأصـابعهم وأسنانهم .. وأظـافـرهم على الجدران.

***

والسؤال الثانى الـذى رأيت أن أعرف الإجابة عليـه مثلكم .. هو (لماذا .. هؤلاء..؟). لأن المعرفة وكما يقول أصحـاب الفكر هى بداية الطريق نحو الفكـر ، فما دمنا نريد أن نعرف فسـوف نبحث .. ومادمنـا نبحث سوف نعثـر على الحقيقة أو لا نعثـر عليها .. عندئذ تبدأ مرحلة التفكير حتى نستطيع أن نميـز بين ماهو حقيقى وماهو غير حقيقى.. والمعرفة التى أقصدها محددة بكلمات السـؤال .. وهى تختلف عن المعرفة المطلقة .. أو المعرفـة التى ليس لها حدود .. والتى لها أسماء متعددة فى عالم الفلسفـة والاقتصاد .. والتخصصات العلمية والأدبية الأخرى .

لكننى سرعان ماعدت مستدركاً كلمات السؤال .. قبل الوقوع فى الخطأ فكيف أسأل عن لماذا هـؤلاء .. ؟ .. وأنا لم أبين من هم .. ؟ إذن علينـا منذ هـذه اللحظة .. أن نعـرف ضيوف هـذا الكتاب .. عددهم .. اتجاهاتهم .. أفكـارهم .. الدور الذى لعبـوه .. ميولهم السياسيـة والاجتماعية .. وليس المقصد أن نصنفهم .. فالفكـر يرفض التصنيف .. بل علينا أن نتعقب خطواتهم وكلماتهم ولانبغى من وراء ذلك سوى أن نعيش معهم وبهم داخل الزنـزانة أو خارجهـا .. نعرف كيف كانـوا يفكرون ؟ .. وكيف كانـوا بيننا رغم وجودهم هم داخل جدران سوداء وأسوار عالية ، وحراسات مشددة ؟ ..

***

لقد وقع اختيارى على مفكرين مصريين معاصرين .. مازالوا يمشون بيننا تاريخاً .. مكسوا بـاللحم والعظام القـادرة على الحركة والتحمل رغم أن معظمهم بلغ مـن العمر عتياً ..أثْرَوْا حيـاتنا الفكرية فى مختلف نواحيها .. فمنهم الصحفيـون والأدباء والكتاب والعلماء .. وأسـاتذة الجامعـة بـدون تفـرقة .. وكنت فى حيرة مـن أمرى حين قـررت الاختيـار . لأننى لابـد وأن أقع فى المحظور قبل أن أعيش الفكـر معنى ولفظـاً ودوراً .. وهذه قصـة أخرى .. فقد جـاوزت حدود الأوراق وعشت لحظـات طالت وقصرت من

أجل أن أبحث عن معنى الفكر ودور المفكر .. ووجدت ضالتى فى قواميس اللغة ودوائر المعارف ، وعلى أفواه كبار مفكرينا هنا وهناك .. ولن أسوق ماعثرت عليه فى هذا المجال .. إلا حين نستكمل سوياً بقية الإجابة على السؤال (لماذا هؤلاء ..؟)

****

والاقتراب من مجال الإجابة على السـؤال : لماذا هؤلاء بالذات ؟ سـوف يدخل بنا فى عالم التـاريخ ويجعلنا نطوف داخل دروبه القـديمة والمتوسطة والحديثـة .. بحثاً عن المفكرين الذين عاشوا تجربة السجن أو النفى أو الاعتقال ولكننا آثرنا ألا نبتعد كثيراً .. لأن التاريخ بصفحاته الصفراء المتهالكـة يحمل ألواناً من تجارب هؤلاء المفكرين الذين كانت تهمتهم الوحيدة أنهم كانوا يفكـرون ويحلمون بواقع وحياة جديدة .. ولا هدف لهم فى الحياة سوى الأخـذ بيد أفراد مجتمعهم للسير نحـو الأمام .. وكثيراً ما أدى بهم الخلاف مع رجال الحكم إلى غياهب السجون .. إن تجارب هؤلاء المفكرين تملأ آلافاً من الكتب التى تعد سجـلات تحمل علامات صفراء وحمراء وسوداء .. هـى نقاط يتوقف عندها الزمن أسفاً وحزناً .. لأن معنى أن نزج بالمفكر داخل السجون أنك تحرم المجتمع من أفكاره .. ولن أناقش هنا .. هل تكون هـذه الأفكار ضد المجتمع أو معه .. لأن المفكر لا شاغل له فيما يفكر سوى تقديم عصارة فكره فى ألوان من التعبير لصالح الجماعة .. إلا قليلاً .. فنادراً ماتجد طائفة مـن هؤلاء يسعون إلى خراب المجتمعات .. إلا إذا وقعوا تحت وطأة الدعاية التى تلون أفكارهم وتلوثها .. ولايحدث مثل ذلك إلا حينما يصطدم هؤلاء بالسلطة ورجال الحكم .. عندئذ يصورونهم شياطين بأجنحة وأنياب مصاصى الدماء ..

والصدام بين رجال الفكر وأصحاب المصلحة من رجال الحكم .. قديم قدم الإنسان على الأرض .. ولايخلو عصر من العصور القديمة أو الحديثة من قصة أو قصص تروى لنا كيف كـان مصير هؤلاء المفكـرين الذين يحلمـون بالتغيير والـذى كان حتماً ينتهى بالموت حرقاً أو تعـذيباً .. والتاريخ بصفحاته المتهالكة يحوى هذه الحكـايات لمن يريد المزيد .. ولكننا سـوف نتوقف عند ذكر المفكرين المصريين المعـاصرين الذين رحلوا عن عالمنـا .. ولم يبق لهم بيننا سوى كلماتهم وعصـارة أفكارهم .. هؤلاء المفكـرون الذين

عاشوا تجربة السجن والاعتقال .. ولسوف نذكر بعضهم .. ولايعاتبنا أحدإذا أغفلنا مفكراً منهم .. لأن ذلك بالفعل لن يكون عن عمد .. فأنا أقف منحنياً لهؤلاء الذين حملوا مشاعل الفكر وأضاءوا بالكلمات أنوار الواقع والمستقبل .. ولكل منهم دوره البارز الذى لايزال يعيش بيننا .. ويكفى أنهم قد ودعوا عيش الحياة الهادئة و نذروا أنفسهم وأقلامهم وعصارة أحلامهم لنا .. وللأجيال القادمة .

ولسوف نحاول أن نرسم دائرة .. وبها أركان متعددة .. نلصق بكل ركن فيها اسم أحد هؤلاء الأعلام فى الفكر المصرى المعاصر .. الذين عاشوا تلك التجربة .. وقضوا أياماً وراء القضبان .. ولن يكون هناك ترتيب مسبق .. فإننى أعود وأكرر أن المفكر الحق .. لايعنيه أن يكون فى المقدمة أو فى المؤخرة من حيث الترتيب .. لأن أعمال المفكرين دائماً تتقدم وتعلن عن نفسها حتى ولو حاولوا إخفاء أو طمس أعمالهم .

وبالحديث عن أسماء هؤلاء المفكرين الذين لم يسعدنا الحظ من أجل استضافتهم عبر صفحات هذا الكتاب مثل غيرهم من المفكرين الأحياء .. نكون قد أكملنا إجابة السؤال عن السبب الذى حدا بنا إلى هذا الاختيار .. فأنتم معى، أننى كنت على حق ومازلت فى اعتقادى أن المفكرين الاحياء .. سوف يثرون التجربة ويضيفون إليها لقطات حية قد تكون غير حاضرة .. ونسوا تسجيلها داخل أوراقهم القليلة التى عبروا بها عن أيام القضبان .. أضاف إلى ذلك أن اللقاء مع هؤلاء المفكرين الأحياء .. أضاف عنصر الحيوية الذى نتج عن الحوار المتواصل.. والفرق شاسع بين أن نتعامل مع كلمات مكتوبة صماء .. وبين أن نتعامل مع أصحاب هذه الكلمات وجهاً لوجه .. وبمجرد أن نذكر أسماء مفكرينا الذين رحلوا عن عالمنا .. سوف نشعر بالفرق .. ليس من حيث القيمة والهدف والمعلومة أو الفكرة .. ولكن من حيث الحيوية التى تنبض بها كلمات هؤلاء، فإذا ماوضعت أصبعك على كلمة لمفكر لايزال يعيش بيننا .. حتماً سوف تشعر بأن الدماء لاتزال تجرى فى حروفها .. والعكس صحيح .. فكلمات غير هؤلاء تجدها باردة.. حيث تجمد الدم فى حروفهاولانقل أنها قد ماتت ، فالأفكار ووسيلتها الكلمة لاتموت أبداً .. ولكن ربما يتغير مفهومها .. ومع ذلك تظل نفس الكلمة نابضة بما فيها من فكرة .

لقد أخذتنا الشجون بعيداً .. عن ذكر أساتذتنا من المفكرين الذين رحلوا عن عالمنا .. وحتى لانتهم بداء النسيان الآن .. علينا ذكر أسمائهم مع الإجلال والتقدير .. لأن أعظم مافى الحياة هى الكلمة الطيبة ومصدرها الفكر .. فالكلمة الطيبة أبداً لاتكون فارغة .. بل هادفة . ويأتى فى مقدمة هؤلاء المفكرين المعاصرين .. الذين عاشوا تجربة الغربة داخل جدران السجون ووقفوا ساعات طويلة بالليل والنهار خلف القضبان الحديدية عباس محمود العقاد .. الدكتور لويس عوض .. الدكتور يوسف إدريس .. سيد قطب .. الشيخ حسن البنا .. توفيق دياب .. الكاتب الصحفى محمد التابعى وآخرون ..

* * *

ومن الأمور الإجرائية التى صادفتنى وأنا أتحدث عن تجربة سجين الفكر .. هو كثرة ترديد عدة ألفاظ .. تصب جميعها فى معنى واحد هو تقييد حرية المفكر .. فكثيراً ماسمعت ألفاظاً مثل «الاعتقال» «التحفظ» «السجن» .. وكلها تدور فى فلك واحد .. أقصد أنها تؤدى إلى نتيجة واحدة مؤداها أن يتم إبعاد المفكر عن واقعه .. وحرمانه من الحرية والحياة وأدوات التعبير أيضاً .. واستخدامى لكلمة الأمور الجنائية .. هى بالطبع فى محلها .. لأننى أتحدث بالفعل عن إجراءات قانونية تصاحب عادة الزج بالمفكر وراء القضبان .

ولكن إذا ما فتحنا المجال لحديث القانون وإجراءاته .. فلن تسعفنا هذه الصفحات القليلة .. لذا سوف نمس هذا الموضوع مسًا سريعاً .. حتى تكتمل وظيفة المعرفة لدينا .. ونكون قد وفينا المفكرين حقوقهم .. وإلا كيف نتحدث عن السجن والقضبان ولانتحدث عما يصاحبها من إجراءات ..

تقول كتب القانون الجنائى .. إن السجن يعنى إحدى العقوبات المحكوم بها فى الجنايات مثل الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة ..

أما الحبس فهو إحدى العقوبات المحكوم بها فى الجنح .. بالإضافة إلى الغرامة التى لاتزيد على مائة جنيه .

وبالتالى السجن والحبس يعنيان فى أصولهما تقييد الحرية .. إلا أن السجن يعد درجة أشد من حيث نوع العقوبة وطريقة المعاملة .. لأن السجن فى العادة يرتبط

بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .. ويكون ذلك فى الليمانات إلا إذا كان أقل من ثلاث سنوات ..

كما أن السجن والحبس بالإضافة إلى ذلك هما عقوبتان مرتبطتان بحكم قضائى صادر عن قاضى المحكمة ومشمول بالنفاذ.

بخلاف ذلك هناك مايسمى قانوناً بالتحفظ أو الاعتقال ، وهو إجراء يسبق المثول أمام المحكمة تقوم به جهة الضبط الممثلة فى رجال الشرطة لضمان عدم هروب المتهم . وعادة لايجوز أن تزيد مدة التحفظ هذه على ٤٨ ساعة .. وهو مايسميه المشرع فى القانون الجنائى «بالقبض» أما فى القانون العسكرى فإن مدة التحفظ بالنسبة للعسكريين لايجوز أن تزيد على عشرة أيام ..

أما من حيث أهمية اتخاذ مثل هذا الإجراء وفقاً للقانون الجنائى .. فهى مجرد مجموعة احتياطيات الهدف منها التحقق من شخصية المتهم .. ويجوز فيها حجزالمتهمين ووضعهم فى مكان أمين تحت تصرف رجال الشرطة ..

وهناك أيضاً مايسمى فى القانون بالحبس الاحتياطى .. وهو إجراء يتم تنفيذه أو اتخاذه بعد مثول المتهم أمام المحكمة .. وهو قد يطول لشهور وتختلف فيه الجريمة الجنائية عن الجرائم العسكرية .. والمهم يجب ألا تطول مدة الحبس الاحتياطى عن ستة أشهر .. ويكون السبب فى ذلك راجعاً إلى الخوف من التأثير على أدلة الجريمة أو الخوف من الانتقام من المجرم نفسه أو منه على غيره .. وأخيراً ضمان سير التحقيق ..

وإذا ماعدنا من جديد إلى الفكر وجرائم المفكرين إن جاز هذا التعبير قانوناً .. وجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مفهوم الحرية .. ومفهوم الفكر .. الأمر الذى جعل الكثير منا يربط بين المفهومين لغوياً .. فكثيراً ما نسمع ونقرأ فى بعض الكتب «الحرية الفكرية» أو «حرية الفكر» .. رغم أن هناك اختلافاً كبيراً معنى ولفظاً بين الكلمتين .. وإن كان هناك ارتباط وثيق بين وظيفتيهما داخل المجتمع .. الأمر الذى جعلنى أحاول أن أتلمس هذه الفروق .. حتى تكون الفائدة مكتملة خاصة بعدما تناولنا هذه التفرقة فيما يسمى بـ «السجن» أو «الحبس» أو «الاعتقال» .. رغم أن الهدف منها واحد وهو تقييد حرية الإنسان ..

وبالنسبة لمدلول الحرية .. وكما يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم محفوظ : هى كلمة أرق من أن تكتب على ورق ، وأطهر من أن تنطق من ثنايا شفتين ، رغم أنها كانت ومازالت سبباً فى كثير من الأحداث والثورات والصراعات على مر العصور .. فكم قاست شعوب وقهرت من أجل الحرية .. وكم ضحت أمم ودمرت دول من أجل الحرية .. وكم قاسى مظلوم وعذب سجين ومات برىء من أجل الحرية .. وقد تبارى آلاف من الفلاسفة منذ فجر التاريخ في تعريف هذه الكلمة .. ووضع المفاهيم لها .. وكانت كلها تصب فى معنى واحد وهو أن الحرية ليست مجرد «أمنية» ، وإنما هى «إرادة» .. وبالتأسيس على ذلك تتأثر الحرية بالإمكانات المتاحة للإنسان ، فكلما تدعمت إمكاناته المادية والمعنوية كلما زادت حريته .. وعلى ذلك فإن الحرية المطلقة لاوجود لها .. ولايمكن أن يكون الإنسان حراً فى جميع الأوقات بشكل مطلق .. لأن الحرية يحدها النظام ..

ومع عدم تحديد معيار واضح ودقيق لمفهوم الحرية فقد اختلف الفلاسفة وعلماء السياسة ورجالها وفقهاؤها فى تحديد هذا المفهوم .

ويجرنا هذا الحديث إلى ضرورة معرفة أنواع الحريات التى ترتبط بحياة الإنسان داخل مجتمعه .. وإن كانت تختلف من مجتمع لآخر .. ومن عصر لآخر ، رغم أن الفقهاء استطاعوا أن يحددوا أنواع الحريات العامة وحصروها فى عدة أنواع هى : الحريات والحقوق التقليدية ، والحريات الاجتماعية ، والحريات والحقوق الاقتصادية ، وأخيراً الحريات والحقوق الفكرية ، أو بمعنى آخر هناك الحريات المادية التى تمثلها حريات الأمن والتملك وحرية المسكن ، وكذلك حرية العمل .. وهناك أيضاً حريات معنوية مثل حرية العقيدة والاجتماع والتعليم والصحافة .. وكلها تصب فى إطار نطلق عليه «حرية الفكر» وهذا هو مانعنيه ونرمى إليه من هذه الدراسة .. لأنها ترتبط بموضوعنا الذى هو مادتنا الأساسية فى هذا الكتاب .. ولأنه من الضرورى بيان هذه الحرية ومواصفاتها .. حتى نستطيع أن نلتمس الفروق الكبيرة بين مايقوم به المفكر ودوره فى المجتمع وبين مايقوم به اللصوص والمجرمون من جانب آخر وفقاً لنظرة القوانين.. ومدلول الحرية .. وقبل أن نعيش هذه التفرقة نود أن نبين أولاً ماهية الفكر .. وتعريفه وأهميته ودوره فى المجتمع .. وسبيلنا إلى ذلك قواميس اللغة العربية وبعض المعلومات التى عثرنا عليها فى دوائر المعرفة ..

* * فى القاموس .. وتحت حرف «الفاء» نجد أن الفكـر جمعها أفكار .. ومعناه تردد الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المعانى .. وشارد الفكر يعنى غافل وساه .. والفكرة تعنى إعمال الخاطر فى الأمر..

** فى دوائر المعـارف .. تحت كلمـة «فكـر» : نجد المعنى يقـول : الفكـر والتفكـر والتفكير هو التأمل .. ورجل فكير أى كثير التفكر .. والتفكير من أبحاث علم النفس وهو عملية عقليـة نزوعية تهدف إلى الوصـول إلى حقيقة مجهولة كحل مشكلـة من المشاكل التى تعترض الإنسـان .. لهذا كـان التفكير من الصفـات التى ينفـرد بها الإنسـان لأن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجـارب ماضية وإدراك العـلاقات بينها فى ضـوء حقيقة ماثلة أمام الأفراد .. فكل عملية تفكير هى فى الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق وقد يكون التفكير إلى جانب ذلك فى صورة تفسير مجموعة من الحقائق المشـابهة وهو مايعرف بـالاستنباط تمييزاً لـه عن القياس .. إن التفكير فى جميع صوره ماهو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التى تواجهه ..

وقد اقترب مفهـوم التفكير لدى الدكتور زكى نجيب محمـود من هذا المعنى كثيراً .. حيث يـرى شيخ الفلاسفـة المصريين والعـرب فى العصر الحديث أن التفكير هو عمليـة ذهنية نرسم بها خريطة العمل المؤدى إلى تحقيق هدف ما ، وبعد ذلك فلتتنوع الأهداف ماشاء لها صاحبها أن تتنوع ، لكنهـا جميعاً تلتقى عند هذا الأصل .. أو بمعنى آخر كما يقول الدكتـور عبد المنعم محفوظ فى كتابـه «علاقة الفرد بـالسلطة» : إن عملية التفكير تقتضى من رجل الفكر أن يـرسم لفكره هذا خـريطة على هداها من أجل الـوصول إلى هدف منشود .. وفى حالة تدخل رجال السلطـة لإضافة ملامح لهذه الخريطة أو حذف بعض معـالمها ، كـان ذلك بمثـابـة تدخل سـافـر من أجل ألا يبلغ المفكـر الغايـة التى يستهدفها ، وحين نتحدث عن جانب من جوانب المنهج العلمى فى التفكير باعتباره جانباً بالغ الأهمية .. نجد أن كل تفكير منهجى مهما كان مـوضوعه لابد وأن يبدأ من أساس يوضـع وضعاً .. وهذا يدل دلالة واضحة على أن حركة الفكر ديناميكية ولا تبدأ أبداً من فراغ..



ولن ندخل فى تفاصيل ما يتعلق بموقف الفلاسفـة من الفكر باعتباره أساس وجود

الإنسان فـوق الأرض ، ونظرتهم لهذه الأصناف من البشر الـذين يحملون هـذه المهمة الشـاقة فـوق أكتفاهـم لصالح المجمـوع قبل صـالح الفرد أو صـالحهم الشخصى .. ويمكن القول بأن فيلسوفاً عظيماً هو «كانت» قـد قال عبارته المشهورة : «أنا أفكر إذن أنا موجود».. وبالتالى فقد نفى صفة الوجود لهؤلاء البشر الذين لايفكرون .. لأن العبرة من وجهة نظره أن يعيش الإنسان بالعقل قبل الجسد ..

وليست الفلسفة هى وحـدها التى نادت بضرورة أن يكون الإنسـان مفكراً بل قبل الفلسفة جاءت الأديان السماوية التى عظمت تفكير الإنسان .. وجعلته الطريق الحقيقى للوصول إلى الحقيقة ..

هذا باختصار هو مضمون الفكر ومدلولات الحرية .. باعتبار وجود علاقة تواصل وتفاعل بينهما .. وبقى لنـا أن نتحدث عن حـرية الفكـر من حيث التوصيف القـانونى والدسـتـورى وهو مـوضوع يطول الحديث فيـه .. حيث تناولتـه العديـد من المؤلفات وتصدى له أسـاتذة وفقهاء القانون فى مصر وفى غيرها من الـدول الأوروبية .. ولكننا سوف نحـاول إيجاز القول حتى نعـرف موقع هـذه الحرية بشقيهـا داخل المجتمع .. وموقف سلطـة الدولـة منها .. أو بمعنى آخر معـرفة مـاتثيره الحريات من تأثيرات فى مواجهة الآخرين .. وفى مواجهة السلطة العامة ..

والحديث القادم يستند على القاعدة التى تقـول : إن الفكر يختمر فى عقل الإنسـان ثم يخرج من إطـاره الـداخلى إلى المجتمع الـذى نعيش فيـه وأن الأفكار تتجسـد فى قـدرة الإنسان على التعبير عن ذاته .. وهو مايسميه رجال القـانون بالقدرة على التقرير الذى يقوم على الاختيار .. وعادة ماينعدم هذا التقرير» إذا حرم الإنسان من حق الاختيار أو وسيلة التعبير .. ثم إذا فرض عليه مضمون هذا الاختيار رغماً عنه ..

وحريـة الفكر مثل غيرها من الحريـات الأخرى لابد وأن تتجسـد فى الممارسة لأنها تبدأ بتكوين الفكـرة ثم الإقدام على ممارستها أى تنفيذهـا .. ووفقاً لهذا المفهوم ، وكما يقول الدكتور محفوظ ، فقد تضمنت كل مـواثيق الحرية والدسـاتير فى الدول المعاصرة النص على حـرية الفكـر .. أيا كـانت فلسفات هـذا الحكم .. وقد لاحظ فقهـاء القانـون صعوبة تصنيف حريـة الفكر ووضع ضوابط محددة لها .. والسبب فى ذلك يرجع إلى

التـداخل بين الخطوات والمراحل التى تمر بها الفكـرة .. كما يعـود من جانب آخـر إلى الخلط بين الفكر والـرأى والعقيدة ، وصعـوبة تحديد ضـوابط ومعايير التفـرقة فيما بينهم..

ورغم ذلك .. فقد وضعت تصنيفات متعـددة لهذه الحرية نذكر منها : حـرية الرأى وحرية العقيدة وحرية الصحافة وحرية التعليم .. وكذلك حرية المسرح والسينما .. إلا أن حرية الرأى تعتبر فى المقام الأول .. ويعدها الفلاسفة أهم هذه التصنيفات لأنها تمثل العمـود الفقـرى للأنـواع الأخـرى .. والـدليل على ذلك أن «الإعلان العـالمى لحقـوق الإنسان» الذى صدر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ قد نص فى المادة «١٩» : أن لكل إنسان الحق فى حـرية الرأى وحريـة التعبير بما يتضمنه ذلك من حريـة اعتناق الآراء بمأمن من.. وكـذلك حرية طلب الحصـول على المعلومـات والأفكار وتلقيهـا وإذاعتها بمختلف الوسائل دون التقيد بحدود الدولة ..

والشىء اللافت للنظر .. وكما تقول كتب القانون .. إن حرية الرأى هذه مازالت تعد من أكثر الحريات التى أثير حولها الجدل داخلياً والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى مايمكن أن تثيره هذه الحرية من هزات اجتماعية عندما تتدخل السلطة لدى من يمارسـها ..

وفى الواقع .. وبعيـداً عن النصوص المكتوبة .. اتضح أن العبرة ليست بتـدوين هذه النصوص فى كتب والتزين بها .. تلك التى تتحدث عن هــذه الحرية بالذات .. سواء على المستوى العالمى أو مستوى كل دولة .. وإنما اتضح أن الأهم من هذه النصوص المدونة وتلك الدساتير والمواثيق هو القدرة على الممارســة التى تعنى الإقدام على استخدام هذا النوع من الحرية .. وفى الوسائل النفسية قبل الماديـة التى توفرها الدولة . والقدرة على الممارسة هنا بمعناهــا العملى تعني الشجاعة التى يقوم بها الفرد على ممـارسة حريات فكره .. وعلى وجه الخصوص حرية رأيه فى مواجهة السلطة العامة ..

وخلاصة القول لقد .. اتضح أن حريـة الرأى .. وموقف السلطات من المفكرين عبر العصور قـد جعلت الدول المعـاصرة تتدخل بـالتشريع لتنظيمها ووضع الحدود لها .. وكذلك ضوابط ممـارستها .. ولكن كيف يتم ذلك ؟ .. يؤكد الفلاسفة ورجـال القانون وفقهاؤه أن دور الدولـة يتجسد فى دور السلطة العامة .. لأن هدفهـا هو تحقيق النظام

العام فى الظروف العادية .. وقد اصطلح على تسمية هذا الدور قانوناً بـ «الضبط الإدارى» .. وهو عبارة عن مجموع ماتفرضه السلطة العامة من أوامر ونواه وتوجيهات ملزمة للأفراد بغرض تنظيم الحريات لصيانة النظام العام فى المجتمع ..

ومدلول كلمة «الضبط الإدارى» فى فقه القانون يقوم على فكرة اختصاص السلطة العامة فى أن تفرض على الأفراد قيوداً تحد بها من ممارسة حرياتهم .. ويستمد النظام العام الذى يطبق هذا المفهوم قوته من ثلاثة عناصر هى : الأمن العام ، والسكينة ، والصحة العامة .. وعادة ما تلجأ الدول إلى العديد من الوسائل لتحقيق هذا النظام الذى يكون ضحيته فى المقام الأول حرية الفكر ..

***

فى بداية رحلتنا مع هذه الكلمات تساءلنا كثيراً .. واتخذنا العنوان من عدد المرات التى دخل فيها المفكر السجن .. ورأينا أن خير ختام لجولتنا عبر هذا الفصل هو تسجيل أحاسيس هؤلاء المفكرين لحظة الخروج من وراء القضبان .. والاستعداد للرحيل بعد الإفراج .. لأننا عرفنا مسبقاً .. أنه فى الغالب يتم القبض على المفكر وإيداعه السجن دون علم مسبق منه .. كما أن الاعتقال أو الخروج.. يتوقف على حالات متنوعة وأوامر غيابية فى غالبية الأحيان تصدر من فوق .. وسبق أن قدمنا جولة قصيرة داخل عقل فقهاء القانون أوضحنا فيها هذه المفاهيم .. المهم الآن أن نسجل لكم هذه الأحاسيس من واقع كلمات كتبها عملاق الأدب العربى عباس محمود العقاد .. الذى ألف كتاباً حكى لنا فيه عن تجربة السجن فى حياته كرجل إنسانى .. وكمفكر إنسانى أيضاً ..

يقول العقاد فى كتابه «عالم السدود والقيود» الذى نشره عام ١٩٣٧ (يوم الإفراج ، أو يوم، البعث والنشور .. أو يوم الحرية .. أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذى انتظره مئات أو ألوف الأيام .. ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره تغتمض عيناه سروراً بلقياه ، وأوشك أن يطير فرحاً بالوصول إليه .. ويظل السجين ينتظره ويطيل انتظاره بالأشهر والأسابيع وتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبين الأشهر والأسابيع والأيام والساعات .. ولايفكر فى شىء غير هذا التفكير .. حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا

بالسجين يراه كأنما وجه قديم طالما رآه وأد من النظر إليه .. فهو منظر من مناظر الماضى السحيق وليس بمنظر طريف ولابموعد جديد ..) هذا عن إحساس الرجل العام الذى لايعيش الفكر .. فما بالك بإحساس العقاد المفكر .. الذى يقول عن نفسه : (جاءنى مأمور السجن عصر اليوم الذى سأغادر فى غده .. وقال لى إنه لايعلم فى أى ساعة سيكون الإفراج ، فيحسن بى أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وأنه سيرسل لى الحلاق ليحلق رأسى ولحيتى التى مضت عليها ثلاثة أيام .. ولايحب رجال السجن أن يخرج السجين من عندهم فى هذا الحال .. لأن رؤية اللحية الطويلة تلقى فى الروع أن السجين خارج من مكان يكثر فيه الإهمال وتقل فيه النظافة والنظام) .

❊ ❊ ❊

❊❊ ترى هل هذه الصورة مازالت على ماهى عليه .. بعد مرور أكثر من خمسين عاماً .. أم تغيرت .. ؟ .. وكيف عاش مفكرو مصر فى السنوات العشرين الأخيرة خلف هذه الجدران .. هذه الأسئلة وغيرها .. هى موضوع كتابنا الذى بين يديك ..

حنفى المحلاوى

الحكاية الأولى يرويها مصطفى أمين :

تزعمت عصابة من المساجين
لتهريب الورق والقلم !!

لم أصـدق حين قال لى أستـاذنا الكـاتب الصحفى «مصطفى أمين» أنه كـان زعيماً لعصابة داخل السجن ..

ولكن وقبل أن تدور الكلمات برأسى وتأخذنى علامات التعجب بعيداً عما يقصده .. أضـاف بقولـه بالفعل كنت زعيماً لعصـابة من المسـاجين .. تعبت كثيراً فى تكوينهـا .. والسبب يرجع إلى إدارة السجن نفسها التى جاءتها أوامـر عليا .. لحرمانى من الورق والقلم .. حتى ورق التواليت منعوه عنى حتى لا أستخدمه فى الكتابة ..

لحظات صمت .. حسبته خـلالها .. يكتب مقدمة مشوقـة لحديث طويل .. واعتبرت كلماته السابقة .. بداية ساخنة لهذه المقدمة .. ولكننى وبالرجوع إلى الكتب الكثيرة التى كتبها فى السجن رغم هـذا الحصار .. والتى ذكـرها لى أثنـاء الحوار .. اكشفت فعلاً أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قـد نجح إلى حد بعيد فى تكـوين هذه العصـابة التى فشلت إدارة السجن لسنوات طويلة فى الكشف عنها ..

يقول «مصطفى أمين» فى أحد هذه الكتب :

القلم ممنوع .. الورق ممنوع .. الحبر ممنوع ..

لقد تنقلت بين عدة سجون .. وفى كل السجـون والمعتقلات التى دخلتها كان يقال لى إن القلم ممنـوع والورق ممنـوع .. والحبر ممنوع .. وبلغ الأمـر بمامور طـره أن منع دخول ورق التـواليت خشية أن أكتب عليـه .. وفى بعض هذه السجـون كانت الكتـابة ممنـوعـة على الإطلاق .. وفى سجـن ليمان طره مثـلاً كـانت الأوامـر والتعليمات التى

أصـدرها وزيـر الـداخليـة آنذاك بشأن معـاملتى .. ألا يـوضـع ورق أو حبر أو قلم فى زنزانتى .. وأن أضعها فى مكتب ضابط العنبر ، وأن أكتب إلى أسرتى مرتين فى كل شـهر ، وألا يزيد كل خطاب على نصف ورقة كراس ، وأن أكتب بالخطاب فى مكتب الضـابط وفى وجوده ..

وكنت مسجوناً نموذجياً ، أطيـع الأوامر والتعليمات مهما كانت سخيفة وجائرة .. وكل تعليمات السجن سخيفة وجائرة .. ولكن التعليمات الـوحيدة التى قررت أن أثور عليها وأخـالفها هى الخاصـة بعدم الكتابـة ، وذلك لأن الكتابة بـالنسبة للكـاتب أشبه بالتنفس ، وكان معنى هذه التعليمات الجائرة أن أتنفس مرتين فى الشـهر ..

وبدأت بمعاونة عدد من زمـلائى المسجونين عملية تهريب الورق والقلم ، ثم عملية تهريب الـرسائل إلى أخـى على أمين فى لندن وسعيـد فـريحة فى بيروت .. كانت عمليـة خطـرة وشاقـة ومستحيلة .. وكـان الذيـن يقومـون بها يعرضـون حياتهم للخطـر ومستقبلهم للضيـاع .. ولكن الرجال الشجعان الذين قاموا بهذه المهام الخطرة من أجلى ومن أجل عدد مـن المسجونين السياسيين لم يخافـوا أبداً .. لقـد استطعت خلال تسع سنوات أن أهرب إلى خارج السجن تسعة آلاف رسالة.. واستطاعت هذه الرسائل كلها أن تخترق الحصـار المضروب وأن تقتحم كل القيود المفـروضـة .. ولم تضبط رسالـة واحدة ..

❊ ❊ ❊

وحينما نتـوقف عنـد كلمات مصطفى أمين واعترافـاتـه فيما يتعلق بتكـوين هـذه العصابـة الغريبـة التى وصف أفرادهـا بالرجـال الشجعان الشهـداء .. نكتشف قيمة الورق والقلم .. حتى ولـو كانت قصاصات بـالية .. وأقلام بلا أسنـان أو أحبار .. كما نكتشف قيمة الـرجال فى الشدائد .. وإلا فكيف يتحـول الكاتب والمفكر ومن حـوله من زملاء الزنزانة إلى أفراد عصابة تقوم بعمل نادر .. لا لتهريب الذهب والماس والأموال .. بل لتهريب الورق والقلم ..

وقبل الدخول فى تفاصيل الدور الذى كـانت تقوم به عصابة مصطفى أمين ، وكيف تكونت ، ومن هم أفـرادها .. وكيف استطاعـوا اختراق حصار هذه السجـون المنيعة .. تعـالوا .. نبـدأ الحوار الذى دار بينى وبين المفكـر الكبير مصطفى أمين الذى استغـرق

تسعين دقيقة فى مكتبه فى أخبار اليوم .. بعد خروجه من السجن وعودته إلى الحياة الصحفية والفكرية بأكثر من عشرين عاماً ..

فى مثل هذه الظروف .. تبدأ أولى خطوات المرحلة فى مكتب السكرتير الخاص الذى تفضل مشكوراً بالاتصال بالمفكر الكبير وحدد لنا موعداً معه .. وفور علمى بالموعد الذى حدده أعددت كل شىء .. الورق والقلم والأحبار .. جهاز التسجيل .. وعيون الكاميرا .. وشيئاً آخر مهماً جداً .. هو الاستعداد النفسى لمجابهة العملاق، ودعوات فى صدرى من أجل أن يطول الحوار ساعات طويلة ..

وقبل الاستغراق الذاتى لتحديد معالم هذا الحوار الذى أعددت عناصره مسبقاً .. انطلق مدير مكتبه بأدب : تفضل .. مصطفى بك فى انتظارك ..

وعلى بعد خطوات .. طرقت الباب برفق .. ودخلت .. صحيح أنها لم تكن المقابلة الأولى بين كاتب هذه السطور وبين مصطفى أمين .. إلا أننى شعرت وكأنما أراه لأول مرة .. وقبل أن يزحف التراجع إلى نفسى .. بادرنى بالتحية .. وكأنما قرأ مايدور فى ذهنى .. خاصة أننى جئت إليه هذه المرة .. أذكره بهموم ماضية، والأيام السوداء التى قضاها خلف القضبان ..

وجاءت ابتسامته .. التى عبرت عن فرحه بهذا اللقاء .. بداية طيبة لى حتى أستكين .. وأركز وأحدد بداية الحوار ..

وجلست أمام مكتبه البيضاوى الضخم .. أتطلع إلي كيانه الكبير، ورأسه التى هى مصدر كل همومه ومشاكله .. ومن بين أسنانى .. خرجت أولى كلمات الحوار ..

*** نبتدى يافندم ؟ ..**

ـ اتفضل ..

ومن قبلها .. أعطيت إشارة البدء لجهاز التسجيل .. واستعد المصور بآلاته .. وانسابت الكلمات فى هدوء .. أنا أسأل .. وهو يجيب ..

*** كم مرة دخل فيها الكاتب الصحفى والمفكر الكبير مصطفى أمين السجن؟**

وقبل أن يجيب بصراحته المعهودة .. استدركت الكلمات .. لأننى أحسست أنها

عبارة قاسية مغلفة فى كلمات أحسست من وقعها وكأننى ساويت بين المفكر الكبير وبين غيره من عتاة الإجرام .. لذا وجدتنى أعيد السؤال فى صيغة أخرى رأيت أنها أكثر تهذيباً وتليق بالمفكر والمفكرين ..

*** عفواً أستاذى .. هل تعرضتم لأى نوع من أنواع العقوبات .. قبل تجربة السجن الأخيرة ؟ .. فى عهد الرئيس عبد الناصر ..؟!**

ـ لقد قبض على عدة مرات .. لكنها كانت عقوبات بسيطة .. ففى عام ١٩٢٨ (أوقفت التسجيل .. حتى يتمكن الأستاذ من الرد على مكالمة تليفونية خاصة) .. ومن بعدها أخذ الكاتب الصحفى مصطفى أمين يروى لى قصته مع القضبان .. وأخذ يحيطنى بأسرار ربما يذيعها لأول مرة .. وحتى لانقطع تسلسل الكلمات وأفكار الأستاذ .. سوف أنقل لكم تفاصيل هذا الحوار .. بدون تدخل من كاتب هذه السطور لا بالأسئلة ولا بالتعليق ..

فى عام ١٩٢٨ .. كانت بداية تعاملى مع السجون ، ومانطلق عليه الآن «الحجز» حيث قبض على أنا وأخى المرحوم على أمين لأننا كنا نهتف فى محطة مصر ضد الدكتاتور محمد محمود باشا .. ووضعنا فى السجن ثلاثة أيام .. ثم أفرج عنا ..

ومرة أخرى قبض على وأنا عندى ١٦ سنة .. وكنت أيامها طالباً فى الخديوية الثانوية .. حيث نظمت إضراباً فى المدارس من أجل إلغاء الدستور ويومها دخلت السجن ومكثت فيه ثلاثة أيام ، واعتبرتها وقتها عقوبة قاسية جداً .

وابتداء من عام ١٩٥٠ وحتى قبيل قيام الثورة ، تم إلقاء القبض على ٢٦ مرة .. أثناء عملى الصحفى .. حيث كانوا يلقون القبض على فى الصباح بتهمة نشر أخبار صحفية ضد الحكومة .. وأستمر فى الحجز .. وفى المساء يتم عرضى على القاضى الذى يأمر بالإفراج عنى فوراً ، وبكفالة فى نفس اليوم .. وأنا أذكر أن مجموع المبالغ التى دفعتها فى الكفالات خلال هذه الفترة التى ذكرتها أكثر من ألف وثلاثمائة جنيه .. ولا تنس أن هذا المبلغ كان عام ١٩٥٠ ، والفرق فى قيمة العملة بين الأمس واليوم معروف .. لأننى كنت أدفع فى المرة الواحدة كفالة ٥٠ جنيهاً .. والشىء المضحك والمبكى فى آن واحد .. أن الثورة حين قامت وعلم عبد الناصر بهذه الغرامات .. أعاد إلى مبلغ ألف جنيه من قيمة هذه الكفالات ..

على أن أهم رحلة كانت لى عبر السجون .. تلك الفترة الأخيرة التى حدثت فى بداية الستينات فى عصر جمال عبد الناصر .. وأذكر تفاصيلها تماماً .. وقد سجلتها فى أكثر من كتاب صدر لى لأنها فترة كانت صعبة إذ ارتبطت فى ذهنى بعدة صور كان أهمها صورة التعذيب البدنى البشع الذى نالنى على أيدى رجال السجن الحربى آنذاك ..

وأذكر أنهم حين جاءوا للقبض على فى عام ١٩٦٥، فى منزلى بالاسكندرية ورأيت الحرس يملأون حديقة المنزل ، تصورت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد حضر لزيارتى .. ثم تصورت بعد ذلك أنه حدث انقلاب ، وأن رجال الانقلاب الجدد جاءوا يقبضون على ، لأننى واحد من المتصلين بالرئيس عبد الناصر ..

وعندما تبينت الحقيقة تصورت أن عملية القبض تمت بغير علم الرئيس عبد الناصر، وقد سبق أن قبض على مرة فى أول الثورة ، ومرة أخرى بعد بضعة أشهر من قيامها .. بدون علم جمال عبد الناصر .. وعندما علم فى المرتين بأمر القبض على وعلى أخى على أمين أمر بإطلاق سراحنا .. ولكن عندما رأيت أن القوة التى جاءت تقبض على صحبت معها مصوراً لالتقاط صورى .. تأكدت أن المسرحية مدبرة ..

ووضعوا القيد الحديدى فى يدى ، وأركبونى سيارة خلفها وأمامها عدة سيارات ، حراس من جهاز الأمن يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة .. ومشى الموكب فى الطريق الزراعى فى طريقه إلى القاهرة ..

أما عن تأثير تجربة السجن على حياتى كإنسان وكمفكر وصحفى وكاتب وصاحب رأى فقد اختلف التأثير من فترة لأخرى .. وإن كان تأثير التجربة الأخيرة التى حكيت عنها أقوى هذه التجارب .. ولكن بشكل عام داخل السجن شاهدنا أشياء لم أتخيل أبداً أنها موجودة بالسجون المصرية .. ولو روى لى سجين هذه الحقائق ونقل لى هذه الصور قبل أن أدخل السجن لما صدقت .. ويكفى أن أقول لك إننى دعيت فى عام ١٩٦٤ إلى زيارة سجن طره .. وكان ذلك قبل إلقاء القبض على فى المرة الأخيرة بعام أو أقل .. وكانت زيارة صحفية من أجل نقل صورة صادقة لما هو عليه السجن فى مصر فى تلك الفترة .. وهناك فرشوا لى الرمل الأصفر بلونه الجميل وكأنما زيارة رسمية .. واستقبال حافل من الضباط ومن المدير .. وأخذت خلال هذه الزيارة أتجول فى أنحاء السجن .. مثلاً أخذونى إلى المطبخ وفيه شاهدت أطباقاً نظيفة بها قطع كبيرة من اللحوم

وحين سألت عن هذه القطع الكبيرة قالوا إنها لمسجون واحد .. ثم عرضوا على رغيفا من العيش مصنوعاً بشكل جيد .. كما أخذونى فى جولة أخرى لزيارة بقية أجزاء السجن فشاهدت حدائق كثيرة واسعة .. وأخبرونى أن هذه الحدائق من أجل نزهة المساجين ..

ثم بعد ذلك دخلت السجن .. ففوجئت بصور مختلفة تماماً ..

رغيف العيش وجدته معجوناً بالتراب وحجمه صغير جداً .. ووجدت أن اللحم الذى يصل إلى المسجون كله دهون ، ولم نكن نرى فى الطبق المقدم إلينا سوى نقط اللحم .. يمكن أن تراها فقط تحت الميكروسكوب .. أما بخصوص الحدائق فكانوا ينبهون علينا أن من يغامر ويخرج إلى الحديقة سوف يحبس ويضرب بالنعال ، لأن هذه الحدائق المزعومة كانت مخصصة للضباط وليس للمساجين من أمثالنا ..

وكنت قد عرفت قبل دخول السجن هذه المرة متهماً .. أن السجن به مكتبة .. ولكل سجين الحق والحرية فى القراءة والكتابة .. ولكن هذه الصورة تغيرت أيضاً فكانوا يمنعون عنا الكتب وكل شيء يتعلق بالكتابة والقراءة .. وقد اكتشفت أن هذه التعليمات خاصة بى فقط .. والسبب أننى وجدت خطاباً قد سبقنى إلى هنا موجهاً من وزير الداخلية آنذاك إلى مدير السجن فيه تعليمات صريحة بمنعى أنا مصطفى أمين على وجه الخصوص من كتابة حتى الخطابات إلا مرتين فى الشهر فقط ..

لقد اكتشفت أن ماشاهدته فى رحلتى الصحفية للسجن قبل القبض على هو ديكور وهمى .. تم تركيبه قبل زيارتى من أجل أن أكتب عنه وأنقله للقراء .. وللأسف كنت كثيراً ما أشاهد هذا الديكور يتم تركيبه وترتيبه من جديد كلما زار السجن مسئول كبير .. وبعد الزياة سرعان ماتعود الأوضاع السيئة على ماهى عليه بل إلى أسوأ .. وأنا أذكر فى مرة من هذه المرات .. أن زيارة المسئول الكبير قد شملت مستشفى السجن.. وكنت وقتها أعالج فيها .. وعلى الفور تم استبدال المفروشات المتسخة والقذرة بغيرها نظيفة .. بل أكثر من ذلك جاءوا بزجاجات الدواء ورصوها بجوارنا بالقرب من الأسرة التى ننام فوقها .. لقد كانت بالفعل مسرحية هزلية ..

***

ورغم ماقاسيته طويلاً داخل جدران السجن .. من عذاب وتعذيب إلا أن السجن لم

يكن شراً كلـه .. فهو عـالم جـديد عليك خـاصـة أن تعيش فيـه لأول مرة .. وفيـه تتم صداقات حميمة نقيـة بعيدة عن الرياء والزيف .. لقد كانت لى صـداقات من هذا النوع داخل السجن ، وامتدت حتى بعد الخروج والإفراج عنى .. وأكثـر هذه الصداقات التى تأثـرت بها وأثـرت فى نفسى .. أننى تعـرفت فى السجن على رجل عظيم عـرض على أن يهربنى إلى الخارج .. وكان مستعداً لدفع مبالغ طائلة كى تتم عملية تهريبى من السجن .. ولكننى رفضت مع أننى لم أقـابل هذا الإنسـان الطيب من قبل .. ويبدو أنـه كان من قرائى الأعزاء .. وعلى أية حال مازالت علاقتى به قائمة حتى الآن ..

***وهل يمكن الإفصاح عن اسمه الآن ؟**

ـ لا ..

أما الإنسان الثـانى أو الرجل العظيم الآخر الـذى تأثرت به وبصداقته فهـو مأمور سجن طـره اللواء عبـد الله عمارة .. ذلك الـرجل الـذى كاد أن يـرفت بسببى .. ولهذه الحكاية قصة .. فقد نما إلى علمى وأنا داخل السجن أن وزير الداخلية آنذاك وهو على ما أذكر شعـراوى جمعة علم أن مصطفى أمين يحصـل على أطعمة خاصـة داخل السجن وتأتيه من الخارج .. وقـد نجحوا فى إثبات ذلك عن طـريق الحصول على رسـالـة كانت ابنتى المرحومة رتيبة قد بعثت بها إلى مأمور سجن طـره وبها قائمة الطعام التى تريد إرسالها إلى داخـل السجن .. وقامـوا بزيارة مفـاجئة للسجـن ضمت وزير الـداخلية وعباس قطب مدير مصلحة السجون آنـذاك وعدداً كبيراً من ضباط الوزارة ..وتفقدوا السجن .. وفى نهاية الزيارة طلب شعراوى جمعة قـائمة الطعام المشار إليها ، والتى تم ضبطها فى مكتب مأمور السجن وأخذ يقرأ مابها بصـوت مرتفع .. وكان بالقائمة طلب لإدخال جبنـة «روكفور» .. حينئذ تقـدم شعراوى جمعة من مأمـور السجن وسأله :

هل تأكل هذه الجبنة فى منزلك ؟

وقبل أن يجيب مأمور السجن المسكين أصدر شعـراوى جمعة قراره الفورى بنقل مأمور السجن اللواء عبـد الله عمارة وحرمانه من الترقية .. وأفهمـه أن ذلك هو إجراء مخفف بدلاً من الرفد ..

* * *

وخلاف ذلك كان معى مساجين كثيرون .. التقيت بهم بعد الخروج والإفراج عنى..

وقابلتهـم .. وقدمت إليهم مسـاعدات كثيرة حين علمت أنهم فى حـاجة بالفعـل إلى هذه المساعـدات .. ومع ذلك فإننى أعتبر ماقدمتـه لهؤلاء قليل جداً بالنسبة للخـدمات التى كانوا يقدمونها إلى ..

وحين ينتقل الحوار إلى جـانب آخـر من جـوانب تأثير تجربـة السجن على الكـاتب والمفكر مصطفى أمين .. يقول :

- بالنسبة لأهم النتاجات الفكرية التى ولدتها تجربة السجن هذه .. أقول لك إن كل الكتب التى أصـدرتها .. كتبتها داخل السجن .. وأذكـر لك بعضاً منها مثـل «سنة أولى سجن » و«ثانية سجن» و«ثالثة سجـن» وهكذا .. ثم قصة «أشرف امرأة فى الشارع».. وقصـة «سنة أولى حب» وقصـة «صاحـب الجلالة الحب» وأيضـاً قصة «لا» وقصـة «الانسة هيـام» .. بالإضافة إلى كتـاب سياسى بعنوان «من واحـد لعشرة» يعنى نقدر نقول إن كل هذه الكتب ألفتها فى السجن وكانت العصابة تهربها ورقة بعد ورقة ..

والشىء الغـريب أننى لم أكتب عن السجن بعـد الإفـراج عنـى ، لأننى كتبت كل انطباعاتى وأنا هناك خلف هذه الجدران الصماء ..

*** وهل السبب ربما يرجع إلى اعتباركم هذه الفترة سوداء فى حياتكم ؟**

- أبداً .. لم تكن فترة سوداء على الأقل بالنسبة لى .. فانا دائماً أذكرها وأتذكرها.. هذا من حيث تأثير التجربـة على مصطفى أمين شـخصياً .. أما عن تأثيرها على حـرية الرأى والفكر فى مصر بشكل عـام .. فأولاً أنا دهشت لأننى اكتشفت أن هذا السـجن قـد دخله غيرى من الشخصيـات العظيمـة جداً أو الهامـة جـداً .. وللأسف لم يكتبـوا عن هـذه التجربـة .. إلا القليل منهم مثل الأستاذ العقاد ومحمـد التابعى وتوفيق ديـاب .. فمثلاً الدكتور أحمد ماهر دخل السجن مدة طـويلة .. وكذلك النقراشى وإبراهيم عبد الهادى .. وربما يـرجع السبب إلى أنهم كانـوا يـريدون نسيـان هـذه الفترة من حياتهم ، أمـا بالنسبة لى فـالعكس صـحيح .. لم أكن أريد أن أنساهـا .. لأننى بالإضـافة إلى مـاذكرته سابقـاً أننى اعتبره دافعاً للتقدم إلى الأمـام ..والشـىء الثانى الأهم أننى وجـدت فى قاع المدينة المتمثل فى المساجين ماهو أكثر قيمة ووفاء وأصالة مما كنت أجده فى مجتمع قمة المدينة .. وهم الناس الذين كانوا خـارج الأسوار .. لقد كان الناس داخل السجن لديهم

وفاء وشجاعة وفدائية وأخلاق ..

*** هل تذكرون بالضبط فترة السجن الأخيرة ؟ ..**

ـ طبعاً .. كانت ثمانى سنوات ونصف بالضبط .. فقد اعتقلت عام ١٩٦٥ ولم أخرج إلاّ عام ١٩٧٤ .. قضيت نصفهـا فى عهد عبد النـاصر ونصفها الآخر في عهـد السادات الذى سمعت أنه كـان ينوى الإفراج عنى فور تـوليه منصبه كرئيس للجمهـورية خلفاً لعبد الناصر .. ولكن ذلك تأخر ثلاث سنوات .. وربما يرجع السبب إلى وشاية نقلت إلى الـرئيس السادات جعلتـه يحجم عن إتمام الإفـراج .. فقد وصل إلى علمـه أن مصطفى يعقد اجتماعات سرية مع على صبرى وسامـى شرف فى السجن .. وقد أكد لى هذا القول الرئيس السادات نفسـه .. وقد اتضح فيما بعد أن أصل هذه الحكاية يـرجع إلى رسالة نقلت إلى الرئيس السادات الذى بادر من فوره بـالاتصال بوزير داخليته آنذاك ممدوح سالم .. كى يسأله عن تفاصيل مانقل إليه ..

ـ إيه الحكاية ياممدوح .. بقى مصطفى أمين وسامى شرف وعلى صبرى يجتمعون يومياً فى زنزانة واحدة ويكتبون كتاباً أسود عنى ..

ورغم تأكيد وزيـر الداخلية بعدم صحـة هذا القول .. حيث أبلغ الـرئيس السادات أننى مسجون فى زنزانة وهم فى زنزانـة أخرى .. إلا أن القرار قد تأخر ..ولم يصدر إلا فى ١٨ مايو عام ١٩٧٤ بالقرار الجمهورى رقم ٥٨ لسنة ١٩٧٤ ..

* * *

*** ذكرتم فى بداية هذا الحوار .. إنكم قد تعرفتم علـى شخصيات سياسية وصحفية كثيرة داخـل أسـوار السجن .. ولم تفصحـوا لنا إلا عن بعضهـا ومنهم رجال طيبـون وأصدقاء .. نـريد أن نعـرض بعض الشخصيات التى التقيتم بها هناك..؟**

ـ فى السجن بقيت ٩ سنوات .. التقيت خـلالها خـاصة بعـد هـزيمة عـام ١٩٦٧ ، بالعـديد من القيـادات السياسية التـى سجنها عبد النـاصر بعد الهزيمـة وأذكر منهم الفريق صدقى محمود قائد الطيران فى حرب ١٩٦٧ ، الذى قال لى إنه نصح عبد الناصر

بأنــه إذا لم نقم نحن بالضربــة الأولى فسوف نهزم .. ولكن عبــد الناصر أصر على أننــا لانضرب الضربــة الأولى .. كما التقيت أيضــاً بــالشيخ حسن الهضيبى المرشــد العــام للإخوان المسلمين ، وقلت له آنذاك (أنا متوقع أن عبد الناصر هيفرج عن كل المسـجونين السياسيين وهيسألهم عن رأيهم فى هذه الكارثة)..

وعلى ذكــر حكايــة الإفراج عن الكــاتب مصطفى أمين الــذى تأخر أربع سنــوات .. تحدثنا كثيراً خلال هذا الحوار عن دور أم كلثــوم فى إتمام هذا الإفراج .. حيث أكد لى أن أم كلثوم كــان لها دور بارز فى الإفراج عنى خاصــة لدى عبد النــاصر الذى لم يستجب لرأيها .. ولكــن ليست أم كلثوم وحــدها ، رغم أن دورهــا كان دوراً رئيسياً حتــى أيام الرئيس الــراحل أنور الســادات .. فقد كــانت هناك شخصيات أخــرى كثيرة قامت بهذا الدور غير أم كلثوم .. أذكر منهم .. الأمير طلال والملك فيصل .. وسعيد فريحة ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان ، وسفير العراق بالقــاهرة آنذاك فايق السمرائى .. وكثير من زعماء الدول العربية المعاصرين لجمال عبد الناصر والسادات..

وكــانت هنــاك عدة محاولات من أجل تبرئتــى من التهمة الظــالمة التى قبضــوا على بسببها ودخلت من أجلهــا السجن .. قام بها أيضاً العــديد من الأصدقــاء .. أذكر منهم رئيس وزراء السودان الأسبق محمد أحمد محجوب الــذى كان قد ذهب إلى جمال عبد الناصر بعــد محاكمتى وسأله : هل حقيقة مصطفى أمين جــاسوس ؟ .. فرد عليــه عبد الناصر أبــداً .. وأكد له أنــه هو الذى كلفنى بــالاتصال بــالأمريكان .. وكل مــاهناك أن مصطفى أمين قال لهم إنكم تريدون أن تقطعوا المعــونة من أجل أن يركع عبد الناصر .. وأنا يا أخ محجوب لا أركع لأحد .. فقا له رئيس السودان آنذاك .. علشان هذه الكلمة .. يبقى تضعه فى السجن ؟ .. فما كان من عبد الناصر إلا أن رد عليه :إننى حبيت أن أؤدبه لكنْ أنا فى الوقــت نفسه مستعد أن أفرج عنه الآن .. لكن لــو حدثت ذلك فمعنى ذلك أن أفــرج عن الشيوعيين والإخــوان .. وإلا قالــوا إن أمريكــا هى التى أجبرتنى على ذلك .. ولكن على العموم حين تحضر إلى مصر المرة القادمة ستجده فى بيته .. ولم يحدث ذلك .. وكذلك فــائق السمرائى سفير العراق فى القاهــرة الذى طلب مقابلة عبــد الناصر لنفس الغرض .. فذكر له نفس حكاية القمح والركوع .. وأنه أى عبد الناصر سوف يفرج عنى من السجن وأيضاً ذلك لم يحدث ..

***

وفى غمـرة حـديث كـاتبنـا الصحفى عن تجربتـه داخل السجن .. وجـدتها فـرصة كى أعرف منـه رأيه فى عقوبة السجن وتـأثيرها على المفكر بشكـل عام .. وهل من الضرورى أن يكـون للمفكـرين سجـون خاصـة بهم ؟ .. كـذلك أردت أن أعـرف منـه بصراحتـه المعهـودة رأيـه فى سجـون مصر الآن .. وهـل هـى فى رأيـه وسيلة صالحة من وسائل التأديب والإصلاح ، أم تسـاعد على زيادة جرعة الإجرام .. وأشياء أخرى كثيرة متعلقة بهذا الموضوع ..

بادرنى الأستاذ مصطفى أمين قائلاً :

– والله شــوف .. السجن لوحده مؤلم .. ولكن أســوأ مافيه رغم مـايسببه من آلام نفسية نـاجمة عن حبس الحرية .. هـو أنظمة السجـون فى بلادنا .. فأول شــىء يقابل الإنسان داخل السجن أن يجرد من كرامته .. لأنه لايسمح لك بحمل ساعة أو فلوس أو مـلابس أو أى شىء آخر .. ألم أقل لك إنهم داخل الجدران يجردون الإنســان حتى من كرامتــه .. إنهم يعطونك رقماً بدلاً من الاســم .. ويظل المسجون يتحرك داخل جـدرانه المرتفعة والمرعبة تحت وطأة هـذا الرقم .. فالإنسان المصرى بشكل عـام يتحول داخل السجن إلى إنسـان بلا كرامة ..

لذا لابد أن تكون للمفكرين سجـون خاصة بهم .. فليس من المعقول أن أضعهم مع غيرهم من مـرتكبى الجرائم الأخـلاقيـة أو جـرائم القتل وتجار الحشيش وأصحـاب السوابق وقطـاع الطرق .. والشـىء الـذى لفت نظرى خـلال الفترة التى قضيتها خلف هذه الجدران أن مفهـوم السجين السياسى لم يكن موجوداً لا فى اللـوائح ولا فى عقول المشرفين عليـه .. وكثيراً ما كـانوا يعـاقبون أهل الفكـر بوضعهم فى العنـابر الموبـوءة بالأمراض خاصة مرض الجرب .

وبشكل عام .. إن حالة السجون فى مصر كانت سيئة للغاية .. لذا حين خرجت كثيراً ما كتبت مطالباً إعطاء مـراتب للمساجين .. وأبلغونى أنها عممت .. ولكننى غير مصدق .. لأننى طالبت من عـدة وزراء داخلية بعد خـروجى من السجن بزيـارة سجون مصر فرفضوا طلبى ..

وهذا بالطبع يجرنا إلى ســؤالك عن أننا يمكن أن نعتبر السجون فى مصر الآن وسيلة

ناجحة من وسائل التأديب .. أم أنها تساعد على توالد الجريمة وزيادتها .. وأقول لك .. إن السجون بوضعها الحالى .. تزيد من أعداد المجرمين .. فهى عكس مايقولون .. ليست تهذيباً ولا تأديباً .. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب .. أولها أن السجانين أنفسهم أغلبهم غلاظ القلوب .. رغم أن منهم آدميين ويتصفون بالرحمة ، ولكن للأسف عددهم قليل ..

ولقد تقابلت مع النوعين .. الوحوش والآدميين .. واكتشفت أن الفرق بينهم كالفرق بين الإنسان والحيوان .. ويحضرنى هنا قصة سمعتها كثيراً تتردد داخل السجن .. فقد كان هناك ضابط من هؤلاء الوحوش .. همه الأول فى الصباح والمساء تعذيب وضرب المساجين .. وكان عنده عسكرى «مراسلة» حكى لنا أن هذا الضابط كانت تضربه زوجته كل يوم فى الصباح .. فيبدو أنه كان يعكس علينا معاملة زوجته السيئة له ..

*** ماهو تصور الكاتب الصحفى والمفكر الكبير مصطفى أمين عما يجب أن يكون عليه السجن فى مصر .. وخاصة بالنسبة للمفكرين ؟ ..**

ــ أولاً لازم تعرف أنه فى كل البلاد الحرة ، لايوجد مانسميه نحن بالمسجون السياسى .. ولاتجد صحفياً أو كاتباً أو صاحب رأى فى السجن .. لكننا نشاهد مثل ذلك وأكثر فى البلاد غير الديمقراطية .. وما دمنا دولة غير مكتملة الديمقراطية ولانستطيع أن نكون دولة ديمقراطية بنسبة ١٠٠٪ فى الوقت الحاضر ، فلابد وأن نكون ديمقراطيين حتى ٨٠٪ مثلاً .. ونقيم سجوناً خاصة بالمفكرين والسياسيين حتى لانضع السياسى مع المجرم ودعنى أذكر لك .. أن هذه السمات غير الديمقراطية التى أثرت على أوضاع السجون كانت أيضاً قبل الثورة وأذكر لك مثالاً على ذلك .. زمان .. محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية حكم عليه بالسجن المؤبد وألحقوه بالعمل داخل السجن .. مكوجى .. والأستاذ توفيق دياب عمل ترزياً داخل السجن ..

إننى آمنت دائماً بان لامستقبل لمصر إلا بالديمقراطية .. وكلما أصيبت الديمقراطية بأزمة أو نكسة تضاعف هذا الإيمان .. إن الآمال العظيمة لاتتحقق إلا بتضحيات عظيمة ..

مصر عرفت الديمقراطية عدة مرات ، وفقدت الديمقراطية عدة مرات أيضاً .. ولم ييأس هذا الشعب .. لقد طالب عمر مكرم بالديمقراطية .. وطلب أحمد عرابى

بالـديمقراطية .. وقـام الشعب بزعـامة سعد زغلـول يدعـو لحكم الشعب وبأن الأمة مصدر السلطـات .. إننى متفائل جـداً بمستقبل بلادنـا على عكس مايـرى الآخرون .. ولعلك تـلاحظ أن من سمات عدم وجـود الديمقـراطية فى مصر الآن بشكلها المتكـامل والمتعارف عليه حضاريـاً .. أن المفكر أو الصحفى أو السياسى لايعتقل ولا يسجن إلا بقرار من رئيس الدولة .. والمفروض ألا يقبض على المفكر وصاحب الرأى إلا بقرار من المحكمة .. ويحاكم أمام محاكم مدنية وليست عسكـرية .. إن ثبت تورطه فى أى جريمة من الجرائم التى ينص عليهـا القانون المدنى ، كما تـلاحظ كذلك أن الإفـراج عن المفكر المعتقل لا يتم إلا بقرار سياسى كما تم من قبل اعتقاله بقرار سياسى .:

وهنـاك ظاهـرة طيبة تـدل على أننا نسير فى الطـريق الصحيح نحو الـديمقراطيـة وحقوق الإنسان واحترام آدميته .. هو أن عـدد المسجونين السياسيين والمفكرين خلف القضبان قد قل كثيراً فى أيام الرئيس السادات لأنـه أفرج عن عدد كبير منهم فور توليه الحكم .. وأيضاً فى هذه الأيام قلت ظاهـرة اعتقال المفكر بشكل ملحوظ .. حتى وصلت إلى أدنى معدلاتها .. وقد بدأ الرئيس مبـارك فترة حكمه بالإفراج أيضاً عن المسجونين السياسيين وأهل الفكر. .

ولابد أن يكون واضحا لك ولغيرك.. أن الدولة حين تتفرغ للحكم على المفكر وتقبض عليه وتسجنـه.. معناه أن الدولـة قد تحولت إلى سجـان.. وكل البلد تحولت إلى سجن كبير ليس للمفكر فقط.. بل لجميع الناس، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود خلل ما فى المجتمع لأن الفكر لا يحاكم وكذلك أصحاب الرأى.

*** فى كلمات تلغـرافيـة.. ماذا يقـول الأستـاذ مصطفى أمين للمفكـر المصرى.. وكذلك للمسئولين عن السجون؟**

- أقول أولا للمفكـر إنه يجب أن يعرف أنه مـا دامت هناك ديمقراطية نـاقصة فهو معرض فى أي لحظة وفى أى يـوم أن يدخل السجن.. لذلك عليه مـن الآن.. توظيف عقله وفكره وقلمه من أجل العمل على تحسين معاملة المسجونين..

وللمسئولين عن السجن أقـول: أذكركم بأن بعض الذين وضعـوا لوائح السجن فى

مصر دخلوا السجن وطبقت عليهم.. فليتعظوا.

***

الآن توقف دوران شريط التسجيل .. كى أعيده على الوجه الآخر .. الوجه الذي حكى لى فيه المفكر الصحفى الأستاذ مصطفى أمين حكاية عصابة تهريب الورق والقلم التى كونها .. ونجح من خلال أعمالها المتقنة أن يوصل صوته إلى خارج السجن ، وبالتالى نجح فى تهريب أكثر من تسعة الاف رسالة .. وأكثر من كتاب ..

وبعد لحظات صمت جاء صوت مصطفى أمين يحدثنى ، وكأنما يشدو بأغنية يعشقها .. ولم أكن أتخيل فى لحظة من اللحظات أن يعترف لى هذا العملاق أنه كان فى يوم من الأيام زعيم عصابة ..

ـ حينما منعونى من الكتابة فكرت فى أن أهرب الخطابات .. فقمت بتأليف عصابة من بعض المسجونين غير السياسيين .. واخترتهم بدقة من المظلومين ، لأننى أعتقد أن المظلوم هو أكثر شجاعة من غيره .. هؤلاء اخترتهم من أجل تهريب ما أكتبه خارج السجن .. وحين تسألنى كيف .. فلذلك قصة طويلة .. لقد كونت هذه العصابة فى سجن طرة وهو آخر سجن أقمت به .. وكنت فيه أقيم فى زنزانة بالدور الرابع .. وقبل حكاية التفاصيل أقول لك إننى تنقلت فى أكثر من خمسة سجون .. سجن الاستئناف .. والسجن الحربى وسجن المخابرات وسجن القناطر وأخيراً سجن طره .. وفى كل سجن كنت أقضى بعض الوقت .. فى السجن الحربى مثلاً أقمت أربعة أشهر .. وفى سجن الاستئناف ستة أشهر .. وكذلك سجن القناطر قضيت به عدة أشهر .. أما فى سجن طره فقد قضيت بقية المدة ..

وفيه تكونت هذه العصابة التى تعتبر عصابة من نوع خاص .. نوع شريف لتهريب الأفكار .. كما ذكرت لك كنت نزيل الزنزانة الأولى بالدور الرابع .. وكان فى نفس الدور نزيل آخر بالزنزانة رقم (١٤) رأيت فيه السجين المظلوم الذى زج به فى السجن معنا بعد اتهامه فى قضية ثأر ظلماً .. والشىء العجيب أنه كان رجلاً أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة .. وقد اخترته نائباً لزعيم عصابة تهريب الخطابات لهذا السبب ، بحيث لايكون موضع شك من جانب المسئولين عن السجن فيما يقوم به من مهام أكلفه بها .. وكل دوره أنه كان يهرب لى الورق والقلم عن طريق استلام هذه المهمات وتسليمها إلى بقية

المساجين أعضاء العصابة الآخرين الذين وزعتهم على بقية أدوار السجن .. ومنهم من كانت زنزانته قريبة من الزنزانة التى أنزل بها..

كنا خمسة مساجين .. أنا والرجل الأمى وثلاثة آخرون فى بقية الأدوار .. يحتل كل واحد منهم الزنزانة الأولى فى الدور الذى يقيم به ..

هؤلاء كانت مهمتهم إطلاق كلمة السر المتفق عليها بيننا وبصوت نسمعه جميعاً حين تبدأ حملات التفتيش .. وعلى الفور تختفى الأوراق والأقلام وتزحف من يد إلى يد حتى تصل إلى الزنزانة رقم (١٤) التى يقيم فيها نائب زعيم العصابة والذى كما قلت لم يكن يقرأ أو يكتب ، وبالتالى كانت زنزانته بعيدة عن ذهن رجال السجن الذين لم يقوموا ولو مرة واحدة بتفتيشها .. وهكذا كنت أكتب وأهرب الورق إلى نائب زعيم العصابة .. الذى يحتفظ بها حتى تحين فرصة تهريبها إلى الخارج .. وكان ذلك يحدث رغم أنهم كانوا يفتشون زنزانتى مرتين فى اليوم وبلا مواعيد مسبقة ..

***وماهى كلمة السر التى كان متفق عليها ؟ ..**

ـ كانت اسم ضابط سجن سابق اسمه أحمد عبد الرحمن ..

*** ولماذا هذا الضابط بالذات ..**

ـ لأنه كان مشهوراً بوحشيته وجبروته .. وكان اسمه يخيف أى مسجون ..

* * *

وخلال هذا الحوار الذى قارب على الانتهاء كنت أتعمد أن أثير قضايا كثيرة ومتنوعة .. وكنت أفترض أن الأستاذ مصطفى أمين سوف يعترض عليها .. ولكنه كان يجيب فى سماحة والابتسامة لاتفارق شفتيه .. مثلاً سألته لو أصبح فى يوم وليلة مأموراً لأحد السجون .. ماذا سيفعل مع هؤلاء الضيوف المساجين من المفكرين والمجرمين .. كما افترض فيه أن يكون فى يوم من الأيام رئيساً للوزراء أو وزيراً للداخلية ، وسألته عما سيكون موقفه من المفكرين وقضايا الفكر بشكل عام..

بادرنى بقوله : أولاً لو كنت مأموراً للسجن .. أطلق جميع المسجونين .. حتى المجرمين منهم .. لأننى أعتقد أن المسجون ماهو إلا مريض فى حاجة إلى علاج .. وأعتقد أن علاجه لايكون بحبسه أو سجنه .. أما بخصوص حكاية رئيس الوزراء أو وزير

الداخليـة .. فأولاً أننى لا أصلح للوزارة ، أو أن أكـون وزيراً .. أنـا فقط أصلح صحفياً وكاتباً .. ومع ذلك سيكون موقفى من الفكر والمفكرين ألا يسجن هؤلاء الذين يحملون هذه الـرسالة العظيمة رسـالة الفكر والـرأى .. وحتى لو كانت أفكاراً معـارضة .. لأن التغلب على الفكر المعارض لايتم بالسجن .. بل بعرض أفكـار أخرى مؤيدة .. وأنا أذكر لك بالمنـاسبة واقعـة حدثت عـام ١٩٢٤ حين كان سعـد زغلول رئيسـاً لوزراء مصر ووزيراً للـداخلية ، وجـاءه مدير المطبـوعات ومعه كتـاب لمؤلف كبير عنوانـه «لماذا أنا ملحد؟».. وطلب مدير المطبوعات من سعد بـاشا زغلول الإذن له بمصادرة هذا الكتاب فرفض .. وطلب من مـدير المطبوعـات تكليف عشرة مؤلفين من الأزهـر لتأليف كتاب بعنوان « لماذا أنا مؤمن؟» وبناء على ذلك رفـض مصادرة الكتاب المذكور .. وبالفعل تم تكليف هؤلاء المؤلفين وصدر الكتاب الجديد الذى محى آثار الكتاب الأول ..

وهكذا لابد من معـالجة الأفكار بالأفكار .. وليست بالسجـون .. لذلك لا أوافق أبداً على اعتقال أى مفكر حين أكون على الفرض فى المنصب الذى طلبت منى أن أتخيل نفسى فيه ..

***على الفـرض ونحـن نتحـدث الآن وعبر التليفـون طلب أحـد الذين عـذبـوا الأستاذ مصطفى أمين مساعدته فى أمر إنسانى ..ماذا تقول له ؟**

ـــ إذا كان داخل السجن أسـاعده .. ولكن خـارج السجن أرفض .. وقد عشت هـذا الموقف .. حين جاءنى إلى مكتبى أحد الضباط الزبانيـة الذين عذبونى بقسوة وكان قد فصل من الخدمة .. والشىء المضحك أنه جاءنى لأساعده فى العودة للخدمة من جديد .. طبعاً رفضت بشدة ..

*** وأخيراً .. هل تريدون إضافة كلمات أخرى ؟ ..**

قاطعنى ضـاحكاً وعـدل سؤالى بقـوله : لازم تقـول : هل لديك أقـوال أخرى .. ثم أجاب: أحب أقولك بكل صدق .. إن فترة السجن السابقة لم تكن لى أياماً سوداء .. عكس مـايتصور الكثيرون منـا .. لقـد كانت دروسـاً طيبـة خرجت بها عبر ثمانى سنـوات ونصف .. كما أحب أن أؤكـد .. أن الفكـر المصرى الحديث لايمكن أن ينتعش إلا فى ظل احترام حقوق الإنسـان عندئذ يصبح الفكر والمفكـر المصرى حراً طليقـاً يعانق السماء السابعة .. ولايتحقق ذلك بأمانة إلا فى ظل ديمقراطية سليمة ١٠٠٪.

الحكاية الثانية يرويها محمود السعدني:

الولد الشقي.. يكتشف
حياة أخرى داخل السجن!!

رغم أنني قضيت معه أكثر من ساعتين.. في شرفة منزله المطل على نيل الجيزة. ونسمات الصيف تداعب الأوراق.. وتصنع بهمسات اللمس فوق الزجاج.. سيمفونية بدائية.. تعزفها هوائيات غجرية تطير هنا وهناك.. ورغم أنني قد تمكنت خلالها من تسجيل لقاء حيوي وحوار عاشت كلماته داخل أسوار السجن العلية.. إلا أنني أخذت أبحث جديا عن كلما أخرى خارج هذا الحوار تكون مدخلاً لرحلتي هذه داخل عقل المفكر والكاتب الصحفي «محمود السعدني».. واكتشفت أن الولد الشقي قد سجل تجربته الطويلة في عالم السجون في كتاب واحد.. صدر له بعنوان «الولد الشقي في السجن»..

وعرفت حينما تقابلنا أنه ينوي أن يضيف تجاربه الأخرى خارج السجن وداخله في كتاب جديد.. لم يصدر حتى كتابة هذه السطور..

إن كلمات الاستاذ «محمود السعدني».. عن تجربة السجن في حياته كمفكر وكإنسان تكاد تكون طبق الأصل لحياته التي قضاها فوق الكرة الأرضية.. طولا وعرضا.. تعلو به الظروف.. ثم سرعان ما تعود به إلى ما كان عليه من قبل..

ولا أنوي هذه المرة أن أفصح عن تفاصيل أسئلة هذا الحوار.. فقد آثرت أن يجهد القارىء عقله في استنباط الأسئلة من خلال تتبع واع لحديث الولد الشقي.. وحتما لن يبعد حديثنا كثيرا عن موضوع هذا الكتاب.. الفكر والقضبان.. وكلمات أخرى يحتفظ بها الآن شريط التسجيل.. في انتظار اللحظة التي أعطي له فيها إشارة البدء.. ولكنني وكما قلت منذ لحظات في البداية الآن نفسح لها الطريق في كلمات سطرها الأستاذ

محمـود السعدنى.. ولن نفصح عـن عنوانها.. أوعنـوان الكتاب الـذى قـرأنا فيـه تلك الكلمات..

* * *

وكأنما كـان يقرأ أفكارى قبـل أن أذهب إليه حسب الميعـاد المتفق عليه بيننـا.. فقد قابلتنى كلماتـه التى علقها فوق جدران منـزله.. ومن الغوص داخل معانيهـا.. عرفت الطريق الصحيح نحو الحوار الذى دام ساعتين فى أحد أيام الصيف..

تقول هذه الكلمات:

- «لقد سجنت عـدة مرات.. ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن الحقيقى إلا فى المرة الأخيرة.. فقد قدر لى أن أتعرف على عالم كنت سأذهب إلى قبرى حزينا لو مت دون أن أراه.. واكتشفت كذلك أن السجن جزء من الحياة، وما يجرى خارج الأسوار يجرى مثله وبالضبط فى السجن. واذا كان خارج السجن أثـرياء يموتون من التخمة، وفقراء يموتون من الضيم.. وإذا كان فى الخارج أصحاب نفوذ وأبناء أكرمين وأبناء كلب.. وإذا كان هناك تسيب وسرقة ونهب ونصب، وإذا كان هناك فساد وأشياء لا ترضـى الله ولا العباد.. ففى السجن أيضا تـدور هذه الأشياء بالتمام والكمال وتركيـز أشد، مع فارق بسيط، هو أن نزلاء السجن أصدق وأشرف..

وفى تواصل مستمر لما كتبـه «الولد الشقى».. وما تناوله هـذا الحوار.. وجدنا نقطة التقاء غريبـة.. لعبت المصادفة دورها العظيم فى ترتيبه.. فقـد اكتشفت وأنا أعيد سماع الشريط من أجل تفريغه.. أن بداية الحوار كانت هكذا:

*** نريد من الكاتب الساخر والمفكر الصحفى الكبير الاستاذ محمود السعدنى أن يحدثنا عن تأثير تجربة السجن والاعتقـال فى حياتـه كمفكـر وصاحب رأى أولا.. وكإنسان ثانيا؟..**

- شوف السجن فى حياة الإنسان حـادث مؤسف.. يعنى أسوأ من المرض. إنه أسوأ شىء فى حيـاة الانسان.. وليس من سلـوكيـات البشر..وإلا فكيف تحبس شخصا مـا وتتركه وحيدا وتنصرف عنه.. إن الحبس معناه أن تعزل هذا الشخص عن العالم.. إنها عقوبة يمكن أن تكون أشد خطرا على حيـاة البشرية من الجريمة التى ارتكبها الإنسان

فى حق نفسه وحق مجتمعه.. وفى تصورى أن الإعدام خير من السجن.. وأهون منه.. إلا إذا كان السجن فترة قصيرة.. شهرا أو شهرين.. فى هذه الحالة يكون عقوبة مفيدة ،إن السجن بعيد عن هذا المفهوم يحول الإنسان إلى حيوان.. لأنه بين يوم وليلة يجد نفسه بين أسوار عالية فى عزلة تامة عن العالم.. وبين حراس وضباط..

إنه عالم آخر.. وحياة أخرى غير الحياة التى يعتاد عليها الإنسان.. أو الانسان الذى ليس حيوانا.. ورغم أن السجن شىء صعب جدا.. إلا أنه من وجهة نظرى لابد للإنسان أن يجربه بشرط أن يكون فترة قصيرة.. وتجدنى شديد الأسى والأسف لهؤلاء المفكرين والصحفيين الذين قضوا فترة طويلة داخل السجن.. وعلى سبيل المثال المرحوم الكاتب الصحفى صلاح حافظ الذى عاش ٩سنوات متصلة فى السجن، وقد دخلت عليه مرتين.. ولم يفقد فيهما روحه ومرحه..

وتستطيع أن تقول أيضا إن السجن هو اختراع إنسانى سخيف.. وهو إجراء قديم قدم الانسانية.. استخدم كثيرا لعقاب المفكرين والمعارضين وأصحاب الرأى والمجرمين.. ومع ذلك فإن الجريمة كما هى لم تتغير ولم يستطع الانسان رغم تقدمه أن يقضى على الجريمة أو المجرمين.. من أجل ذلك بدأت بعض الدول الأوربية التفكير فى تغيير أسلوب مقاومة الجريمة بغير السجون.

*** يجرنا هذا الحديث إلى أن نسأل الأستاذ محمود السعدنى عن عدد المرات التى دخل فيها السجن؟..**

ـ أنا دخلت السجن ٤ مرات.. أول مرة سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ عندما أقيلت حكومة الوفد وكنت وقتهاتلميذا فى المرحلة الثانوية بمدرسة مازالت موجودة إلى الآن فى ميدان لاظوغلى وتسمى «المعهد العلمى».. وأنا أذكر تفاصيل هذا الاعتقال وسببه.. حيث كان بمناسبة ترشيح ناظر المدرسة واسمه مصطفى.. الذى بدأ فى استخدام طلبة المدرسة فى الدعاية الانتخابية وكان مرشحا مستقلا بجانب تمسكه بمبادىء حزب الهيئة السعدية.. وكان دورى فى تلك الفترة.. أن أخرج التلاميذ وأنظمهم فى مظاهرات.. وبالفعل اشتركت فى لجنة الدعاية لمبادىء ناظر المدرسة التى شكلت برئاسة ضابط المدرسة والذى مازال يعيش حتى الآن واسمه إبراهيم الحريرى.. وهو رجل من أهالى عابدين الأشداء والمعروفين بالرجولة.. وكان من بين أعضاء هذه اللجنة شاب اسمه

عبد السـلام صار فيما بعد حـانوتى القلعة.. وآخـر اسمه النواوى صـار فيما بعد من كبار الجزارين بالمذبح.. وهؤلاء الذين ذكرت لك أسماءهم ظلت علاقتى بهم.. وانقطعت تقريبا منذ عام ١٩٦٩..

فى هذه الفترة قمنا بمظاهرات طلابية ضخمـة ضايقت الحكومة الى درجة الاشتباك بالأيـدى مع مؤيدى مـرشح الخصم.. فدبروا لنا مكيـدة وعن طريقها قبضـوا علينا.. ونقلـونـا إلى قسم السيدة زينب داخل الحجـز.. ولأول مـرة أدخل إلى قسم بـوليس.. ولأول مرة أعـرف ما اصطلح على تسميته بالحجـز.. وبداخله تعرفنـا على المجرمين.. وكنت وقتها فى الثامنة عشة من عمرى.

المهم مكثنا فيـه طول الليل.. وطول النهار.. وبعـد يومين أعلنوا نتيجة الانتخـابات ونجح ناظـر المدرسة مصطفى عبـد الهادى الذى صـار فيما بعد صهـر الملك فاروق.. حيث تزوجت ابنـة اخته «ناريمان» الملك فـاروق.. والذى توسط لـدى مأمور السجن للافـراج عنا.. وخرجنا من حجـز السيدة زينب.. وبعد الخروج لم أكن أتصـور وجود مثل هـذا المكان على وجه الأرض.. بهذه القـذارة وبهذا السوء لقـد قضيت بداخـل هذا الحجز أربعة أيام.. خفت بعدها من السجن جدا..

أما فى المرة الثـانية.. فقد قبضـوا على بعد أن أنهيت تعليمى.. وكنت وقتها مـراسلا صحفيا فى السويس لجريـدة النداء لتغطية معارك القناة عام ١٩٥١.. معارك الفدائيين. وقتها دخلت فى معارك عديدة قبل اتمام إلقاء القبض على فى هذه الفترة.. وكنت وقتها فى سن الخامسة والعشرين وكان معى فى هذه الفترة مجموعة كبيرة من الصحفيين لتغطية معارك القناة وفى السويس قضيـت أربعة أشهر وعندما نويت أن أغادرهـا.. عرفت أنه مطلوب القبض على.. وقد أبلغنى بذلك أحد الضباط الوطنيين وأذكر اسمه الأول محمد ولا يزال يعيش حتى الآن.. وله ورشة بلاط فى بور سعيد..

هذا الضابط الوطنى كـان يعلم تمام العلم أننى على خلاف مع بعض الضباط الكبار الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز والذين اتهمتهم علانية بعدائهم للمصريين وتعاونهم مع الإنجليز المحتلين لمصر آنذاك.. ووفقا لاقتراح الـزميل الصحفى حمدى عبد العزيز.. تقدمت لمحافظة السويس بطلب أثبت فيه أننى أحمل سلاحا بدون ترخيص من أجل أن يقبضوا على ويتم ترحيلى فى حـراسة إلى القاهرة بعيـدا عن شبح الاغتيال والقتل الذى

كـان ينتظرنى من هـؤلاء الضباط الـذين حكيت لك عنهم منذ لحظـات.. ولكن ذلك لم يحدث.. كما تصور حمدى وأصر محافظ السويس أن أبقى بالمدينة من جديد فى أمان.. إلا أن بعض الضباط المصريين الوطنيين وأذكر منهم ضابطا اسمه الصاغ زكى جبران اقترحوا أن أخرج من السويس حفاظا على حياتى عن طريق مركب.. ووقتها طلبوا منى مبلغ ستـة جنيهات من أجل إتمام عمليـة الهروب هذه.. وبـالفعل تم ذلك ووصلت عن طريقها إلى الاسكندرية.. ومنها إلى القـاهرة التى وصلتها بعد الحريق.. وفور وصولى إليهـا تم إلقـاء القبض على العبد للـه بسبب (حـريق القـاهـرة).. فدخلت حجـز أحـد الأقسام.. ومكثت فيـه أربعة أيام.. وكـان حجزا أسوأ من حجـز قسم السيدة زينب.. وعندما أثبت لهم أننى لم أكن موجودا بالقاهرة لحظة وقوع الحريق أفرجوا عنى..

أمـا المرة الثـالثـة فكانت عـام ١٩٥٩ .. حيـث قبضوا على فجـر أحـد الأيام بمنـزلى بالجيزة.. وأنا أذكر اسم الضابط الذى جاءنى فى تلك الساعة وأعتقد أن اسمه طوسون وكنا وقتها فى شهر رمضان.. وقد أبلغنى الضابط أننى مطلوب هناك لمدة خمس دقائق فقط.. ومن مباحث الجيزة حولونى إلى معتقل القلعـة ومكثت فيه شهراً وشهراً آخر فى الفيوم ومنهـا إلى الواحات وكان معى عبـد الستار الطويلة فى سلسلـة واحدة.. ومكثت هناك سنة وشهرا بالضبط وقد قاسيت خلالها ألوانا من التعذيب..

وقاطعته قائلا:

***وما هى التهمة يا أستاذ محمود؟..**

ـ دا كان اعتقال.. ولا يقـولون لك السبب.. ولم يكن يتم بمحاكمة، المهم رأيت بعينى كيف يكون التعذيب على أصوله.. والشىء الغريب أننى فى البداية كنت آخذ هذه المسألة «هزار فى هزار».. لأننى كنـت غير متصور حتى هذه اللحظة أنه سيفـرج عنى بسرعة.. وثانيـا لأننى شاهدت ألـوان التعذيب بل وتعرضت لها كثيرا. وأكثـر من ذلك هناك فى الواحات عهدوا إلينـا بأشغال شاقة ومرهقة.. وتصور لقـد كسرنا زلط الجبال هناك.. وحملنا الطوب والرمل فوق أكتـافنا.. من أجل ذلك كنت أعتبرها فترة هزلية.. رغم أنها كانت أسوأ فترة اعتقال وسجن وتعذيب مرت على..

*** وتفتكر دا كان المقصود؟..**

ـ وقتها كانـت هناك معركة شرسة بين جمال عبد الناصر وعبـد الكريم قاسم.. وفى

فترة الطفولة السياسية آنذاك انضم جزء من المفكرين المصريين إلى عبد الكريم قاسم حاكم العراق ضد جمال عبد الناصر.. المهم أن جمال عبد الناصر قد اعتقل هؤلاء ممن يعتنقون الشيوعية وكذلك المشتبه فيهم.. وكنت أنا من الصنف الثانى.. ولحظتها كان النظام الناصرى فى عنفوانه.. وأنا أذكر وأنا داخل معتقل الواحات أن الدنيا قد تحولت فى لحظة بالنسبة لى إلى مسرحية هزلية سخيفة.. والدليل أنهم كلما كانوا يضربوننى كنت أضحك.. أقهقه.. لقد انتابتنى حالة من الهيستريا..

ومن الواحات رجعت إلى سجن الفيوم حيث أقمت فيه أربعة أشهر ومن الفيوم أفرجوا عنى.. يعنى تقدر تقول مدة السجن هذه كانت سنة وستة أشهر أو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا.. وقتها خرج معى لطفى الخولى الصحفى المعروف والدكتور لويس عوض.. بل أقول لقد خرجت بصداع شديد وإحساس بطعم آخر للحياة.. والسبب ربما كان يرجع إلى مقارنتى الدائمة بين الحجز فى الأقسام وما كنت أراه فيه من قذارة ومجرمين.. وبين السجن والمعتقل وما قاسيت فيه من تعذيب وإهانه ولعلك تتعجب حين أقول لك إن السجن رغم ما كان فيه.. هو بالقياس أنظف من ذلك الحجز الذى حدثتك عنه منذ قليل.

المهم خرجت من هذه التجربة صاحب مرض مصحوب بحالة هيستيريا أنقذنى منها الدكتور أنور المفتى الله يرحمه.. وقتها امتنعت عن الكتابة.. وخاصمت العمل الصحفى.. ورفضت ما عرضه على الاستاذ احسان عبد القدوس آنذاك.. لأننى بالفعل فضلت أن أجلس فى بيتى هذه الفترة.. وبأمانة كنت أذهب إلى روزاليوسف أقبض مرتبى فقط.. حتى أقنعنى الكاتب الروائى فتحى غانم أن أكتب بابا بعنوان «هذا الرجل».. كانت تكتبه من قبل الزميلة فوزية مهران فى مجلة صباح الخير.. هذا العمود بأمانة هو الذى أرجعنى إلى الحياة من جديد.. ورويدا رويدا نسيت السجن وأهواله وعدت إلى الصحافة ومتاعبها وبدأت فى إخراج كتبى ونشرها.. وسافرت إلى الخارج.. واستمرت حياتى هكذا حتى عام ١٩٧١.. بعد وفاة جمال عبد الناصر.. وانتخاب الرئيس السادات..

تلك الفترة التى بدأت بالتحقيق معى فى الاتحاد الاشتراكى آنذاك والتى قيل وقتها

تلفيقا إننى اعتقلت بسبب اشتراكى فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.

※ اذن ما هى حقيقة الاعتقال الأخير.. وأسبابه؟.. باعتبار أنه المرة الأخيرة التى دخل فيها الولد الشقى السجن..؟!

ـ كل ما فى الأمر أنهم ضبطوا فى الجيزة أوراق انتخاب أنور السادات أكثر من عدد المسجلين فى الدفاتر وحين سألوا المسئول آنذاك وهو على ما أذكر اسمه محمود عفيفى.. كيف تضع بطاقات انتخاب لأنور السادات بأسماء مزورة وغير موجودة بالكشوفات قال لهم.. محمود السعدنى هو اللى قال لى.. فاستدعونى للاستفسار عن هذه الواقعة فأجبتهم بأننى الذى قلت له ذلك.. وأنا أذكر أيامها أنه كانت هناك مشكلة بين السادات وفريد عبد الكريم وأنا خفت يحدث أى تقصير فى الجيزة فيقع اللوم على فريد عبد الكريم.. وعندما لاحظت أن أحدا لم يأت للانتخابات.. اقترحت إضافة أسماء وهمية وغير موجودة بالكشوفات..

وأمام أحد المحققين اعترفت أننى المسئول عن هذه الواقعة.. لأننى كنت أود أن ينال السادات أغلبية مطلقة بمحافظة الجيزة حتى أضمن عدم إحداث صدام بينه وبين فريد عبد الكريم.. هذه الواقعة كانت فى اكتوبر.. وبعد ٦ أشهر تم القاء القبض علىّ بتهمة الاشتراك فى مؤامرة قلب نظام الحكم.. ولعلمك حينما ضبطوا شرائط المكالمات بينى وبين فريد عبد الكريم آنذاك وجدوا بها شتائم لا أكثر ولا أقل.. ولأنها كانت شتائم خارجة لم يذكروها فى المحكمة.. المهم فى النهاية دخلت السجن لمدة سنتين.. قضيتهم كالآتى: ٣ شهور فى مستشفى كلية الشرطة.. ثم ٥ أشهر فى السجن الحربى.. أما الباقى فقد قضيته فى سجن القناطر الخيرية بالقاهرة.. وقابلت فيه حثالة المجتمع المصرى من مجرمين ونشالين وقتلة ومكدس بأعداد كبيرة من كل الأصناف إن جاز هذا التعبير..

نعود إلى الحديث مع الولد الشقى عن أحوال السجن من خلال تجاربه الشخصية فى هذا المجال؟..

ـ شوف.. اسمع.. أنا سوف أحدثك عن السجن فى آخر فترة قضيتها فيه.. وهى فترة سجن القناطر.. ومن قبل حدثتك عن مثل ذلك فى بقية السجون الأخرى حتى الحجز فى أقسام البوليس.. وحين نعود للحديث عن أحوال السجن الخاصة بالقناطر.. أقول لك..

إننى كمسجون سياسى كنت فى زنـزانة مستقلة عن باقى المجـرمين الآخرين.. وكانت هذه ميزة كبيرة رغم أنها كـانت فى أغلب الأحيان سجنا انفراديا.. وهنـاك فئات اخرى غير المساجين السياسيين كـانت لهم أوضاع خاصة داخل سجن القنـاطر.. وهم طبقة الأثريـاء من المجرمين وتجار الحشيش وخلافـه.. باختصـار لقد كان سجن القنـاطر وعالمه الخاص أغرب مكان رأيته على ظـهر الأرض لما فيه من تناقضات لا يصدقها غير الذى عاشها..

وأحب أن أؤكـد لك أن أسوأ شىء واجهتـه فى السجن.. هو الانتظار.. ليـس انتظار الإفراج.. ولكن الانتظار لأنك لا تعرف ما الـذى سيأتى به الغد.. ومع ذلك فإننى أؤكد لك أن هذه الفترة التى قضيتها فى السجن أيام الرئيس السادات قد أفادتنى كثيرا..

*** ولكن كيف يا أستاذ محمود؟..**

ــ أقول لـك.. حتى أيام السجن فى عهـد عبـد النـاصر أيضا أفـادتنى لأنـه لم يكن مسموحا لنا بالقراءة ولا بالكتابـة، فيما عدا قراءة الكتب الدينية لذا أقبلت على قراءتها كلها.. حتى الكتب الـدينية المسيحية واليهـودية.. وقـد استفدت جدا لأننى بمسـاعدة بعض النزلاء تمكنت من الحصول على بعض كتب التراث مثل كتـاب الأغانى وخلافه.. وعلى فكـرة يوجـد بالسجن مكتبـة ضخمـة أسسها من قبل الشيـوعيون والإخـوان المسلمون الذين سجنوا هناك.. وتحضرنى قصة لطيفة متعلقة بقراءاتى داخل السجن.. ففى أحد الأيام ذهبت إلى المكتبة أبحث فى دفاترها.. فاكتشفت وجود أجزاء كتاب «قصة الحضارة» وبعد بحث طويل.. اكتشف المسئول عن هـذه المكتبة أن الكتاب غير موجود وأن أحد المساجين قد استعاره من قبل.. على كثرة عدد أجزائه..

ومـرت الأيام.. وكلما أذهب للمسئـول عن المكتبـة أسألـه عن أجـزاء كتاب قصـة الحضارة اكتشـف أنها مازالت مستعارة.. ولما شككـت فى الأمر طلبت مقـابلة السجين الذى استعارها.. فقالوا لى إنه مقيم فى عنبر (ب) بالدور الثالث بالزنزانة (١٧).. واسمه أحمد قطقط.. مسجون مخدرات.. ومحكوم عليه بخمس عشرة سنة سجن.. ولما سألته عن الكتاب.. أبلغنى أنه يستخدمه مخدة «ينام فوقهـا»... لقد كان هذا الرجل ينام فوق قصة الحضارة.. لقد كانت فترة السجن الأخيرة فترة ثقافة إجبارية..

*** طـوال هـذه الفترات التى اعتقلت خـلالها.. هل تم اعتقـالك وفقا لأصـول قضائيـة.. أو بمعنى آخر.. هل حكمت عليك إحدى المحاكم المدنيـة بالسجن؟.. أم كيف كان يتم ذلك؟..**

ـ لا.. أنا لم أحـاكم أمام محاكم مدنية إلا خلال عملى الصـحفى أو مـا يتعلق به.. أما بقية الاعتقالات فكانت تتم وفقا لمحاكم عسكرية.. وأيام الرئيس السادات حوكمت أمام محكمة تسمى «محكمة الثورة» كان يرأسهـا القاضـى حافظ بدوى الله يرحمه.. وكنت أعرفه قبل دخولى السجن.. وكان فيها أيضـا حسن التهامى.. وفى هذه المحاكمة حكموا علىّ بـالسـجن سنتين.. ونفذ على الفـور بتهمة الخيـانـة العظمى.. يعنى أنا كنت قـائدا عظيما وربما لم أكن أعرف..

وعلى أية حال أنـا لم أخن مصر طوال حياتى ولن يحدث.. وبعد انتهـاء مدة السجن خرجت فـوجدت قـرارا فى انتظارى بعدم عـودتى إلى عملى.. وبإبعادى عن الصحـافة تماما.. فاشتغلت أياما مـع عثمان أحمد عثمان فى المقاولون العرب.. وبعد فترة رفضت مواصلـة العمل مع المهندس عثمان أحمد عثمان لأننى لم أتحملـه.. وطلبت ضرورة أن يحل الرئيس السادات مشكلتى وإلا سوف أترك مصر.. وبالفعل حينما لم أعد إلى عملى الصحفى.. تركت مصر لمدة ٩ سنـوات.. ثم عدت بعدهـا.. وبدأت الحياة مـرة أخرى.. وأنا أتمنى ألا تعود هذه الأيام من جديد لأننى اكتشفت أن السجن المتكرر تجربة سيئة وخاصـة تجربة السجن فى بلدنـا.. لأنها تجربة تزيـد جرعة الإجـرام ولا تقضى عليه بالقدر المتعارف عليه..

وهذا الحديث يجرنا لسؤالك السـابق على أحوال السجن.. وأقول لك إننى اكتشفت تفرقه مريرة فى المعاملة داخل هذه الجدران العالية كما اكتشفت وجود المسجون الثرى المبسوط.. والمسجون الآخر المعدم والفقير.. وأنـا أذكر لك على سبيل المثال.. إنه فى يوم من الأيام طـرق أحد المساجين على باب زنـزانتى طالبا «حسنة يـا بيه».. والسبب ربما يرجع إلى أنه كـانت توجد عصابات داخـل السجن من المسجونين أنفسهم تستولى على الأطعمة والأغطية ولا تعطى إلا لمن يدفع.. وكنت أحد هـؤلاء الملتزمين بالدفع فقد كنت أصرف أربع علب سجـاير فى الشهـر لمثل هـؤلاء حتى أضمن الغذاء النظيف والخدمـة الجيدة..

*** وهل يعتقد الأستاذ محمود السعدنى أن هذه الظواهر الغريبة مازالت موجودة فى سجون مصر الآن..**

ـ لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك.. لأننى لم أدخل السجن فى هذه الأيام.. وثانيا أنا لم أعد أعرف أحدا يقيم الان فى السجن.. فقد تركت السجن منذ ثمانية عشر عاما.. وأحب أن أؤكد لك أن هذه الصور كانت موجودة حتى خرجت.. لقد كان المسجون المصرى يعيش حقيقة فى محنة.. ولابد من تدارك هؤلاء.. لأنهم موتى على ظهر الأرض يتحركون.. ولا تستفيد منهم البلاد.. وهذا يجعلنى أتساءل لماذا لا نقيم سجونا أخرى جديدة تلحق بها ورش ومصانع ومزارع يعمل بها هؤلاء المساجين حتى يتحولوا إلى بشر منتجين ونقضى على البطالة بينهم داخل هذه الجدران العالية.. ولماذا لا نعطى المسجون بعض عائد هذه المشروعات كى يرسلها إلى أهله فى خارج السجن حتى يضمن أن بيته لن يهدم بعد دخوله..

وخلاصة القول لابد من وجود نظرة جديدة للسجون المصرية.. بحيث تتحول إلى أماكن منتجة.. نقطة أخرى أقولها لك بهذه المناسبة.. انه لابد من فصل إدارة السجون والاشراف عليها بعيدا عن وزارة الداخلية.. بحيث تنتهى علاقة المسجون بالشرطة والداخلية بوضعه فى السجن.. وبالتالى ينتقل الإشراف على السجون إلى وزارة العدل.. لأنه حين تعددت ألوان الرقابة داخل السجن.. تعددت ألوان الفساد.. ومن هنا لابد من احترام الإنسان المصرى حتى داخل السجن.. ممكن أن تعدمه.. أو تقتله ولكنك حين ارتضيت أن يكون سجينا فلابد من احترامه والبعد عن تعذيبه وإهانته.. لأن المسجون الذى تهان كرامته داخل السجن يخرج من أجل أن ينتقم من المجتمع..

*** معنى ذلك أن الولد الشقى.. يرى السجن ليس هو الوسيلة المناسبة الآن لعلاج ظاهرة الإجرام؟..**

ـ طبعا.. وأقول لك ليه.. أنا الآن وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية.. وبعد أن ذقت جميع أنواع الصفعات والشلاليت ومارست الأشغال الشاقة فى صحراء الواحات.. أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إن السجن ليس رادعا وليس وسيلة للعقاب. لقد اخترع الانسان السجن ليقضى عل الجريمة، ولكن ها هو السجن قائم.. والجريمة موجودة يسيران معا جنبا إلى جنب.. ولا يلتقيان، كأنهما شريط سكة

حديد يكملان بعضهما ولايتعارضان.. واعتقد أن الإنسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اذا أراد أن يقضى على المجرمين والإجرام..

وشىء آخر أن نزلاء السجن فى بلد كمصر هم لا يتغيرون، بدليل أن المجتمع ثابت لا يتحرك والأوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شىء بقطع الشطرنج.. ثم شىء آخر.. وأخيرا لقد كان القصد من بناء السجن كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات وعلى الأسوار «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح» ولكن يبدو أن الأعمال ليست بالنيات فى مصلحة السجون.. لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم وتعذيب وإفساد..

وتسألنى شخصيا ماذا استفدت من السجن؟.. وأقول لا شىء.. فالسجن ليس تجربة مفيدة.، لأن التجربة الحقيقية فى الخارج، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة، والاختبارات متعددة، ولكن السجن يوما واحدا ممل ومكرر وكئيب..

*** أستاذنا محمودالسعدنى.. هل تأذن لى بسؤال.. عن كيفية معالجة الرأى المعارض أو الرأى الآخر؟.. بعيدا عن عقوبة السجن..**

ــ اذا كنا نؤمن بالديمقراطية ، فلابُدّ أن نؤمن بالمعارضة.. ويكون لها نفس حقوقها.. وأنا أذكر لك مثلا بسيطا.. أنا توا قادم من بريطانيا ووقتها كانت هناك استعدادات لإجراء الانتخابات العامة.. ورأيت حزب العمال فى كل قنوات التليفزيون يحاول فضح سياسة حزب المحافظين.. حزب الحكومة.. وقد حدث ذلك دون أدنى تدخل من أية جهة من الجهات التابعة لحزب المحافظين الحاكم.. لإيمانهم أن وسائل الإعلام هى ملك للشعب وليست ملكا لأى حزب من هذه الأحزاب.. وبالتالى فإن الشعب هو صاحب الاختيار، هذا ببساطة هو مفهوم المعارضة.. بعيدا عن شبح الاعتقال أو السجن لأصحاب الأفكار المعارضة للحكومة.. والسجن فى هذه الحالة لايكون إلا للمعارض الذى يحمل السلاح.. أما المعارضة بالفكر والرأى والقلم والندوات والمؤتمرات فلا غبار عليها.. ومسموح بها لكل أفراد الشعب.. ولكنك حين تحمل السلاح فلابد وأن تواجه بالسلاح.. هذه هى أزهى عصور الديمقراطية التى أحلم أن تكون فى مصر.. فيكون لكل مصرى الحق فى أن يقول كلمته.. وأن يكون له أيضا حق تكوين الأحزاب.. لأن الديمقراطية الحقيقة ليست حقا إلّهيا لأحد فالحكم لمن يختاره

الشعب والجماهير.. وبناء على ذلك فيكون لكل مواطن حق إنشاء جريدة يقول من خلالها رأيه ورأى من يمثلهم.. مادام ذلك يتم فى حدود القوانين واللوائح ووفقا للدستور والعرف الموجود..

وأحب أن أؤكد لك أننا رغم وجودنا على بداية الطريق الديمقراطى إلا أننا بالنسبة للدول العربية الاخرى متقدمين جدا فى هذا الميدان.. وهذه شهادة لوجه الله.. إنها بالفعل واحة لديمقراطية بالنسبة لبقية الدول العربية الأخرى.. إننا فى مصر نعتبرها باريس الشرق العربى.. حتى فى عهد عبد الناصر وعهد السادات.. ورغم قسوة ما يراه المسجون السياسى فى مصر .. إلا أن ما يقاسيه لا يضاهى أبدا ما يتعرض له الإنسان العربى فى سجون العراق وغيرها من الدول العربية.. وعلى وجه الخصوص فى العراق فى مختلف العهود والعصور..

ولسوف أضرب لك مثالا واحدا لما يحدث فى مصر الآن.. إننا جميعا أصحاب رأى ومفكرين.. نختلف مع الحكومة وننتقدها بقسوة.. ومع ذلك لم يدخل واحدا منا السجن.. ولا نتصور أن هذه هى الديمقراطية التى نحلم بها.. إن هذا النوع من الديمقراطية هو أن يكون لكل فرد منا حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف.. وكذلك حرية الانتخابات دون التدخل من أى جهة من الجهات.. لأننا جميعا نعمل من أجل شعب مصر.. والفيصل فى الاختيار وصناديق الاقتراع.. وإننى أحلم بوصولنا لهذه الدرجة من الديمقراطية قريبا.. ووقتها لن نجد مسجونا سياسيا أو معارضا صاحب رأى داخل المعتقلات، وسوف يقتصر هذا الأمر على الإرهابيين الذين يتحاورون بالسلاح.. وبالفعل تجد مثل هؤلاء الإرهابيين هم ضيوف السجون والمعتقلات فى بريطانيا أم الديمقراطية الحديثة.. وأنا أقول لك أيضا إن ماحدث فى الاتحاد السوفيتى من انهيار الشيوعية مرجعه غياب الديمقراطية..

* نعود إلى اللقطات الإنسانية فى رحلة السجن الكبرى التى صاحبت حياة الولد الشقى.. ونسأل..

*** هل تعرف محمود السعدنى على شخصيات داخل السجن مازال محتفظا بصداقتها حتى بعد الخروج؟.. وما هى الشخصيات الغريبة التى مازالت عالقة فى ذهنه داخل هذا العالم؟..**

ـ من هذه الناحية.. هناك أصدقاء كثيرون.. أذكر منهم مأمور ضرائب اسمه الأستاذ محمود.. وكانت هوايته الكبرى الأكل.. ومازالت علاقتى به قائمة حتى الآن نتزاور من حين لآخر.. فكان يحب الزبيب ولحوم البط، ودائما يوصينى بضرورة أن يبعثوا إلينا بما يحتاجه من هذه الأصناف فى كل زيارة، وكان محكوما عليه بثلاث سنوات.. وقد تركته داخل السجن وخرجت قبله.. وهو الآن محاسب كبير..

أما الشخصية الأخرى.. فهو شاب ظريف جدا تعرفت عليه داخل السجن حكم عليه فى تهمة قتل عمد.. والقتلة فى السجن عادة محترمون أو.. موهوبون.. لانهم غير مجرمين مثل النشالين وغيرهم.. ويحضرنى هنا موقف غريب من جملة سمعتها بعد دخولى سجن القناطر بيومين.. فقد شاهدت اثنين من المجرمين فى خناقة حامية.. وكل واحد يقول للآخر: «عيب دا احنا مجرمين ومش لازم نتخانق أمام الافندية دول».. هذه العبارة ظلت لاصقة فى ذهنى طويلا.. واكتشفت أنها حقيقة فعالم المجرمين مختلف تماما عن عالمنا نحن.. عالم المسجونين السياسيين وعالم القتلة الذين كثيرا ما يتميزون بالنظافة والنظام ولم لا؟..

فكل واحد منهم على الأقل محكوم عليه بخمسة وعشرين عاما.. انها حياة كاملة.. ولا يعلم وقت الخروج أو متى سيكون؟.. وأذكر أن الولد اسمه فتحى.. ويعمل الآن بإحدى المحلات بشارع الصحافة.. بجوار أخبار اليوم ونلتقى سويا من آن لآخر.. ففى العيد نلتقى.. ويفطر عندنا فى رمضان مرة واحدة..

*** لو أن أحد هؤلاء طلب منك أن تساعده أو تقدم إليه خدمة هل تسارع فى تلبية هذا الطلب؟**

ـ مفيش كلام. أساعده فورا.. ليس هذا فقط بل العساكر وضباط البوليس الذين مازال بعضهم على علاقة بى حتى الآن.. وأنا أذكر أنه كان يحرسنا فى فترة السجن الأخيرة حوالى تسعين ضابطاً ثلاثة وثمانين منهم يمكن أن تزنهم بميزان الذهب.. و٧ ضباط يعنى تقدر تقول مش قد كده ومن هؤلاء الضباط الأوفياء على ما أذكر ضابط اسمه ابراهيم العزازى.. رجل بمعنى الكلمة.. وقد خرج على المعاش الآن برتبة لواء ويعمل فى الكويت.. وفى كل زياراتى للكويت لابد وأن يزورنى.. وآخر اسمه نبيل البرقوقى مدير كلية الشرطة للضباط المتخصصين السابق.. وثالث اسمه حسن

حميده.. وهو الآن برتبة لواء.. وقد التقينا منذ فترة قصيرة.. وللأسف لم أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه وتبادلنا الضحكات والذكريات..

*** وما هى ذكريات محمود السعدنى مع الجلادين داخل المعتقل؟**

ـ ولا حاجة.. تقابلت مع بعضهم خارج السجن.. ولم نتبادل أى حديث.. وأنا أعرف واحدا منهم كان اسمه الأول حلمى وكان شخصية غير مرغوب فيها إطلاقاً من جانب كافة المسجونين السياسيين.. ورغم وصوله إلى أعلى المناصب.. إلا أننى أعتبره لا ينفع فى أى منصب من هذه المناصب الكبيرة.. وقد تقابلنا فى مرة من المرات أثناء إحدى سفرياتى فى داخل مطار القاهرة.. والتقينا لقاء فتور.. وبالطبع كان يعرف أننى محمود السعدنى.. وثالث ضابط بوليس لاداعى لذكر اسمه.. أيضا التقيت به.. وكان من هؤلاء الضباط الاشرار.. وكما ذكرت لك فان أغلبية الضباط الذين تعرفت عليهم أنذاك كانوا ضباطا أشرافاً ورجالة.. وظلت علاقتهم قوية ومستمرة حتى بعد انتهاء مدة العقوبة.. ولابد من ذكر المرحوم فريد شينيشن مأمور سجن الواحات الذى لم يسمح فى فترة وجوده من قتل أى مسجون أو دفنه حيا.. كما كان يحدث قبله.. رغم قسوته فكان منصفا وحازما فى الوقت الذى مات فيه الكثيرون من مساجين سجن أبو زعبل فى ذلك الوقت.. هذا الضابط ظلت علاقتى به دائمة ومستمرة حتى وفاته.. حيث كان مديراً لأمن الدقهلية ثم رئيسا لمجلس مدينة جمصة.. وعايز أقول لك إن أغلب هؤلاء الجلادين كانوا «صولات» ثم ترقوا.. وكان عليهم أن يثبتوا كفاءتهم فى ميدان التعذيب داخل السجن..

*** لو قلنا.. كم كتاباً ألفه الأستاذ محمود السعدنى داخل السجن؟**

ـ لم أكتب حرفا داخل السجن..

*** لماذا؟..**

ـ أولا.. أيام سجن عبد الناصر.. كان ممنوعا علينا القراءة و الكتابة.. وفى سجن القناطر أيام السادات.. كان علينا أن نقرأ فقط باعتبارى أحد المحكوم عليهم فى قضية الخيانة العظمى التى حدثتك عنها من قبل.. وكان بالسجن مأمور أعرفه سابقا.. لذا لم أجد مشكلة فى التعامل داخل الجدران العالية من هذه المرة معه.. وقد أبدى استعداده لتلبية كل طلباتى من الشاى والقهوة والأطعمة. إلا الورق والقلم.. فقد قالها لى

بصراحة.. (ممنوع الورق والقلم.. وإلا هنـزعل من بعض).. واتفقنا على عدم مطالبتى بـالورق والقلم.. واستجـابتى الكـاملة لكل أوامـره داخل السجن طلبـا لراحـة العقل والدمـاع.. لكن مع ذلك كتبت بعض الكتب داخل السجن.. بس فى دماغى.. مثـلا كتاب «الولد الشقى فى السجـن».. كونت فكرته فى رأسى أيام السجـن.. وكذلك كتاب «مصر من تانى».. وعندما خرجت أفرغت ما فى رأسى من أفكار داخل الكتب التى صدرت فيما بعد..

*** ولو سألنا .. كم كتاب.. أو كم فكـرة كتبها الولد الشقى بعد خـروجـه من السجن تأثرا بهذه التجربة .. ماذا تقول؟**

- هو كتاب واحد.. « الولد الشقى فى السجن».. وكتاب آخر أنشره مسلسلا بإحدى المجلات الأسبوعية اسمه « الطريق اللى مشى» عن فترة سجن الواحات.. وقد كتبته بعد هذه الفترة الطـويلة من منطلق نظرية خـاصة بى وهى أن مثل هذه الأحـداث لابد وأن يكتبها المفكر بعد فترة زمنية طويلة، لأنه بالفعل لن يبقى فى الذاكرة من هذه التجربة إلا ما يستحق أن يكتب فوق الورق.. والباقى سوف ينساه..

*** هل يعتقـد الكـاتب الصحفى محمـود السعـدنى أن فترة السجن بـالنسبة للمفكر يعتبرها فترة سوداء فى حياته أو فترة بيضاء؟..**

- إذا كانت متعلقة بمسألة سياسية فهى نقطـة بيضـاء ووسـام يعلقه فوق صدره.. مادام غير مجرم أو حرامــى.. ولا مختلس أو قواد.. انها تجربة رهيبة جدا.. فـلابد من أن تكرم المفكـر وتقيم له التماثيل وتعطيه الأوسمـة لا أن تضعه فى السجن.. وأحب أن أقول لك إن جميع كتاب ومفكرى مصر جـاءت عليهم فترة زمنية سجنوا جميعا إلا قلة قليلة جدا.. مثل فتحى غانم وموسى صبرى ولطفى الخولى ويمكن أنيس منصور أيضا ومصطفى أمين.. كل هؤلاء وغيرهم ذاقوا مرارة هذه التجربة..

ولعلك سوف تسألنى عن ارتباط أمر اعتقال هؤلاء المفكرين بتوقيع رئيس الدولة.. وأقول لك بأمانة.. انه زمان بالفعل كانت أوامر الاعتقال لابد وأن يوقعها رئيس الدولة، وربما يرجع السبب إلى سهولة هذه الطريقة لأن اعتقال أى انسان مسألة صعبة جدا.. بجانب انهم لا يعتقلـون إلا المفكر صاحب الـرأى المؤثر فى قطـاع عريض من الجماهير

والذى له عـلاقة بأمن الدولة.. وهـذا لا يعنى أن الكاتب أو المفكر كان لـه قيمة.. أبدا.. كانوا يقبضون عليـه ويضربونه ويعذبونه بقسوة.. وكل مـا فى الأمر أن رئيس الدولة كـان ولابـد وأن يـوقع على هـذه الأوامـر حتى يطمئن على عمليـة القبض على هـؤلاء ويستريح من عنـاء أفكـارهم ومشاكلهم لأنـه كـان يتصـور أنهم أعداؤه.. ولابـد من التخلص منهم ومحاربتهم بشتى الطرق.. واسمح لى أن أقول لك إننى رغم حبى لجمال عبد النـاصر فقد اعتقلنى كما رويت لك من قبل، ولم أكن ضده فى يوم من الأيـام ، ولو تسألنى لماذا حدث كل ذلك.. أقول لك لا أعرف السبب أو الهدف..

وعلى فكـرة.. أود أن أشير إلى حقيقـة هامـة هى أنـه حينما تغيب الحريـة وتسـود الدكتاتورية.. يكثر اعتقـال المفكرين.. ويزج بهم داخل السجون والمعتقلات.. ولو كنت مكان رئيـس الدولـة أو رئيس الحكومـة أو حتى مكان وزيـر الداخليـة.. وعرض على كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقـالهم.. ومع الفرض أن ذلك لم ولن يحدث.. فإننى كنت سوف أوقع على هذا الكشف بالتنفيـذ لأننى أؤمن أنهم وهم فى أماكنهم هذه يرون أشياء لا نراها نحن الذين نجلس خارج السلطة.. وتقديرهم للأشياء غير تقديرنا.. ولو كنت مكـانهم.. يجوز كنت أفكـر مثلما يفكـرون وربما أتخذ نفس إجـراءاتهم.. وهـذا للأسف من صنع الأجهزة المعاونة.. والحاكم الذى يعطى أذنه للأجهزة لا يكون عادلا.. وأضرب لك مثلا بعبد الناصر الذى أسلم قياد نفسه إلى تلك الأجهزة اللعينة التى قضت عليـه فى النهايـة..لأن بعض الضبـاط من رجـال الثورة تصـوروا أنفسهم أنهم جـاءوا للقضاء على الملكية وإحلال ملكية أخرى.. هى ملكية كل منهم.. بحيث تحولوا فى النهاية إلى أمـراء وباشـوات مصر.. كلـه ينهب.. وكلـه يسرق.. وطبعا كـان على رأسـهم المشير عامر.. ومكتبه وشلته.. وعاشوا ولا الملوك الأوائل.. وللأسف انساق عبد الناصر معهم بكل قوته وعقله.. لأنه كان يعتبرهم مماليكه الخاصة..

ولا نبخس قدر أحد.. لـذلك أقول إنه رغم ذلك.. كان من هـؤلاء الضباط رجال لهم شرف وكرامـة.. وعلى سبيل المثـال شعراوى جمعه والـذى اعتبره من أشرف الـرجال الذين عـرفتهم طوال حياتـى ومحمد فايق وسعـد زايد.. وعلى فكرة لـو أن جمال عبد الناصر جاء من خلال جماهير الشعب لتغير موقعه تاريخيا رأسا على عقب.. ولتربع على عرش أبطال مصر الذين يشرفون تاريخ مصر طولا وعرضا..

* أنــا أعرف أننى قــد أثقلت على الولــد الشقى بــالأسئلة ولكثــرتها ولطولها.. لــذا أرجوك العفو.. وأن تسمح لى بسؤال آخر يقول:

***ماذا لو كان محمود السعدنى مأمورا لسجن القناطر أو الواحات أثناء فترة اعتقال كاتب مثل محمود السعدنى..؟**

ـ لو كنت مأمور السجن فى فترة اعتقال محمــود السعدنى.. كنت أول حاجة سوف أقــوم بها هى أن أضرب محمــود السعدنى.. وتعــرف لماذا؟ لأننى فى منصب المأمــور.. وشغلته فى الأصل أن يضرب المسجونين لأن السجن فى الأصل مؤسسة عقابية.. يعنى مهمتى كمأمور سجن أن أضرب المعتقلين كعقاب لهم..

وعلى الفكرة العقــاب ينتج عقابــاً وللأسف الــذى ينتج هذا العقــاب ليس المأمور أو المدير.. ولكن عساكر السجن.. الذين اعتبرهم أسوأ فئة خلقها ربنا.. وقد عرفت أحدهم وكان يدعى «على حرب» الله يرحمه بقى دلــوقت.. كان مشهورا بعصاه الغليظة وقلبه الميت.. واكتشفت وأنا داخل السجن أن أغلب هؤلاء العساكر من أيام زمان.. تقدر تقول من أيام حيدر باشا.. بل أقدم من ذلك كمان..

ولهؤلاء العساكــر عذرهم.. فقــد كــان الواحــد منهم يتقاضى مثــلا ١٢ جنيهــا فى الشهر.. فكيف كــان يعيش.. وأنا أذكر لك بالمنــاسبة أنهم أيام عبد النــاصر.. اتفقوا مع خبير يوغســلافى لدراسة أحــوال السجون المصرية فبعــد أن لف على كل السجون كتب تقريــرا يقول فيه: أنــا حتى هذه اللحظة لا أعــرف كيف يعيش المسجون المصرى داخل هذه السجــون؟.. وأنا أقترح أن تتركوها كما هى الآن.. لأنــه لا حل لها.. إن السجون فى مصر سيئة جدا ومسئولية خطيرة جدا.. ولابد من نظرة جذرية لحالة السجون حتى لا تفرز مجرمين آخــرين.. وحتى تؤدى دورها فى عــلاج المجرم بدلا من أن تســاعده على العودة إلى عالم الإجرام..

كما يكون دورها أن تحول المجرم إلى مواطن صالح يخدم المجتمع بدلا من أن تنتقم منه.. لأننى أعتبر أن هذه المشاكل هى أخطر مــا يواجهنا على طريق التنمية.. فكل واحد منا معرض أن يــدخل السجن لأى سبب وفى أى لحظة.. فإذا دخله بالــوضع الذى كان عليه.. حتما سيــدخل مرة أخــرى وثالثــة ورابعة.. ولا تتخيل أننى حين أكــون مأمور

سجن سوف أصلح.. أبدا.. لأن المأمور أو المدير يعمل وفق لوائح وقوانين مفروضة عليه..

ولعل اسمه يدل على وظيفته.. إنه يا سيدى مأمور.. ووفقا لذلك لابد من تغيير هذه اللوائح والقوانين.. ولا تتخيل أنه توجد بهذه اللوائح ما يسمى بعلاوة الإجرام.. تصور يكافئون المسئول داخل السجن بعلاوة وزيادة فى المرتب كلما زاد اجرامه.. وأنا أعتقد أن مثل هذه الصور الآن بدأت تتغير كثيرا.. كما أعتقد أن هناك رغبة أكيدة لدى المسئولين لتطوير سجون مصر وتحويلها إلى أماكن منتجة تساعد المسجون فى حياته داخل السجن وخارجه.

*** وهل يوجد فى مصر الآن مسجون سياسى؟..**

ـ أبدا.. فعلا مصر الآن خالية والحمد لله من المساجين السياسيين.. ولا أعتبر الموجودين الآن داخل السجن من أفراد جماعات التطرف من هذا الصنف.. لأننى سبق وقلت إن المفكر السجين السياسى هو الذى لا يستخدم السلاح.. وإذا لجأ إلى السلاح فإنه يتحول إلى إرهابى.. وبالتالى لابد من مقاومته بالسلاح أيضا..

وهذا القول لا ينطبق على أناس بعينهم أقول لك أى واحد يحمل السلاح فقد خرج من تصنيف المسجون السياسى وصاحب الرأى، وتحول إلى مقاتل وإرهابى.. ولعلمك لا توجد جماعة عبر التاريخ حملت السلاح ووصلت إلى السلطة.. لأن السلاح يولد السلاح.. والنتيجة هى الحرب.. ويا قاتل يا مقتول.. التاريخ يقول ذلك.. إننى أبعثها رسالة من خلال هذا اللقاء أقول فيها لابد أن نتحاور باللسان والقلم..

الحكاية الثالثة يرويها د. عبد الصبور شاهين:

لم يستطع السجن أن ينزع مابداخلى من أفـــكار

كنت ومازلت مثل المئات غيرى.. بل إن شئت قل مثل الآلاف من البشر الذين يتابعون بين الحين والآخر أستاذنا العالم الجليل الدكتور عبد الصبور شاهين ويلاحقون علمه الغزير الذى يفيض علينا وينقله إلينا من عدة منافذ، ما بين منابر المساجد وموجات الإذاعة وشاشات التليفزيون.. وكانت علاقتى به قبل إجراء هذا الحوار مثل هؤلاء الذين يتشوقون إلى متابعة أعماله وسماع صوته الرزين الذى يدل على أصالته وعلمه وشدة إيمانه..

وفجأة احتل هذا العالم الجليل كل كيانى.. وبات شغلى الشاغل ليس من حيث علمه وأعماله ومؤلفاته المتنوعة.. بل من حيث هو إنسان عاش وقاسى وجرّب.. وأيضا دخل السجن.. فما أقسى هذه الكلمة على النفس.. ولكنها الحقيقة المرة التى لفحت وجهى.. وأنا أعد هذه السلسلة الطويلة من الحوارات.. وتساءلت فى داخلى.. عن البداية لأننى وكما سبق أن قلت.. إن أسخف عبارة اكتشفتها منذ تفكيرى فى إجراء هذه الحوارات.. أن أقول لضيفى.. العالم الجليل أو الصحفى الكاتب المفكر أو أستاذ الجامعة حامل مشاعل العلم والنور كم مرة دخلت فيها السجن؟

ومنذ نجاحى فى الحصول على تليفون منزله.. وأنا أراجع نفسى وأحاول أن أختار الكلمة تلو الأخرى... وتوكلت على الله فى القيام بالمحاولة الأولى.. وجاء صوت الدكتور عبد الصبور شاهين رجل الدين المثقف عبر الأسلاك الصماء.. هادئا فيه رقة الأب نحو ابنه.. وأقولها بصدق لقد شجعنى على المضى قدما فيما أقدمت عليه.. وعرضت على مفكرنا الجليل فكرة الحوار.. ومضمون موضوعه والهدف منه.. صحيح أننى لم

أحصل على مـوافقة سريعـة.. ولكنى أخذت وعـدا بالاستجابـة لفكرتـى حين معاودة الاتصال.. وقد كان.

ومما ساعـد على سرعة إجـراء هذا الحوار.. أننى فى حـديثى عبر التليفون ذكـرت للدكتور عبد الصبـور.. أن أحد أصدقائه الأعزاء هو الـذى حكى لى جزءا من حكايته فى السجن.. عندئذ خرج صوتـه الهادىء يضحك.. مصمما على أن يرانى كى يحكى لى هو التجربة.. واتفقنـا على موعد اللقاء.. وكان اللقـاء فى منزله القابع فى بـداية شارع الهرم ناحية محافظة الجيزة.. وداخل شقتـه حيث الأثاث الأنيق والاستقبال الحافل وأكواب الليمون التى قوبلت بها عند باب الصالون.. والجلبات الأزرق الذى يفضل أن يجلس به عندما يفرغ من عمله وعلمه..

وبعد لحظـات الاستقبال المعتادة.. انتقلنا إلى الصـالون الكبير الذى تحيط بـه تحفا إسلامية نـادرة.. كان أبرزها سجـادة باكستانية كثيرا مـا حدثنا عنها أستـاذنا العالم الجليل.. وعندما فكرنا بنية تصويـره كى تكون الصورة مصاحبة لحديثه معنا.. انتقل على الفور إلى حجرة نـومه.. حيث استعد ببدلـة جميلة.. وهنا اكتملت كل مظـاهر الود والحب.. وبات الاستعـداد وشيكا من أجل تشغيل شريط التسجيل كى يسجل لى ولكم وقائع كلمات هذا الحوار.. وتجربة أحد علماء مصر ومفكريها مع السجن والاعتقال..

فى هـذه المرة بـالذات.. وعنـد تسجيل هـذا الحوار.. وجـدت نفسى أتحدث بكلمات اعتذار كثيرة لإحساسى أننى قـد أثرت فى نفس محدثى شجون الماضى التى ربما عفى عليها الزمن.. وخشيت أن أصيب بداخل مفكرنـا الألم وإعادة نزيف جرح قديم.. وعلى ذلك تصـورت أن مثل كلمات الاعتـذار هذه ربما تخفف من وقع مـا سـوف يأتى من أسئلة.. وللمرة الثانية أحسست بصلابة الـدكتور عبد الصبور شاهين وترحيبه الزائد عن الحد من أجل أن أبدأالحديث.. وحتى لا يشعرنى بمـزيد من الحرج بادرنى قبل أن أسوق اليه أسئلة الحوار..

فى الحقيقـة هنـاك أمـران.. الأمر الأول: أن مـا كان هـو من اختيار اللـه سبحانـه وتعـالى.. وما اختـاره الله هـو الخير.. حيث قـال أحد المريـدين لشيخه أسأل اللـه لك العافيـة.. قال لـه إن العافيـة ما اختـار الله سبحـانه وتعـالى ورسولنا الكـريم حينما سـأل ربه العافية مـن عليـه بأكلة خيبر.. وهى الشـاة المسـمومة التى قيـل إنها

أحد أسباب وفاتـه صلى الله عليه وسلم..

أما الأمـر الثانى أن كثيرين ممن أعرفهـم قد ذاقوا ويـلات السجن أكثر منى.. ولا يحبون أن يتحدثـوا عنه.. وأنا شخصيا أعذرهم وألـومهم لأن دخولنا السجن لم يكن لعيب فينـا ولم يكن لقضية شخصيـة.. حتى نقول إننـا لن نتحـدث خوفـا من الريـاء وضياع الأجر.. لقـد كان دخولنا السجن لقضية البلـد .. لقد كانت قضية فكـر هدفها رفض الدكتاتوريـة.. ومن أجل ذلك ينبغى أن يعرف شباب مصر أن بها رجالاً وعلماء قد رفضوا العيـش فى ظل الدكتاتوريـة وهى فى عنفوانها.. وأن هؤلاء الرجـال مازالوا رجالا.. لم يستطع الطاغية أن يؤثر على قدراتهم وعطائهم الفكرى ماداموا قادرين على العطاء وإبداء الرأى والفكر..

ليسمح لى أستاذنـا الـداعية الإسـلامى والمفكـر الكبير الدكتـور عبد الصبـور شاهين أن أقول إن الألم ما زال يعتصرنى حين أسأل بصراحـة كم مرة دخل فيها أستاذنا السجن؟

– ثلاث مرات.. أول مرة فى عام ١٩٥٤ وبالضبط من أكتوبر حتى منتصف ديسمبر عام ١٩٥٤.. أيامها كنت فى الليسانس وكان عمـرى وقتها ٢٦ عاما.. وقد سبق اعتقالى فى تلك الفترة هـروب طـويل فى الشوراع.. خـوفـا من أهـوال السـجن.. كنت أعيش فى القاهرة، وبـالضبط فى الإمام الشافعى وأهرب فى عـابدين.. والسبب يرجع إلى انتمائى الى الإخـوان المسلمين.. وفـور حل الجماعـة فى عـام ١٩٥٤ بـدأت مطـاردة العنـاصر النشيطة بـالجماعة وكنت وقتها من هـذه العناصر.. حيث تم إغلاق مسجـد الشاطبى الذى كنت أخطب فيه.. وبذلك أصبح لا موضـع لى إلا السـجن، فهربت..

ومن كثرة حـالات هروبى وتنقلى هنـا وهناك أشفقت على من كنت أهـرب عندهم، لإحساسى بما لـديهم من حرج حين أبيت عنـدهم، فعدت إلى بيتى فى الإمـام الشافعى وهناك وجـدت المخبر ينتظرنى فـاستسلمت له.. وذهبت معـه إلى السـجن.. واعتقلونى لمدة أربعـة أيام أو خمســة على ما أذكـر .. .. وحين خرجت من السجن دخلت امتحـان الفصل الدراسـى الأول، فى أول تجربة لتقسيم سنوات الدراسة إلى عدة فصول.. وكان الهدف من ذلك أن يبتعد الطلبة عن السيـاسة .. وهذا ما كانت تهدف إليه حكـومة عبد الناصر.

أمـا الاعتقـال الثانى فكـان فى ٢٥ مـارس عـام ١٩٥٥.. وكنت الأول على دفعتى فى الفصل الدراسى الأول .. وبقيت بالسجن إلى آخر فبراير عام ١٩٥٦.. ثم دخلت الفصل الدراسى الثانى.. فتخرجت من دار العلوم فى نفس العام متأخرا عاما عن زملاء الدفعة بسبب هذا الاعتقال.. ومكثت خلالها أحد عشر شهرا ما بين سجون القلعة وسجن قنا.. حين أخرجـوا تجار الحشيش ووضعونـا بدلا منهم.. أى واللـه.. لقد كنـا نشم رائحة الحشيش داخل الزنزانة.. من تأثير وجود هؤلاء التجار قبلنا.. وفى المرة الثالثة سجنت عام ١٩٦٥.. وكنـت وقتها قد حصلـت على الدكتوراه.. ومكثـت بالسجن آنـذاك أربعة أشهر.. وكانوا يطلقون على حينئذ معتقل بدرجة دكتوراه..

***ما هـو تأثير تجربـة السجن خـلال هـذه المرات الثلاث على أستاذنا المفكـر الدكتور عبد الصبور شاهين.. أولا كمفكر وثانيا كإنسان.. وثالثا كمصرى؟**

– أولا يجب أن نفرق بين حالتين.. حـالة أن يكون الإنسان داخل السجـن وحالة أن يرى الإنسـان نفسه داخل السجن وهو خارج السـجن فالرؤية هنا تختلف.. فأنت داخل السـجن تعيش بإحساس غـريب يجعلك لا تريد أن تخرج منه.. والسبب يـرجع إلى أننا كنـا نشعر ونحن داخل السجن أننـا فى أمان.. وقـد لا ينطبق هذا الإحسـاس على المرة الأولى حيث كنت محتجـزا بقسم الخليفة.. ولكن فى المرة الثـانية وهى مـدة الأحد عشر شـهرا تلك التى قضيتها داخل الاعتقال بدون سبب أو اسم أو عنوان أو أى هوية.

وأنا أتذكر حين وقع الاعتقال.. أنهم قد دخلوا إلى بيتى ليلا وأنا أذاكر تحت لمبة جاز وطلبوا منى الذهاب معهم لمدة خمس دقائق .. وبعـدها استمرت الحبسة لمدة أحد عشر شـهرا.. وفى المرة الثالثة على ما أذكر اعتقلت وأنـا كنت مشرفا على أحد معسكرات الطلبة بحلـوان.. وقتها كنت أستـاذا بكليـة دار العلـوم وكنت ممثلا لها فى الإشراف على هـذا المعسكر الذى أقيم تحت رعاية الاتحاد الاشـتراكـى.. واعتقلت فى ظروف اعتقال الداعية الإسلامى المرحـوم سيد قطب.. لحظتهـا كنت أبيت تحت الخيمة.. وفى الصبـاح جاءوا حيث أنام.. وألقوا القبض على .. وأنا سوف أقـول لك شيئا مضحكا بهذه المناسبة.. إن هذا المعسكـر قد أقيم كما ذكرت تحت إشراف الاتحاد الاشتراكى، واشترك فيـه الطلبة وأسـاتـذة الجامعة مـن الذين تصـوروا أنهم يـؤيـدون الثـورة المبـاركة ومبـادئهـا

الاشتراكية.. وحقيقة لا أعرف كيف اختارونى وعلى أى أساس .. ربما جاءوا بى إلى هذا المعسكر كى يكون من السهل عليهم اعتقالى وبعد أربعة أشهر أفرجوا عنى..

أعود وأقول لك.. إننى فى تلك الفترة كنت أرحب بالسجن أكثر من وجودى خارجه.. لإحساسى بالأمان وأنا بداخله .. وقتها التقيت داخل السجن خاصة الاعتقال الأخير.. بالأستاذين كمال رفعت والدكتور عبد العزيز كامل.. وقد جيء بهما من أجل القيام بعملية غسيل مخ لكل المعتقلين.. وطبعا وأنا منهم رغم أننى وكما سبق أن قلت لك كنت حاصلا على الدكتوراة.. وعندما أحسوا بذلك .. قدموا لنا الاعتذار.. وبعد نهاية اللقاء طلبت منهم أن يتوسطوا لدى المسئولين حتى لا يفرجوا عنى.. رغم أننى كنت فى غاية الشوق للخروج.. فأثار طلبى هذا تعجبهم واستياءهم عندئذ أكدت لهم.. أننى حين أخرج سوف أعيش فى سجن آخر.. إذن أفضل العيش هنا فى هذا السجن الصغير بدلا من السجن الكبير.. هذا السجن الذى تعودت عليه.. لأننى حين أخرج سوف يراقبوننى ويضايقوننى فى حياتى وفى معيشتى.. بجانب أننى سوف أشعر بعزلتى السياسية.. لأننى كنت محروما من الإدلاء بصوتى..

خلاصة القول.. كنت سوف أفقد حريتى.. إذن أنا هنا أعيش فى أمان أكثر.. بعيدا عن الشعور بالمطاردة.. وكنت قد جربت تأثير ما بعد الاعتقال على حياتى فى الفترة التى أعقبت المرة الثانية التى اعتقلت فيها عام ١٩٥٦ وهى آثار خطيرة جدا..

مثلا.. كنت فى الفرقة الرابعة من الليسانس.. وحين تخرجت التحقت بكلية التربية.. وكنت وقتها فى حاجة إلى أن أعمل كى أعيش وعلى ذلك حاولت كثيرا أن أجد عملا.. فكنت أتقدم للمسابقات التى يعلن عنها فى الوظائف الحكومية.. ورغم أننى كنت أتفوق على زملائى المتقدمين الآخرين فى نفس الوظيفة.. إلا أنهم كانوا يرفضون تعيينى.. وفى مرة من هذه المرات تقدمت لمسابقة مترجم بالإذاعة عام ١٩٥٧.. وحصلت وقتها على المركز الأول.. ومع ذلك رفضوا تعيينى..

إننى وقتها كنت متفوقا فى اللغة الفرنسية التى أتقنتها فى فترة اعتقالى.. واستطعت وأنا داخل السجن أن أترجم بعض الكتب الاسلامية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وعلى وجه الخصوص للمفكرين الجزائريين.. ومرة أخرى دخلت امتحان الملحقين السياسيين بالجامعة العربية رغم أننى كنت من خريجى دار العلوم لأننى

دارس للحقوق السياسية ومتفوق كذلك فى اللغة الفرنسية.. وأيضا لم أوفق فى الالتحاق بهذا العمل.. وقد تتعجب حين أقول لك إنه فى المرة الأولى التى دخلت فيها امتحان الإذاعة.. خرجت علينا مجلة الإذاعة والتليفزيون بأسماء الناجحين فى الامتحانات.. وكنت أنا الأول ثم أمين بسيونى وآخرون..

وقبل أن يقرروا تعيينى.. طلبونى بالمباحث العامة.. من أجل أن أعلن توبتى وتنصلى من أفكار الإخوان المسلمين.. حتى يوافقوا على هذا التعيين.. فرفضت.. ورفضوا هم كذلك.. بل أبلغوننى بأن هناك أكثر من ذلك.. فما دمت متمسكا بأفكارى هذه فلن أعثر على أى عمل فى أى مكان فى مصر.. خوفا من تأثيرى المدمر على الثورة على حد تعبيرهم لقد أصدروا حكما بإعدامى فيما يتعلق بلقمة العيش..

من هذه اللحظة كان على أن أعتمد على نفسى لأننى وقتها كنت متزوجا وأعول.. ومادامو قد أعلنوا عن هذه النية فلا رجعة عنها من جانب حكومة الثورة.. وأحب أن أؤكد لك أننى فى هذه الفترة رغم اشتغالى بالفكر السياسى إلا أننى كنت مهتما بالعلم ومتفوقا فيه.. خاصة فى اللغات الأجنبية وهى التى نفعتنى فى هذه الشدة من منطلق إحساسى أن رجل السياسة لابد وأن يتفوق فى مجالات حياته المختلفة.. ولإيمانى بأن الزعيم يجب أن يكون أكثر الناس ثقافة وفكرا بخلاف ما اعتدنا عليه طوال التاريخ من أن يكون الزعيم متخلفا من منطلق أن الزعامة لا تفرضها غوغائية الشوارع.. بل تفرضها إمكانياتهم وكفاءتهم ودورهم فى خدمة الآخرين..

ولا تتصور تأثير هذه المواجهة على حياتى.. حين أبلغوننى بهذا القرار.. من ناحية كان المفروض على وقتها أن أخرج من مصر مثلما خرج غيرى من العلماء والمثقفين أمثال الدكتور يوسف القرضاوى وآخرين.. أخرج هروبا وبحثا عن لقمة العيش.. ولكننى أصررت على البقاء رغم هذا التحدى ولن أترك مصر.. وعلى ذلك فكرت فى الالتحاق بأى عمل لا تتحكم فيه سلطة الحكومة.. فبعد تجربتى مع الاذاعة والملحقين السياسيين .. عينت مدرسا فرفضوا.. وعينت معيدا أيضا رفضوا.. بل طردونى.. و أكثر من ذلك تم ترشيحى للسفر خلال أربع بعثات دراسية فى خارج مصر.. وأيضا رفضوا هذا الترشيح ولم يوافقوا عليه..

ولا تتخيل حين أقول لك مدة هذه الحرب التى أعلنتها على حكومة ثورة ٢٣ يوليو..

لقد بدأت منذ عام ١٩٥٦ وحتى عـام ١٩٦٥ تسع سنوات كاملة والحرب دائرة ضدى وتقودها سلطات حكومة الثورة.. لقد طردت بالفعل من أربع وظائف.. حتى قيد الله لى الرجل الطيب المرحوم الشيخ أحمد حسن البـاقورى الذى رغم عدم معـرفتى به وعدم لجوئى إليـه من أجل الـوظيفـة، فتوسـط لى لـدى المسئـولين حتى وافقـوا على تعيينى بـالجامعـة مـرة أخـرى.. وكما قلت من قبل إننى كنت قـد قـررت الاعتماد على نفسى والتكسب من الترجمة حيث معرفتى الطيبـة باللغة الفرنسية.. وأنـا أذكر أن أول كتاب ترجمتـه كان بعنوان« شروط النهضـة» للمفكر الجزائرى مالـك بن نبى.. ذلك الكتاب العظيم الذى ألفـه هذا الداعية بـاللغة الفرنسيـة.. ثم ترجمت له الكتاب الثـانى وخرج بمقدمـة كتبها المرحوم الرئيـس أنور السادات والكلام ده كـان عام ١٩٥٧ فى ديسمبر ١٩٥٧..

أما الكتاب الثالث الذى ترجمته فى ذات السلسلة فقد صدر عام ١٩٥٨.. وكنت وقتها قد عـدت من جديد الى التدريس بعـد أن طردونى منه وبعد أن تـوسط المرحوم الشيخ الباقورى لدى زكريا محيى الدين.. ومن جديد بدأت أكافح من أجل العودة الى الجامعة .. وبـالفعل عينت معيدا فى سبتمبر عـام ١٩٥٨.. وكـان عندى أربعـة كتب مترجمة من الفرنسية..

وفى هـذه المرحلـة كنـت قـد ملكت نـاصيـة الترجمة كفن.. ونـــذرت نفسى آنـذاك لأستخدمهـا فى نقلى الكتب الإسلامية فى الـوقت الذى كـان فيه من المحرمـات أن يكون لديك كتابا عن الإسلام.. وقد وفقنى الله حيث كان الداعية الإسلامى الجزائرى من بين الرجال الذين كانت ترضى عنهم حكومـة الثورة فى ذلك الوقت، وبالتالى كانت كتبه هى الكتب الإسلاميـة الوحيدة التى كـان من المسموح اقتناؤهـا وقراءتها.. وكنت أرى أن تـرجمتى لهذه الكتب الإسلاميـة يمكن أن تعـوض الشباب المصرى عن ضيـاع الكتب الإسلامية ومحاربتها من جانب حكومة الثورة..

لقد كان الداعية الإســلامى مالك بن بنى صديق الضابط كمال الدين حسين.. وحين أصل بك الى الحديث عن تأثير تجربة عام ١٩٦٥ كآخـر مرة دخلت فيها المعتقل.. أقول لقد كـانت فترة اعتقالات عن طريق الكشـوف بمعنى أن الزعيم عبد الناصر كـان يزور روسيا فى تلك الفترة فوقف على باب الكرملين رحمة اللـه عليه أو لعنة الله عليه.. وأعلن

للصحفيين أنه تم اعتقال ٦٥ ألف مصرى الليلة الماضية.. وأنه استطاع أن يجمعهم فى ليلة واحدة وأنه قد قرر أن يضعهم فى السجن الى الأبد.. ولن يخرجوا من المعتقل إلا بوفاته.. ويبدو أنه لم يكن يدرى أن الله كان بسمعه.. فلم يطل به المقام وعجل بنهايته كما عرفناها جميعا..

لقد تأثر الرئيس عبد الناصر كثيرا بموجات الإلحاد والشيوعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت للدرجة التى أعمته عن رؤية مشاكل شعبه وأهله.. بل إنه قد ابتعد فى تلك الفترة عن مناهج الله وتعاليم الدين الإسلامى.. واتضح ذلك كثيرا فيما اتخذه من قرارات كانت ضد هذا الشعب المسكين.. والسبب أيضا يرجع إلى هؤلاء الذين أحاطوا به وأوهموه بأن الشيوعية هى الحق.. هؤلاء لا يزال بعضهم يعيش بيننا حتى هذه اللحظة.. والحمد لله فقد أمد الله فى أعمارنا حتى رأينا سقوط الطاغوت الأصغر.. والطاغوت الأكبر حيث انهارت دولة الشيوعية ورحلت إلى غير رجعة..

*** كم كتابا ألفتموه داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟**

- أنا لم أعمل فى مجال السياسة كمحترف ولا كتبت كل ما عندى ولكننى قد تفرغت للعلم.. وجعلت ما عندى من أمور السياسة يخدم طبيعتى العلمية.. وأعتقد أنه قد آن الأوان بالنسبة لى أن أجلس كى أكتب هذه التجربة.. وسيكون مجيئك إلينا هنا هو البداية.. ولم تكن فترة السجن كلها اطلاع وتحصيل فقط.. بل كنت وقتها أترجم كتبا إسلامية.. وأرسلها إلى الخارج كى أنشرها.. أيضا كانت فرصة السجن طيبة كى أتقن اللغة هذه من منطلق إحساسى بأهمية اللغات بالنسبة للداعية الإسلامى.. وندرة وجود المفكر الإسلامى الذي يعرف لغة الآخرين.. وهذه كانت فى رأيى كارثة.. فكيف يكون الداعية الإسلامى جاهلا بلغات القوم الآخرين.. والدعاة فى مصر بالذات كانوا لا يتمتعون بهذه الصفة الهامة.. واللغة الفرنسية كانت فى رأيى هامة جدا لارتباطها بالعديد من الكتب الإسلامية التى كتبت بها سواء فى شمال أفريقيا أو فى أوربا.. وكانت الدافع بالنسبة لى من أجل إتقان هذه اللغة هو نقص العارفين بها آنذاك وإحساسى بأنها تخدم الدعوة الإسلامية.. وحين نعود من جديد للرد على سؤالك بخصوص تسجيل تجربتى فى السجن.. أقول لك إننى من كثرة مشاغلى فى مجال الدعوة

الإسلاميـة لم أفكر فى هذا الأمـر.. ولكننى وكما سبق أن قلت آنفا أنـه مشروع قادم إن شاء الله..

حتى المقالات لم أضمنها هذه التجربة من قريب أو بعيد.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هـذه أول مرة أتحدث فيهـا عن تجربتى فى السجن والاعتقال، وصـدقنى لم أتحدث عن هذه التجارب لأحـد غيرك من قبل، ولا أحب أن أصرح بها بعد ذلك.. ولكننى على ما أتذكر فى مرة من المرات قد ألفت فصلا فى أحد كتبى عن لغات أهل الإجرام الذين التقيت بهم داخل السجن ولكنه كتاب بشكل علمى.. سجلت من خلاله بعض الألفاظ التى كنت أسمعها من هؤلاء القوم الذين عاشرتهم طويلا خلف الجدران العالية..

***ولو قلنـا بالنسبة لرأى المفكـر الاستاذ الدكتور عبـد الصبـور لماذا يسجن المفكر؟..**

– لأن أخطر شىء على الطـاغية الدكتـاتور الذى لا يملك شيئـا سوى قوتـه بنفسه وبمن حوله.. وثانيا أنه يمتلىء خوفـا ورعبا ممن يملكون العقول.. عندئذ يصبح شغله الشاغل القضـاء على عقل الأمة ومفكـريها ولعلنا نميز هـذه الحقيقة فيما يخص عصر الرئيس السادات.. الـذى كان رحمة الله عليه عنـدما مات عبد الناصر قـد تولى السلطة بفكر آخـر.. حيث كان الوجـه الآخر من العملـة.. ففى مصر بعد الثورة ظهـرت العملة بـوجهيها الأول وجـه الدكتـاتور أيـام حكم عبد النـاصر.. والوجـه الثانى حين تـولى مسئولية الحكم الرئيس السادات وسعى بكل ما يملك من أجل مقـاومة فكر الدكتاتور والقضاء على زبانيته..

فجاء هـذا الوجه مقـاوما لهذا الفكر المتخلف.. وأنـا أقول لك بمنـاسبة الحديث عن الرئيس عبد الناصر أن كل الذين يدافعون عنه، انما يدافعون عن أنفسـهم لأنهم مدانون مثله فيما اقترفته أيـديهم حين ساد وجه الدكتاتـورية البغيض.. ولأنهم فى الحقيقة هم الذين صنعوا بداخله الدكتاتور بـاستخدامهم أساليب النفاق والنفعية.. ولو كان هناك فكر حر لما خلقوا بداخل هذا الرجل الدكتاتور الملعون.. بل ربما قد تحول إلى رجل مفكر وعادل وإنسـان يعمل لصالح شعبه ولصالح أمتـه.. لكن المشكلة أنه قد وجـد فى الفكر صعوبة.. وأفهموه أن الدكتاتورية أسـهل.. وانظر إلى الفرق بين الراعى الذى يتعامل مع قطيعه باللين والحسنى حتى يستطيع أن يتحكم فيما يرعاه..

أما الـدكتاتور الجزار.. فليس أمـامه سوى العقـاب حتى يرهب قطعـانه.. ويتغلب عليهم.. وأعتقد أن الفرق كبير وواضح.. وطبعا فى هذا الجو الإرهابى نجد الفكر يتراجع أو على الأقل يختفى لحظات.. ثم سرعان ما يعـود.. والدكتاتور يفهم ذلك جيدا.. ولهذا يبادر من تلقاء نفسـه من أجل القضـاء على هؤلاء المفكرين حتى لا يعـودوا من جديد.. ويكون رحيلهم بغير رجعة توجع قلبه وتسبب له المتاعب.. فالدكتاتور يحاول أن ينعم بحياته فى غياب هؤلاء المفكرين..

لذا عـادة ما يكون مصـيرهم القتل والاعتقـال والنفى وأشياء أخـرى كثيرة من هذا القبيل.. ولكن لله حكمة عظيمـة جدا.. فالله سبحانه وتعالى حين يجعـل للإنسان محنة يجعل له فى طيها منحة.. وأعطيك مثالا واحـدا أيام عبد الناصر.. حين قبضوا على المفكر والداعية الاسلامى سيد قطب.. كانت فرصة كى يستكمل دراسته الهامة التى صدرت فيما بعد تحت عنوان « فى ظلال القران» وبقى نشر الكتـاب.. فكان لابد وأن يسخر الله الطاغية كى يكون سبباً فى نشره.. فأخذوا الداعية سيد قطب وأعدموه.. فيتحرك تفسير سيد قطب من مصر إلى العالم كله..

وبالفعل قد تمت ترجمته الى كل اللغـات الأجنبية فى أوربا وفى العالم الإسلامى كله، ولينتشر سيد قطب فى آفاق العالم كله أكثر ممـا كان عليه وهو حي.. ودعنى أقول لك.. هل هذه من حسنات عبد الناصر؟..

إن عبد الناصر فعـلا له دور كبير فى نشر فكر سيد قطب وفكـر غيره من علماء الدين الاسلامى دون أن يدرى أو يتدخل..

***ما هى أهم اللقطـات الإنسـانية التى عـايشها مفكـرنـا الكبير الدكتـور عبد الصبـور شـاهين داخل السجن خـلال هـذه المرات الثـلاث.. ومـا هـى أهم الشخصيات التى تعرفتم عليها هناك؟..**

– أولا اللقطات الإنسانية كثيرة جدا أهمها أن السجن هو فى الحقيقة مطبخ يوحد بين المسجونين على اختلافهم.. وأذكر أنى كنت وأنـا فى سجن مصر أتعاطف مع الشيوعيين مع العلم الأكيد بأنهم أعداء الدين وأعداء الإنسانية..

وكان من أهـم أصدقائى فى السجن مثـلا الكاتب الكبير المرحـوم الدكتـور يوسف إدريس الـذى سجنت معه فى عـام ١٩٥٥ .. حيث كـان يعيش فى دور(٩) بسجن مصر

بالزنزانة رقم(٤) وأنا كنت فى دور عشرة وفى الزنزانة رقم ١٩ ٠ ٠ وكانت تقابل زنزانة يوسف إدريس.. وكنـا دائما نتبادل التحيـات ونتجالس سويـا حتى داخل الزنـزانة.. وكان معـه على ما أذكر طبيب يـدعى حمزة البسيونى.. ليس الجلاد اللـواء البسيونى قائد السجن الحربى.. بل طبيب يحمل نفس اسمه.. وقد استمرت علاقتنا متصلة حتى بعد الخروج من السجن.. وعلى ما أذكر أننى دعوته فى مرة من المرات فى عام ١٩٧٠كى يتحدث فى برنامج كنت أعده بالتليفزيون اسمه« ندوة العلماء» ..ولكن ظروفه الصحية لم تساعده على تلبية هذا الطلب.

لقد كان يوسف إدريس رجلا عاقلا.. ولم يكن شيوعيا.. بل هو فنان.. يبحث فى كل شىء مختلف فى الحياة.. ولذلك كنت على ثقة من إمكانية تقديم الدكتور يوسف إدريس كعالم إسـلامى يتحدث للنـاس فى ندوة العلماء.. كما أتـذكر ونحن نحضر سـويا لهذه اللقاءات أن الدكتور يوسف إدريس قـد اختار بعض الشخصيات المعروف عنها الميول الشيوعية.. وأكد أنهم فى أعماقهم علماء مسلمين وليس كما هو معروف عنهم.. وبالفعل تحول بعضهم الآن إلى دعاة للإسلام فى كل مكان..

وأذكـر أن أحدهم يـدعى الدكتـور عودة وهـو شقيق الأستاذ عبـد القادر الشهيـد الإسلامى العظيم.. وكذلك ذكر لى الأستاذ أنور عبد الملك من أجل استضافته فى برنامج ندوة العلماء.. وعـرفت من الدكتـور يوسف إدريس أنـه يتحدث عن الـدين الإسلامى بسماحـة العالم الجليل.. وعـرفت من الـدكتـور يوسف كـذلك أن معظم الشيـوعيين المصريين لم يكـونـوا كذلـك إلا من أجل الانتصار فى بعـض القضايـا.. وحين يبلغـون مأربهم يتراجعـون عن طـريق الشيـوعية فـورا.. وداخل السجن أيضـا تعـرفت على شخصية اقتصاديـة مصرية تتمتع بسمعة عـالية فى تخصصها.. إنه الاستـاذ الدكتور محمود أبو السعود.. ثم الدكتور توفيـق الشاوى الذى كان يعمل أستاذا للفقه الجنائى بالجامعة ولا يزال حيـا متعه الله بالصحة وطول العمر.. وكـانت طريقة التعارف فيما بيننا أنهما كانا يعرفان اللغة الفرنسية التى كنت أحبها فى ذلك الوقت.. وكان وضعهما فى السجن فى أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ متميـزا.. لذلك وجدت لديهما مجمـوعة كبيرة من الكتب الفرنسيـة والتى عن طريقهـا قويت هـذه اللغة.. واستطعت أيضـا من خلالهما الأطلاع على الفكـر العلمى الـذى كان يكتب أيضـا باللغة الفـرنسية فى مختلـف ألوان المعرفة وعلى وجه الخصوص علم النفس التحليلى لفرويد..

وهـذه المرحلة وكما سبق وأن ذكـرت لك قـد نفعتنى كثيرا حتى بعد خـروجى من السجن.. فقد تمكنت بهذه اللغة من العيش عن طريق ترجمة الكتب حين أعلنت الحكومة الحرب على العبد لله وطردته من كل الوظائف الحكومية.. وهؤلاء العلماء الذين ذكرت لك بعض أسمائهم قد دفعوننى إلى المزيد مـن الاطلاع والقراءة.. ورغم أن الكتب كانت فى هـذه الفترة وفى هذه الظـروف ممنـوعـة، إلا أننى كنت أحصل عليها مـن العساكـر بالرشوة.. وكنت على يقين أن عددا كبيرا من الضباط الذين كانوا يشرفون علينا داخل السجن كانوا يتعاطفون معنا كثيرا.. حتى مأمور السجن نفسه الذى مازلت أذكر اسمه إنه اللواء محمود صاحب الذى كان بداخله تعاطف غريب مع المفكرين المسجونين لديه فى سجن مصر..

وأنا أقول لك إن من بين الشخصيات العظيمة التى تعرفت عليها داخل هذه الجدران والذى تأثـرت به وبأفعـاله كثيرا.. فقـد حضر إلى فى يوم من أيـام العيد وأنـا مسجون انفراديا بسبب هتافى ضد عبد الناصر.. جاء إلى الزنزانة يحمل لى كعك العيد.. ثم مالبث أن أخرجنى كى أنضم الى زمـلائى فى الاحتفال بهذا اليوم العظيم.. وأخـذ يخطب فينا وقتها.. مبينا تعاطفـه معنا ويكفيه القول بأنه قد رحمنـا ورفض قتلنا مثلما كان يفعل غيره من ضباط السجن الآخرين لأننا فعلا كنا لديه داخل السجن بلا أسماء أو عناوين وحتى لو كنا قتلنا على حد قوله.. فلن يلومـه أحد.. فقد كانت هذه هى سنة السجون فى مصر آنذاك.. وأنا أذكر الكلمة التى قالها لى بالذات.. أنت هنا بدون إيصال.. ومن الممكن ألا ترجع إلى بيتك..

ومن غير المفكـرين.. أنـا لا أنسى الـولـد«بـورق» .. فقـد كـان مـدرسـة وحـده.. شهرته«بورق».. وكان مجرما متمرسـا.. تعرفت عليه حينما كان يأتى إلى زنزانتنا من أجل تنظيفها.. وقد قدم لى خدمات عديدة منها توصيل الرسائل إلى الأهل حين زيارتنا.. بل وتوصيل الرسائل عبر بعض العساكر إلى المنازل فى مقابل أجر ثابت.. بأمانة لقد كنا نعيش مع هؤلاء فى أمان نـوعا ما.. وقد لعب الأخ بـورق دورا عظيما فى هذا الشأن هذه الشخصية تعرفت عليها عام ١٩٥٦.. فقد كان مجرما ممارسا عاماً وليس متخصصا.. وكانت لديه آلاف الألفاظ والمصطلحـات الخاصة بعالم السرقة والإجرام.. وكم تعلمت منـه الكثير من هذه المصطلحـات.. تلك التى استفدت منهـا كثيرا فى كتابى عن«اللغـات الخاصة»..

فقـد خصصت لتلك المصطلحات فصـلا كـاملاً ف هـذا الكتـاب بعنوان« علم اللغـة العام».. وكان أيضـا له الفضل فى أن يكون لنا نحن المعتقلين السيـاسيين من المفكرين لغة خاصة.. فعلى سبيل المثال كلمة«خشب» كانت تعنى الضابط.. أما العسكرى فكانت إشارتـه الحذاء.. وهكذا.. أكثـر من ذلك عرفت بعض المصطلحـات الخاصة بـه وبعالم السرقة مثل كلمة«ذهوب» كانت تعنى الجنيه.. وهكذا..

***ما هو تصـور الدكتور عبد الصبـور شاهين للطريق الأمثل نحـومعالجة الرأى الآخر أو الرأى المعارض للحكومة أو للحاكم؟ غير عقوبة السجن؟..**

– يجب أولا أن يكون لدى الحاكم استعداد للفهم.. وليسمع وجهات النظر المختلفة.. لأن الحاكم من وجهة نظرى هو مملوك للجماهير وللشعـب وللرعية.. فلابد أن يستمع إليها.. مـؤيدين ومعـارضين.. فى ظل إيمانه بـالحرية للجميع.. لأن الإنسـان يمكن أن يصبر على الجوع والعطش ولا يصبر أبـدا على سلب الحرية.. ولـذلك فإن أكبر جريمـة يرتكبهـا الحاكم أن يصادر حـرية الناس من منطلـق أن رأى الحاكم لا يمكن أن يكون صادقا أو صائبا على طول الخط.. وكذلك المؤيدين له.. وأيضا المعارضين..

والمصيبـة أن تغيب هذه الحقيقـة عن الـواقع.. ويحاول كل من يتصل بـالحاكم أن يشبع بداخله شهوة الانفراد المصحوبة بالرأى الصائب.. دون الالتفات لرأى الآخرين.. ودعنى أذكر لك مثـالا من تاريخنا المعـاصر.. فالرئيس السادات حينما جـاء بعد فترة حكم طويلة من الـدكتاتورية، كـان يحكم عقله وثقافته وكـان يستمع لرأى الآخرين.. ولذلك نجده قد احترم المفكر والمفكـرين وقربهم إليه.. وحينما غدر عليهم.. وضعهم فى السجون.. وضع نهايته بيده.. وعجل بهذه النهاية لأنه تخاصم مع الفكر والمفكرين.

إن هـاتين المرحلتين مختلفتان فى عهـد الـرئيس الســادات ولعلنى أذكر أيضـا فيما يخصنى بعـلاقتى بالـرئيس الســادات أنه فى فترة مـن الفترات السابقـة التى ارتبطت ببداية حكمه.. كنت دائما أخطب فى أحد المساجد.. ولا أمل أبدا من توجيه الانتقاد لبعض سياستـه.. وأقولها كلمة حق وشهـادة لله فى حق هـذا الرجل.. لم يصبنى أى شىء أو سوء من جـراء هذا النقـد مهما كانت قسـوته حتى أصر السـادات نفسه أن يحضر لى إحدى هذه الخطب التى كنت ألقيها قبل صلاة الجمعة..

والحقيقـةأننى فوجئت يـومها بحضـوره إلى المسجد.. ولم أغير من خطتى فى نقـد

سياسته.. ورغم أنه غضب مني.. إلا أن هذا الغضب لم يوصلنى إلى السجن مثلما حدث أيام سلفه الرئيس عبد الناصر.. ولعلنى أذكر أن أهم نقاط الخلاف التى أكدت عليها أيام الرئيس السادات قوله دائما.. اننا نطلب السلام من موقع القوة.. فكنت دائما أرد عليه علانية بأننا لابد وأن نطلب السلام من موقع الضعف كما أمرنا بذلك رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.. وأعود وأكرر أننى رغم ذلك لم أؤكد لك أن الرئيس السادات قد أخطأ فى حق نفسه وفى حق المفكرين باعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. وأنا أعتقد أنه شخصيا قد اتخذ هذه القرارات ضد رغبته.. فلم يكن قراره من داخله.. بل كان قرارا نابعا من داخل نفس زوجته..

إننى مازلت أعتقد ذلك، فهى التى قادته إلى هذا الفعل لأنه كان أنزه من أن يتخذ مثل هذا القرار.. عارف لماذا؟ لأنه أى الرئيس السادات قد ذاق مرارة السجن.. ويعلم أن السجن لا يمكن أن يؤدب مفكرا.. أو يجعله يتراجع عما يعتنقه.. ولا أنسى أن أقول لك إننى من هؤلاء الذين فشل السجن فى انتزاع ما بداخلهم من أفكار..

وبالمناسبة أرجوك أن تسجل عنى هذه الكلمات.. إننا الآن ننعم بقدر كبير من الحرية والاستقرار.. وأؤكد أن ما أقوله الآن وكل أسبوع فى جامع عمرو بن العاص.. لو كنت أقول عشر معشاره أيام عبد الناصر لطارت رقبتى.. وهذه شهادة منى بذلك.. إن هذه الحرية التى نعيشها الآن.. هى استمرار لجو الحرية الذى عشناه فى السنوات الأولى لحكم الرئيس السادات.. ولولا اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. لكنا قد سجلنا تاريخا مصريا عريقا على طريق الحرية.. ولكن والحمد لله نحن مستمرون فى الطريق وندعو الله أن نصل الى آخره حيث تسود الحرية أكثر وأكثر..

*** لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع الرئيس أو رئيس الحكومة دائما فى دول العالم الثالث؟..**

– لأن الحكم والسلطة فى هذا العالم الثالث مسخرة وموجهة لخدمة شخص واحد فقط هو رئيس الدولة.. فأمنه هو أمن الدولة.. وفزعه هو فزع الدولة.. ولعلك تذكر الآن أن كثيرين قد كتبوا ومازالوا يكتبون هذه الأيام أن أجهزة الأمن فى الدولة قد انصرفت للحفاظ على الأمن السياسى وتركت الأمن الاجتماعى.. وهذا فى تصورى صحيح.. ويرجع الى أصل الموضوعات كأسباب لأخطر مشاكلنا الاجتماعية التى

نعانى منها هذه الأيام.. إن الاهتمام بالأمن السياسى حقيقة قد جعل الأجهزة تتصرف كلية إلى الأمن الاجتماعى..

وفى واقع الأمر أنه حين تسود الديمقراطية فى أى بلد من بلدان هذا العالم.. فعلا لن يكون هناك اعتقال لمفكر سواء بتوقيع رئيس الدولة أو بتوقيع غيره.. مادام هذا الفكر لا يحمل إرهابا أو تدميرا لصالح المجموع والمجتمع.. واننى على يقين أننا هنا فى مصر من بين دول العالم الثالث المؤهلين فى الواقع لحمل مشاعل الحرية والديمقراطية.. لأننا نعبد الحرية ونقدسها ونحترم الحاكم الذى يقدمها لنا مادامت فى حدود الشريعة وخدمة المجتمع.

وفى ظل هذا الحوار دعنى أقول لك إننى أرى ضرورة إلغاء حالة الطوارىء الآن.. لأن مثل هذه القوانين الاستثنائية تبث الرعب فى قلب الحاكم أكثر من الرعية ولعلك هنا تتعجب.. ودعنى أحكى لك حكاية من واقع ذكر قانون الطوارىء.. وقد عرفتها داخل السجن..

لقد كنا نسمع داخل جدران السجن أن الحالة الآن(ج).. ولن تنزل إلى الحالة (ب).. لأن ضباط السجن كانوا يستفيدون ماديا من الحالة الأولى.. من أجل ذلك كانت حالة الطوارىء تستمر مفروضة علينا داخل السجن لا لشىء إلا من أجل زيادة مرتبات وبدلات القائمين على السجن.. وأنا اعتقد أن مثل هذه الأمور كانت صميمة الى حد بعيد فى عهد الرئيس عبد الناصر..

*** وهل ترون أن يكون للمفكر سجنا خاصا به أم يزج به وسط بقية المجرمين؟..**

- بالنسبة لى ولفكرى.. أنا أرى أن العمل بالشريعة الإسلامية لن يبقى على وجود السجون إطلاقا.. لأن الحدود والتقارير تحسم القضايا.. وأنا أتصور أن هذه السجون والمعتقلات من سيئات القوانين الوضعية..

وعلى شماعة هذه السجون يعلق فشل القانون الوضعى فى معالجة الجريمة، أو فى توفير الأمن أو فى حماية الحرية.. إذن لابد من الواجب أن نفرق بين الفكر وبين أنواع الجرائم الأخرى.. ومما يزرى السلطة ويدينها.. أن تضع مثل المفكرين مشاعل الثقافة والرأى مع غيرهم من القتلة والمجرمين.

لابد من الفصل بين الإثنين.. وإن كان من الضرورى قيـام مثل هذا الاختلاط.. فأنا أرى من الضرورى أن يعين المفكر داخل السجن حتى وهو سجين فى وظيفة معلم لغيره من المجرمين.. وعلى ذلك يكـون له احترامه ويمارس فكره داخل السجن.. لأنـه سوف يمارس هذا الفكر شـاءت السلطة أم أبت.. وكل ما هنالك أنـه فى مثل هذه الحالات.. يتم التنبيه على المفكر أنـه سوف يتم حجب فكره عن العامـة أى عموم الشعب والجماهير.. ومن حقه ممارسة هذا الفكر داخل السجـن.. ويمكن له أن يوظف فكره هذا فى إصلاح أحوال بقيـة المسجونين على ذمـة قضايـا الإجرام المختلفـة وقد يكـون ذلك نوعـا من الإنسانية..

***وما رأيكم فى سجون مصر الآن؟**

– لدينـا نوعـان من السجون.. نـوع يتسم بالأشغـال الشاقـة وهى أمور تمارس خـلالها حـرف وهى فى الـواقع أشياء عمليـة.. ولكن هنـاك أنـواع من السجـون ربما خصصت لبعض المدللين.. مثل المضبوطين فى قضايـا أخلاقية أو إلى آخره أو المدمنين.. وكلها أمور تدخل فى إطار التخبط لأن السجن لابد وأن يكون فقط سلب لحرية الإنسان لفترة محددة.. وأن يمارس خلالها إنسانيتـه وحياته.. بعيدا عن التعـذيب والإهانات.. لأن السجن إذا أراد أن يصلح مجرما.. فلـن يصلحه إلا بالتكـريم وبالتربيـة الصالحة داخل السجن وإشعاره بالتأنيب.. ولابد أن يفهم السجين أنه رغم خطئه ضد المجتمع.. فالمجتمع يعاملـه بخلاف الجرم الذى ارتكبه.. هـذا من ناحية السجن كعقوبـة.. أما أنا فأساساً أرفض حتى وجود عقوبة السجن من وجهة النظر الاسلامية.. لأن السجن فى ظل التشريع الاسلامى لا وجود له إلا على سبيل الحجز فى انتظار الحسم وفقا للشريعة الاسلاميـة.. وليس للعقـوبة طويلـة المدى.. فإن أقصى عقـوبة معترف بها شرعـا هو تغريب عام بعد مائة جلدة.

ولا تخص هذه العقـوبة القتلة فإن من يقتل لابـد وأن يقتل، لأن الحدود فى الإسلام أسـاسها صـلاح حـالة الـرعيـة.. والهدف منها الـردع وليس التشـويه وأيضـا لمنع الجريمة.. وهنا دعنى أحدثك عن ضرورة وجود المجتمع الإسلامى الصحيح القائم على أسس صحيحة، منها التربية السليمة التى يكـون أهم رسالتها خلق إنسان مسلم يبتعد كلما استطاع عن اتكـاب الجريمة.. وفى ظل أوضـاع السجون الآن لا أجد غضـاضة فى

القول بأنها تساعد على إفراز الجرائم أكثر من كونها أداة إصلاح.. وأنها بالفعل من وجهة نظرى مدرسة تخرج المجرمين أكثر إجراما وأكثر تخصصا..

فالمجرم سارق الفراخ يخرج منه أكثر خبرة فيتحول إلى سارق الشقق أو سارق بنوك.. إنه مدرسة حقيقية تخرج مجرمين متمرسين فى الإجرام..

وذلك عكس ما نتمناه وننشده.. لأن السجن معناه ردع المجرم وتخويفه حتى لا يرتكب الجريمة مرة أخرى.. وهذا للأسف مالا يحدث فى سجوننا الآن.. وهذا التصور ليس بعيدا عن الواقع والممارسة.. بل أقول لك أكثر من ذلك.. إننى عرفت أوضاع هذه السجون قبل دخلوها.. من قراءاتى لمذكرات صول فى البوليس يعمل سجانا.. وكنت وقتها طالباً بالثانوية.. وجاء لى بهذه المذكرات من أجل أن أصححها له لغويا قبل طبعها.. وعرفت منها أن السجن باعترافات هذا الرجل هى بحق بؤرة فساد قذرة وعالم رهيب. وما شاهدته خلال رحلتى عبر السجون فى المرات الثلاث أكد لى ما قرأته وربما أكثر.. ودعنى أؤكد لك أن الأمن الذى يختل فى الشوارع فى المنازل وفى الأتوبيسات مصدره الحقيقى أصحاب السوابق الذين حولهم السجن إلى مجرمين متمرسين.. وتقدر تقول إنهم من نتاج صورة السجون السيئة وأوضاعها التى هى فى حاجة إلى مزيد من الرعاية والإصلاح..

وماذا لو كان الدكتور عبد الصبور شاهين مأموراً للسجن؟

– أنا.. أنا كنت حولت السجن إلى جامعة.. والمسجونين إلى تلاميذ.. وأضع بين يدى كل منهم أستاذا فى علم النفس كى يسجل لهم تقدمهم على طريق الصلاح والتوبة.. وهجران الجريمة إلى الأبد..

*** وأخيرا ماذا لو كان الأستاذ الدكتور عبد الصبور رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليه كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم ماذا كان يفعل؟**

– عارف أقوم باستعراض أسماء هذا الكشف وأطلب فورا منح كل منهم وساما من الدرجة الأولى..

الحكاية الرابعة يرويها الدكتور ميلاد حنا:

دخلت السجن أستاذاً جامعياً
وخرجت منه.. سياسيا ومفكراً

لا شك أن الحياة داخل المعتقلات حافلة وغريبة، ومليئة بالأعاجيب ورغم ما كتب عنها إلا أن المكتبة المصرية مازالت بحاجة إلى رؤى جديدة من خبرات مختلفة لما جري فى سبتمبر الغاضب .. ولأن سبتمبر هذا هو خبرتى الأولى فى الاعتقال أرجو أن تكون الأخيرة بحكم السن.. والموقع والتاريخ.. وقد تصادف أن كنت من ثمرات القطفة الأولى للمعتقلين، وتصادف أيضاً أن كنت من المجموعة الأولى التي تم الإفراج عنها كى تنتقل من زنازينها إلى قصر رئيس الجمهورية مباشرة.. وبين تاريخ اعتقالى وتاريخ الإفراج فى قصر الرئاسة تدفقت فى النهر مياه كثيرة تروى حكايات بالغة العمق والدلالة..

هكذا بدأت كلمات الدكتور ميلاد حنا تنساب منذ اللحظة الأولى لإدارتى لشريط التسجيل الذى حمل إلينا نص هذا الحوار.. وكثيراً ما توقفت عند كلماته قبل التسجيل وبعده.. مثلا عند قوله: «أمضيت تسعة أسابيع مع الأساقفة والكهنة المسيحيين، فكان احتكاكا جديداً بالنسبة لى، إذ أن اعتقال وسجن رجال الدين المسيحي فى مصر غير مسبوق فى تاريخها المكتوب، وعندما ما أعلنت احتجاجي على ذلك لما يمثله من شرخ فى جدار الوحدة الوطنية تم نقلى إلى سجن آخر مع السياسيين.. فكان احتكاكا أكثر حدة وأكثر طرافة..

مثل هذه العبارات والجمل التى كان يخرجها الدكتور ميلاد حنا أستاذ الهندسة والسياسى الشهير، كانت تحمل فى كل كلمة يقولها معنى المصيرية والحب المتأصل فى دماء هؤلاء المصريين الذين يعشقون تلك الأرض الطيبة بصرف النظر عن الدين.. وحين تراه وهو يحكى ويقول لك لابد وأن تتوقف وتستمع حتى تستفيد.. وتعرف لأن حبه للحياة العملية والعلمية لم يجعله ينفصل عن حبه الأول للعمل السياسى من أجل مستقبل جديد.

وها نحن نتوقف مرة أخرى أمام كلماته قبل أن يدور بنا شريط التسجيل.. وتراه

يحدثك بصوت العـالم الواثق من كل معلومـاته وأحاديثه.. وهـو فى كل ما كان يـرويه صادق إلى حد بعيد.. ولقد شغله العمل السياسى كثيرا حتى وهو فى منصبه الجامعى.. ففى علم ١٩٦٩ على سبيل المثال كـان نشاطه السيـاسى قد اتخذ أشكالاً واضحـة مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض عليه.. بل وطلب فصله من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعه تحت الحراسة.. ولكن ذلك لم يحدث لأسباب سوف نحكيها فيما بعد.

المهم دخل الدكتور ميلاد حنا المعتقل... وأول شىء صادفه ذلك الموقف الذى يحيكه بقوله: عنـدما انتهى الضابط من تسجيل مضبوطـات الكاهن فى محضر رسمي وطلب منه التنحي جانبا على أن يظل واقفا... سأل الضابط.. هل هناك معتقل ثان.. قلت نعم .. أنا ذلك الثانى واسمى ميلاد حنا..

***

وحين يدور شريط التسجيل.. ونبدأ فى سماع كلمات هـذا الحوار بأسئلته التقليدية يخرج علينا صوت الدكتـور ميلاد حنا وهو يحكى الذكريـات وكأنما يعزف على أوتار أحباله الصـوتية.. وبدون الدخول فى تفـاصيل ذكر الأسئلة وإجابتهـا.. علينا من هذه اللحظة الإنصات جيدا من أجل تتبع واع لما سوف يرويه لنا هذا المفكر عن تأثير تجربة السجن والاعتقال فى حياته..

وقبل أن يظهر صوت الضيف عبر جهاز التسجيل سبقته كلمات كاتب هذه السطور مقدما إياه بعبـارات الود والتحية... مثل قوله: بسم الله الـرحمن الرحيم إننى فى غاية السعادة لإجراء مثل هـذا الحوار مع أحد المفكرين المصريين الذين لم يبخلـوا ولو بحبة عـرق من أجل مصر.. سواء فى الجامعـة أو فى ميـدان العمل السياسى والعمل العـام.. وأستاذنـا الدكتـور ميلاد حنـا هو من المفكـرين الذين أعطـوا ولا يزالـون يعطون من فكرهم لتـلاميذهم فى كل مكـان. والذين وقع عليهم الاختيـار ضمن المفكرين المصريين الذين ذاقوا مـرارة السجن والاعتقال رغما عنهم أو بارادتهم.. وهذا ما سـوف نعرفه بعد لحظـات وهذا حـوار سيكون الأستـاذ الدكتـور ميلاد حنـا ضيفاً فيه مـن خلال مجمـوعة مـن الأسئلة.. وتـدور جميعـا حـول مفهوم الفكـر وارتبـاطـه بالقضبـان والسجون.. فـأهلا بك معنـا ومع هذه الكلمات كى تبعـدنا بأصـول هذه التجربـة مع اعتقادنا بأنها تجربة مريـرةوأليمة.. من منطلق أن مرارة جيل المفكرين الحاليين.. هي خير المصابيح التي تنير للأجيال القادمة طريـق الفكر وتكون دافعا قويا من أجل المزيد

من حرية الرأى..

وبعد عبارات الترحيب التقليدية.. بدأ الدكتور ميلاد حنا ذكرياته بقوله: أنا سوف أحكى لك بدون قلق.. وبداية أقول لك: لكل مرحلة تاريخية سمة من سمات النضال والكفاح.. فأنت ترى فى سابق الأزمات الخصوم السياسيين كانوا لابد وأن يختفوا.. وبطرق مختلفة ومتنوعة.. مثلا كانوا يوضعون فوق خازوق ثم يوضعون فى الزيت ثم يصلون إلى مرحلة العدم.. ولا يعرف عنهم أحد أى شيء ولا أى مصير.. ولكن فى زمن الحضارة وظهور الاستعمار اتجه الفكر الاستعمارى لانجلترا إلى النفى.. وتستطيع أن تقول إنها كانت مرحلة ثانية أو مرحلة أرقى من سابقتها..

وعرفت مصر الصراع السياسى آنذاك ضد الاحتلال البريطاني.. وكان مصير هؤاء المفكرين الوطنيين هو النفي إلى المستعمرات البريطانية فى دول وقارات أخرى مثل مالطة وسيشيل وما شابه ذلك.. أما فى خارج مصر.. فقد نفوا نابليون إلى أن مات فى نفيه. أما في العصور الحديثة ماذا يستطيع الحاكم أى حاكم فى ظل دولة مستقلة أن يقاوم خصومه السياسيين والمفكرين.. وهذا الحدث ينقلنا إلى المرحلة الوطنية التى مرت بها مصر بعد حصولها على الاستقلال يعنى تقدر تقول الكلام القادم نخص به مصر فقط التي شهدت فى المرحلة التي تلت الاستقلال اختفاء صفة نفى هؤلاء الخصوم.. ومن ثم الجديد هو لجوء الحكام الى فكرة بديلة.. وهى الاعتقال.. أو السجن أو أسماء مختلفة.. وأنا أذكر لك بالنسبة لحالتى.. كان الإسم الرسمى لاعتقالي هو «التحفظ عليه».. وطبعا كان ذلك هو الاسم المستتر للسجن أو للاعتقال.. إذن أنت منذ هذه اللحظة أمام ظواهر جديدة ومختلفة.. ولو عدنا إلى تأصيل هذه الإجراءات وفقا لمفهوم اللغة العربية نجد أن ما تسميه أنت الاعتقال وما أسميه أنا التحفظ يعنى لغويا «التوقيف».. أى إيقاف هذا الإنسان عن الحياة.. وهذا الوصف ينطبق تماما على اعتقال الرئيس محمد نجيب.. الذى تم اعتقاله فى مكانه.. فى بيته.. أى تحديد إقامته..إذن تجد أنك أمام مفاهيم مختلفة لهذا الفصل فى العصر الحديث..

جانب آخر من جوانب اختلاف المفاهيم هو التعذيب فتجد التعذيب أيضا يختلف من مكان إلى مكان.. بالنسبة للمعارضة الوطنية.. وأصحاب الفكر الذين هم فى صدام سلمى مع الحكومة..

وأحب أن أؤكد لك أنه رغم ما سوف أحكيه من تجاوزات ارتبطت بمفهوم السجن أو الاعتقال فإن مصر العظيمة وخاصة فى العصر الحديث.. لم يسمح أى حاكم أن يقتل معارضاً له.. مهما وصلت هذه المعارضة إلى الخصومة..

والصراع العلنى يعكس ما كان يحدث ولايزال فى بعض الدول العربية وعلى سبيل المثال فى دولة مثل العراق.. هناك لا يعترفون بهذه الخصومات وبالتالى تجد المصير معروفاً وهو التصفية الجسدية المستمرة لأولئك المعارضين وأصحاب الفكر الحر.. وبصرف النظر داخل هذا البلد عن اسم الحاكم أو شخصه.. إنه هناك يعتبر اتجاهاً عاماً وسياسة معلنة.. ولعلك سمعت مثلى عما يحدث فى بعض الدول العربية التى تستعين بقواتها الجوية من أجل تصفية المعارضين..

ودافعى الحقيقى لاستعراض هذا الأمر فى عمومياته.. حتي يكون أمام الشباب بانورما لما يمكن أن يحدث تحت مسمى الاعتقال أو التصفية الجسدية .. أو تحديد الإقامة.. أو التحفظ.. أو أى مصطلح من هذه المصطلحات التى اخترعت من أجل معاقبة المفكرين والخصوم السياسيين..

ودعنى أقول لك وبشكل عام.. إن أنواع القضبان.. مختلفة وإنّ معاملة الخصوم السياسيين والمفكرين وأصحاب الرأى المخالف.. كانوا يعاملون بشكل أكثر حتراما أيام الاحتلال الانجليزى عما كان عليه أيام ثورة ٢٣ يوليو.. بصرف النظر عن التسميات التى أطلقناها علي تلك الفترة.. ولا دخل لى بأن ذلك كان استعمارا أو غير استعمار.. المهم شكل المعاملة التى يلقاها هؤلاء المفكرين.. وكان ذلك يحدث من منطلق أنّ العادات والتقاليد السياسية الانجليزية لم تكن تسمح حتى داخل انجلترا نفسها بمعاملة المعارض أو الخصم أو المفكر الذى يقف فى صف المعارضة معاملة سيئة .. لقد كانوا يعاملونهم معاملة حضارية راقية.. ويكفى أن أقول لك وأصف سجن الأجانب والمعاملة الحضارية التى كانوا يعاملون بها المسجون السياسى بداخله..

***

*** بعد هذا السرد التاريخى.. نريد أن نعرف من الدكتور ميلاد حنا.. كم مرة دخل فيها السجن.. بمفاهيمه المختلفة؟..**

ملحوظة: ربما لاحظ القارىء أننى منذ البداية قد اخترت أن يقول لنا هذه المعلومة

الدكتور ميلاد حنا ونقلها بحروفها كاملة من الكتاب الوحيد الذى سجل فيه مذكراته عن السجن بعد خروجه بست سنوات.. ومع ذلك تعمدت أن أكرر السؤال.. وأن يجيب عليه الدكتور ميلاد حنا.. لإحساسى بأنه يمكن أن يضيف الشىء الجديد.. ولسوف نرى بعد ذلك بلحظات من كتابة هذه الكلمة.. وفى رده قال لى:

– لابد لى أن أقول لك خلفية تاريخية.. أنا تربيتى الإنسانية يسارى.. ومن ثم فقد كنت جزءاً من الحركة الوطنية اليسارية ورغم ذلك لم أكن منضما إلى أية منظمة يسارية آنذاك وكنت متعاطفا مع بعضها ومتبرعا لبعضها بالمال.. وتقدر تقول ده كان سنوات ٤٣، ٤٤، ١٩٤٥، ١٩٤٦ ثم كنت جزءاً من حركة الطلبة والعمال.. فى نفس التيار اليسارى فى ذلك الوقت وذلك لأن أى مفكر أو سياسى لا يبدأ من فراغ.. وفى هذه الفترة تعرفت على العديد من أعضاء الحركة الوطنية اليسارية فى ذلك الوقت مثل خالد محيى الدين وآخرين.

ثم ذهبت إلى جامعة الاسكندرية وعينت بها معيدا بقسم الهندسة عام ١٩٤٥ وكانت الحركة اليسارية فى ذلك الوقت على أشدها وفى ازدهار.. وفى هذه الفترة تعرفت على عزيز فهمى الذى كان يمثل ما يسمى بالطليعة الوفدية وكنت جزءا من هذه الطليعة.. حتى سافرت إلى بريطانيا.. وهناك كنت عضوا فى اللجنة الوطنية للطلبة المصريين، ثم انتخبت عضوا فى مجلس إدارة نادى الطلبة المصريين عام ١٩٥٣.. وهناك وبعد معرفتنا بأحداث الثورة كنت أحد الذين طالبوا بعودة الجيش إلى ثكانته بعد نجاحه فى القيام بثورة ٢٣ يوليو وأخذت موقفاً عنيداً جداً ضد عبد الناصر من منطلق أننا لابد وأن نبعد عن حكم العسكريين.. وتوقع الكثير من زملائى أننى حين أصل إلى مصر سوف يتم اعتقالى فوراً وفقا لهذا الموقف..

أما الذى حدث أن الله قد سلم ورجعت إلى مصر من جديد واستلمت عملى بالجامعة فى هندسة عين شمس منذ عام ١٩٥٤ وحتى هذه اللحظة.. وظللت كذلك أستاذا جامعيا.. وبعدت بعض الشىء عن مجال الحركة السياسية المصرية آنذاك.. لأننى عرفت أن عبد الناصر قد أمم العمل السياسى.. ومن ثم اتجهت إلى الفكر السياسى أكتب عنه وأمارسه..وفى عام ١٩٥٩ على ما أذكر أن كل زملائى من رفاق العمل السياسى اليسارى قد تم اعتقالهم جميعا وكان على قمتهم الدكتور عبد العظيم أنيس.

وفى عام ١٩٦٠ جاء عبد الناصر بحركة التاميمات التى نالت إعجابى الشخصى..

مما جعلنى أشعر أن عبد الناصر قد تجاوز فكره العسكرى.. وهو يحاول أن ينقل مصر إلى المعسكر الاشتراكى وفقا لمبادىء اليساريين.. ومن ثم تمت اتصالات بينى وبين الثورة، وعلى أثره دخلت الاتحاد الاشتراكى وكنت عضوا نشطا فيه.. إلى الدرجة التى كنت وقتها مرشحا وزيرا للإسكان.. وكان ذلك عام ١٩٦٣.. ولكنه لم يحدث لاعتراضى على وجود كافة الشيوعيين المصريين آنذاك فى السجن.

وبعد هذا السرد التاريخى الذى أميل إليه كثيرا.. أستطيع أن أقول لك إن أول مرة أدخل فيها السجن معتقلا فكريا وسياسيا كانت عام ١٩٨١ ضمن اعتقالات سبتمبر الشهيرة.. ومع ذلك تستطيع أن تقول إننى قبل هذا التاريخ كنت مؤهلا لدخول السجن فى أى لحظة.. وعلى ما أذكر كان ذلك عام ١٩٦٨ حينما قدت الطلبة بالجامعة وأنا أعمل أستاذا بها كزعيم لهم.. ووقتها أشيع أننى قد اعتقلت بالفعل.. ولكن ذلك لم يحدث.

ومرة أخرى عام ١٩٦٩.. كان نشاطى السياسى فى ازدياد مستمر ويميل بدرجة ٩٠ درجة ناحية تزعم مطالب الطلبة آنذاك.. مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض على وفصلى من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعى تحت الحراسة.. وما أن اقترب القرار من دائرة التنفيذ حتى تمكن أحد أصدقائى من ترتيب لقاء بينى وبين شعراوى جمعة وزير الداخلية آنذاك.. وبدلا من فصلى أو وضعى تحت الحراسة تصادقنا.. وأصبحنا نلتقى كثيرا لا لمناقشة أحداث الجامعة بل لمناقشة كل ما كان يدور حولنا فى المجتمع.

***

وحين أعود لأحدثك عن ظروف اعتقالى عام ١٩٨١ كأول وآخر مرة، أقول لك إننى دخلت تجربة الاعتقال تحت مظلة.. وعبر تاريخ سياسى طويل اهتم بثلاث قضايا هى بالترتيب: قضية إسكان الفقراء فى مصر.. وهذه مشكلة اجتماعية لم تسبب لى أى مشاكل على الإطلاق.. بل أعطتنى رصيدا كبيرا من الحب.. والقضية الثانية: قضية الديمقراطية فى مصر.. وقد أوجدت لى متاعب كثيرة مع عبد الناصر ومع غيره.. ولا أقصد بها الرأى والرأى الآخر لأننى أعتبر هذه العبارة هى تسطيح لمفهوم الديمقراطية وذلك من منطلق إيماني أن الديمقراطية هي نظام متكامل يسير بالية منتظمة.. وما الرأى الآخر إلا مناظرة تتم تحت مظلة الديقراطية.. بمفهومها الواسع.. لأن الخلاف فى الرأى يتم أيضا ضمن أعتى الأنظمة الديكتاتورية.

إن مفهوم الديمقراطية فى خيالى هو نظام شـامل ومتكامل يدور بآلية منتظمة نابعة من المجتمع وأفراده ووعيه.. وفى مفهومها العميق مـا يسمح بتداول السلطة وفقا لرأى الجماهير.. هذه القضيـة الثانيـة التى أحدثك عنها وأعنى بها قضيـة الديمقـراطية هى شـاغلى الشاغل الآن.. وفى المستقبل كما كـانت فى الماضى.. تلك القضيـة التى سببت لى العديد من المشاكل مع نظام الرئيس عبـد الناصر ونظام الرئيس السادات.. أما القضية الثالثة والتى أزعم أننى قد اعتقلت بسببها.. هى قضيـة الوحدة الوطنية.. التى أعتبرها إحدى ركائز المجتمع المصرى فى كل العصور.. وهذه الألفة بين المسلمين والأقباط التى عشتها فى حياتى المبكرة منذ أن كان والدى عضـوا بارزا فى حزب الوفد الذى كان يمثل عنصرى الأمة ووحدة الهلال مع الصليب.

ومع نهاية العهد الملكى.. ووصول أيام الثورة وعبد الناصر.. تلك الأيام التى لم تثر فيها مثل هذه القضيـة، ولم نشاهد أية مشـاكل بين المسلمين والأقباط فى ذلك الوقت.. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب مثـلا أولها يرجع إلى امتداد تأثير أفكار الوفد الـذى استمـد وجـوده من عنصرى الأمة.. وثـانيـا: قيـام عبـد النـاصر بتأميم العمل السياسى الوطنى لكل المصريين سـواء المسلمين أو المسيحيين.. فلم يكن يسمح لتحرك سياسى على أعلى مستـوى من هذه المستويـات.. واستمر هذا الـوضـع الهادىء داخليا مستمرا فيما يخص الـوحدة الوطنية المصريـة أعوام ٧٣ و٧٤ و١٩٧٥.. وعندمـا جاء الرئيس السادات إلى الحكم ودفع بالجماعات الإسلامية إلى الساحة السياسية.. وظلت الصراعات الطـائفية تستشرى فى مصر منذ حـريق كنيسة الخانكـة عام ١٩٧٢.. حتى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١.

والذى حدث بـالنسبة لى تحديدا.. أن هذا الموضـوع قد أثارنى، وأحسست أن مصر على حافـة الهاوية من نـاحية الشرخ الطـائفى بين الأقباط والمسلمين.. وهـذا الأمر من أساســه مرفوض لأننـا قد نختلف سيـاسيا أو اقتصـاديـا.. أما الاختلاف حـول المبدأ الطـائفى فكـان من الممكن أن يحول مصر إلى لبنان أخـرى.. وذروة الأحـداث فى رأيى كانت عندما أعلن الرئيس الساسات فى عام ١٩٨٠ أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة.. هذا الموضوع أثارنى إثارة شديدة للدرجة التى جعلتنى أقرر النزول إلى الشارع السياسى والشـارع الفكرى فى مصر من أجل إيقـاف هـذا الشرخ الذى ربما يتسع فى لحظـة من اللحظات.. ويأخذ فى طريقه الأخضر واليابس.

وكانت الاستجابة خرافية من جانب عنصرى الأمة حيث لم يوافق الأغلبية منهم على مثل هـذا الموقف.. بـاعتبـار أن مصر للجميع.. ولا فـرق بين مسلم وقبطى مـا دامـوا يشربون من مـاء النيل.. ويعملون من أجل صالح مصر داخليـا وخارجيا.. وقـد برهن المسلمـون المصريون أن الأقبـاط المصريين هم جـزء من هـذا المجتمع ومن أساسيـات وجوده.. وفى وسط هذا المجهود الذى كنت أبـذله من أجل الحفاظ على مجتمعنا المصرى بعنصريه.. كنت لا أمل من ترديد عبارة وصلت وقتهـا إلى السادات.. أقول فيها: سيدى الرئيس أنت لست رئيسا لدولة مسلمة.. بل رئيس مصرى لدولة مصرية.. ثم تصادف وقتها بجانب ذلك أن جمعت مادة علمية بسيطـة وبسرعة طبعتها فى كتاب صدر وقتها تحت عنوان «نعم أقبـاط.. ولكن مصريون».. وقـد تصور الـرئيس السادات أننى بهذا الكتاب أرد على ما جاء فى خطابه السياسى الـذى قاله آنذاك.. وقد حاولت استغلال كل الظروف السياسية التى كانت سائدة فى ذلك من أجل توصيل صوتى عاليا إلى الرئيس السادات.

ووقتها لاحظت أن قبضة الرئيس أصبحـت شديدة.. وأنهم يحرصون على تسجيل كل ما أقوله من أجل نقله إلى الجهـات المسئولة فى مصر.. وكان النبوى إسماعيل وزيرا للداخليـة فى هذه الآونـة.. وقد حذرنى بعض زمـلائى فى حزب التجمع الـذى كنت أحد قيـاداته فى تلك الفترة.. من عـدم التعـرض فى أحاديثـى لوزيـر الـداخلية.. لأنـه يملك المعتقلات والسـجون.. وقد اعتبرت هذا التحذير نبوءة مبكرة لدخول السـجن بالفعل.

وبـالفعل فى مسـاء يـوم الأربعـاء ٢ سبتمبر عـام ١٩٨١ وكنت فى اجتماع روتينى بـالحزب للجنة العـلاقـات الخارجية.. وكنت رئيسهـا.. جـاءت إلينا أخبـار من بعض المسجونين اليسـاريين فى مزرعة طرة أن هنـاك ترتيبات داخل السجن لاستقبـال عدد كبير من المعتقلين الجدد.. وعلينا أن نحذر.. وعندمـا علمت بالخبر، ظننت لأول وهلة أن الرئيس السادات سوف يعتقل بعض الجماعات الدينية قبل خطابه فى ٥ سبتمبر كإجراء وقائى، ولا مانع من اعتقال بعض شبـاب التجمع المعروفين.. ولم يدر فى خلدى للحظة واحدة أننى شخصيا على رأس قائمة الاعتقالات الجديدة.

*** وهل لا يزال الدكتور ميلاد حنا يتذكر لحظات اعتقاله؟**

ـــ طبعـا مفيش كلام.. ودعنـى أحكى لك بعض تفـاصيلها.. لقـد اقتحمت القـوات الخاصة من رجـال الأمن منزلى.. وألقى القبض على.. وفى حراسة الشرطـة أخذونى إلى

قسم الدقى ثم إلى سجن الاستقبال بليمان طره.. وهنـاك تعذر استقبالى بسبب التفرقة الدينيـة، فتوجهنا من طره إلى سجن المرج شمال القـاهرة.. وفى غرفة المأمـور تجمعنا نحن المعتقلين الأقبـاط وكـانت بشـائر الفجر قـد أطلت علينـا.. وقـد أمسك بكل منـا حارسان أحـدهما يتأبط الذراع اليمنى والآخر يتأبط الـذراع اليسرى وسرنا جميعا فى هيئة طابور يجمع بين الكهنة والعلمانيين.

وتأكـدت من عمق الشرخ الذى أصـاب مصر آنـذاك بعد أن أعـدت وزارة الداخليـة سجن المرج لاستقبال الأقباط وحـدهم.. وبخطوات منتظمة تتناغم مـع خطوات رجال الأمن الـذين أمسكوا بنـا.. وقد سرنا جميعـا إلى السجن الـداخلى وتوقفنا عنـد سجن التجربة وهو سجن داخل السجن.. وفى زنزانات بـاردة دفعوا بنا إلى ساحتها القذرة.. لقد كانت توحى إلينا بالرهبة والعقـاب معا.. كما كانت توحى أيضا باستحالة الهرب.. وعلى وســادة من الكـاوتش وبنفس الملابس التى غـادرت بها منـزلى ألقيت بجســدى المتعب وأنا فى حالة من الذهول وانعـدام الوزن.. وقتها لم أستطع النوم.. وبعد أقل من لحظة قصيرة.. فإذا بطابور جديد وإذا بهم يدفعون كاهنا للإقامة معى فى زنزانتى.

***

*** ما هـو تأثير تجربـة السجن التى عاشهـا الدكتـور ميلاد حنا طوال الثلاثـة والثمانين يوما.. ضمن اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١؟**

ـ هو أولا.. عنـدما يفرض على الإنسان حبس لمدة عـدد معين من السنوات، لابد أن يؤهل نفسه لمثل هذه الحبسـة.. ولكن وجـه الجمال والقهر معا فيما واجهته من اعتقال هو أننا دخلنـا إلى المجهول.. فلم نستطع فور دخولنا السجن أن نعـرف لماذا حبسونا.. وظللنا نضرب أخماسا فى أسداس حول هذا السؤال.. وتساءلنا عن المصـير.. باعتبار أن ذلك كان من أصعب الأسئلة التى واجهتنا فى تلك الفترة.. إنـه المجهول بعينه.. وبمجرد اعتقالى وإيداعى سجن المرج فى الساعة الثانية صباحا.. فى الفجر.. ودخلت الزنزانة مع بداية الشروق.. وكان معى بها أحد الكهنة من رجال الدين المسيحى.

وكما ذكرت مـن قبل.. كان ذلك بـداية تفـرقة عنصريـة.. الأمر الذي جعلنـى أقوم بإضراب داخل السجن على هذه التفـرقة.. وهذه كـانت تفاصيل دقيقة كتبهـا الأستاذ هيكل فى كتابه.. وكذلك أنا كتبتها كـذلك.. المهم.. هو أننى حين كنت فى طريقى من غرفة مأمور السجن إلى الزنزانة بين حارسين من حراس السجن.. أحسست بنشوة غريبة..

وشعرت أننى قد انتقلت من الأستاذية الجامعية.. ومن رجل الفكر إلى النضال السياسى.. وأننى سأكون شخصية تاريخية بدلا من أن أكون شخصية جامعية علمية.. وما إن دخلت إلى الزنزانة وكانت انفرادية وكريهة الرائحة ومظلمة.. تخرج منها جيوش من الحشرات من كل الأنواع.. حتى نمت نوما عميقا.. لم يحدث لى من قبل.. لأننى كنت قبل ذلك بأسبوع منفعلا بشدة لما حدث لمصر خاصة بعد أحداث الزاوية الحمراء.. وشعرت بأننى كان من الممكن أن أموت لو لم أدخل السجن فى هذه الفترة.. واعتبرت اعتقالى منقذا لى من مثل هذا الموت المحقق..

وبالفعل تركت لنفسى ولجفونى الفرصة.. ونمت كما لم أنم من قبل.. ولا أذكر متى استيقظت لأن الزنزانة كانت مظلمة فى كل الأوقات.. حتى جاء الحارس والسجان بكاهن آخر يزاملنى بالزنزانة.. بعدما عشت بها ساعات طويلة منفردا.. وكان اسمه القمص «اثناسيوس بطرس».. ولم يكن بينى وبينه معرفة مسبقةولكنه قابلنى بترحاب شديد.. وعشنا معا داخل هذه الجدران واعتبرنى أستاذا له.. وما زالت تربطنى به صداقة حتى الآن.. وكان رجلاً ديناً من القاهرة ومن حى المطرية.. وعرفت فيما بعد أن كل من دخل السجن من الكهنة والأساقفة كان بسبب مشكلة «الخط الهمايونى» وإمكانية بناء كنائس بطريقة معقولة.. وهذه كانت قضية سياسية ربما نتعرض لها فيما بعد.

***

*** وبشكل عام.. هل يمكن أن تقول لنا.. ما هو تأثير هذه التجربة على الفكر الإنسانى قديماً وحديثا؟**

* ابتداء.. فى تقديرى أن كل مسجون سياسى يعتبر السجن بالنسبة له فى مراحله الأولى هو فترة الرجوع إلى الذات.. وتصحيح المسار.. وهى وقفة إجبارية ممتازة.. لأن الإنسان خارج السجن من النادر أن يقف مثل هذه الوقفة نظرا لمشاغل الحياة الكثيرة.. ومن هنا.. فمجرد أن دخلت السجن.. كانت توجهاتى على محاور مختلفة عندما كنت مع نفسى.. أولا تساءلت من أنا؟.. وإلى أين سأكون؟ وما هو مصيرى؟.. وما هى فلسفتى فى الحياة؟

إذن السجن هو المدرسة الكبيرة للفكر والفلسفة.. وأى مناضل سياسى لا يستغل فترة السجن فى المزيد من التفكير والفلسفة.. وفى إعادة حساباته يخطىء فى حق نفسه..

ويجد نفسه دون أن يعود إلى نفسه، وهذا خطأ شديد جدا.. والمسجون السياسى أو المفكر الذى يخرج من السجن ويناضل فى نفس الطريق وبنفس الحماس وبنفس التجربة.. هو سجين لا يستحق أن يكون مفكرا.. ويمكن أن نلقبه بالمشاغب دون أن يكون مبدعا أو سياسيا أو أى شىء نافع لنفسه أو لوطنه.. وبالتالى.. لابد من اعتبارها فترة تصحيح مسار.. وبالنسبة لى كانت كذلك.. فقد بدأت أراجع تاريخ حياتى كله وأخذت أستعرض شريط ذكرياتى وأضع خطوطا حمراء تحت الأجزاء المضيئة وغير المضيئة.. ولابد لى هنا أن أقول.. إننى قد اكتشفت نفسى من جديد.. وتستطيع أن تقول إنها «بيروسترويكا الميلادية» نسبة لى.. وخرجت ولدى نقد شديد فى نواح كثيرة.. منها النواحى السياسية بالذات وموقفى من حزب التجمع حيث وجهت إليه نقدا شديدا واختلفت مع مبادئه، لأنه يدعو إلى الاشتراكية من نهج ماركسى ويستبعد النهج الديمقراطى.

ومن هنا بالفعل قد أثر فىّ تأثيرا شديدا.. ورفضت أن أكون فردا فى قطيع، ورأيت أن تكون لى هذه الخصوصية فى المزج بين الاشتراكية والديمقراطية.. وتجدنى من هذا المنطلق قد اخترت طريق التعامل مع حزب الوفد.. وحرصت فى الفترة الأخيرة أن أكون كاتبا ومفكرا فى صحيفة الوفد لفترة طويلة.. لأننى أؤمن وما زلت أن طريقى الوحيد يرتبط بالاشتراكية والديمقراطية كنهج واحد ومشترك.. لأنه لا يكفى أن تطعم الإنسان.. بل لابد وأن تعطيه حريته فى الاختيار وحرية المطالبة بحقه فى الحياة.. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثانى.. فهو أننى قد نشأت وتربيت فى بيت قبطى فى حى شبرا فى جزيرة بدران وفى شارع مسرة بالتحديد، حيث توجد أقدم كنيسة بنيت فى شبرا فى عام ١٩٢٤ وهو تاريخ ميلادى.. وكان جدى لأمى من الأثرياء حيث كان يرعى هذه الكنيسة.. وبالتالى كانت نشأتى دينية خالصة.. ارتبطت بحفظ الكتب الدينية والتراتيل.. ثم كنت قائدا لإحدى مدارس الأحد فى منطقة جزيرة بدران.. ومصر القديمة.. حيث كنت زعيما فى سن السادسة عشرة من عمرى، وتعرفت على المناورات السياسية وغير ذلك.. ثم تعرفت على «نظير جيد».. الذى أصبح فيما بعد البابا «شنودة».. حيث كان القائد فى الجهة الأخرى من شارع شبرا وفى المنطقة المقابلة لى من نفس الحى فيما كان يعرف بالترعة البولاقية.

ثم سافرت إلى بريطانيا.. وهناك قرأت عن الفكر السياسى الحديث ثم أصبحت بعد فترة وجيزة عضوا بارزا فى حزب العمال البريطانى.. وربما يكون انتمائى إلى الاشتراكية الديمقراطية يعود لتلك الجذور.. ومن ثم ابتعدت عن الفكرة الدينية.. وأصبحت علمانيا مفكرا وسياسيا.. وتحول انتمائى القبطى إلى انتماء أسرى واجتماعى أكثر منه انتماء كنسى دينى.. ولكن عندما اعتقلت مع الأساقفة والرهبان.. أرجع هذا الاختلاط من جديد تراثى الدينى السابق وأثار في وجدانى كل مشاعر الطفولة.. وعلى الفور استعدت قدراتى على قول التراتيل وقراءة الإنجيل.. وعلى هذا أصابت الدهشة كل من حولى.. لأننى كنت فى أذهانهم أمثل الرجل العلمانى الشيوعى.. وخلاصة القول أن هذه الحبسة قد أشعلت فى وجدانى مرة أخرى التراث الدينى المسيحى، وربطتنى من جديد برجال الدين.. لأننى كنت بالنسبة لهم المدافع عنهم وعن حقوقهم الدينية والفكرية داخل القضبان وأمام مأمور السجن.

*** وإذا ما عدنا إلى الحديث عن فترة وجودك بحزب العمال البريطانى ماذا تقول عنها بالتفصيل؟**

- أنا قعدت فى حزب العمال البريطانى أعوام ٤٨ و٤٩ و١٩٥٠ وانتخبت انتخابا حرا سكرتيرا للجنة الطلبة الاشتراكيين فى الجامعة.. ثم انتخبت ممثلا عن هؤلاء الطلبة فى المؤتمر القومى الذى عقد آنذاك فى مدينة مانستر وكانت لدى حتى فترة وجيزة مكاتبات ورسائل بينى كممثل لهذه الجماعة وبين مستر بيفين وزير الخارجية البريطانى.. وكذلك مستر بيفان وزير الصحة البريطانى.

ولكننى للأسف أحرقت هذه الأوراق كلها خوفاً من الاعتقالات فى وقت عبد الناصر وخشيت أن أتهم بالعمالة.. ولكنها كانت فى رأيى أوراقا تاريخية مهمة بالنسبة لى وبالنسبة لمصر.

*** نتوقف عند نقطة مهمة.. وليسمح لنا الدكتور ميلاد حنا إثارتها.. وهى تتعلق بالشخصيات التى تعرفت عليها داخل السجن وخارجه.. ومدى تأثرك كمفكر سياسى بهؤلاء؟**

- كان من الطبيعى داخل السجن.. وداخل هذه الجدران السوداء أن يسقط الزمن، ونفقد إحساسنا به.. فلا جرائد.. ولا معلومات.. وأصبحت الأيام كلها متشابهة، فلا معنى لأسمائها أو تواريخها.. ورحنا جميعا ننشغل بحياتنا داخل السجن ونتصيد

الأخبار بين الحين والحين..

وفى أيـامنا الأولى لم نكن يعـرف بعضنا البعـض.. فالاتصـال ممنوع والاختـلاط مستحيل والغموض يسيطـر على المكان.. حتى جاء صبـاح أحد الأيام وسمعنا صـوتا يصيح أنـا اسمى سمير تـادروس.. صحفى فى أخبار اليـوم ولابـد أن يعرف بعضنـا البعض، لأن أيام الاعتقال قد تمتد سنوات.. وكانت أبواب الزنازين من الحديد المصمت من الصاج، وبالجزء العلوى منها فتحـة صغيرة لا يتعدى مقاسـها ١٠ فى ١٠ أسميناها «الطاقة».. فهى مصدر النور الوحيد أثناء النهار.. وعن طريق هذه الطاقة عرف بعضنا البعض.. وعـرفنا أن السجن بـه ٢٨ زنزانـة وساكنـوها هم الأسـاقفة والقسـاوسة والأفراد العاديين.

وقـد حـاول القمص بولس بـاسيلى عضـو مجلس الشعب عن دائرة شبرا فى أيـام الرئيس السادات أن يخفف عنـا.. وكان رجلا بليغا فأطلق على الزنزانـة اسم «القلاية» وبذلك عرفنا أسماء الموجودين بالقلايات وعددهم، حيث كانت الزنزانة عندما استقرت الأمور تضـم اثنين وبذلك يصبح عـدد المسجونين فى سجن التجـربة ٥٦ رجـلا.. وقد لاحظت آنذاك أن إدارة السجن قد استبقت جميع الأساقفة والكهنة في سجن المرج.. وفى يـوم من أيام سبتمبر.. انضم إلينـا زميل جـديـد وهو أسقف بـورسعيـد.. إنه الأنبـا تادرس.. الذى كان فى مؤتمر خـارج مصر أثناء حملة الاعتقالات، وما أن علم بها حتى رفض الإقامة بالخارج وآثر العودة وبالفعل اقتادوا الرجل من المطار إلى السجن.

وفى وسط هـذا الظلام.. كـان السؤال الـذى ظل يطـاردنى طوال الأيـام الأولى من الاعتقال: تـرى ما هى التهم الموجهـة لنا؟ وهل هـذا تحفظ أم سجن؟ وما عـلاقة ذلك بالتكييف القـانونى.. وعلى مـا أذكر كان فى الـزنزانـة المقابلـة لى.. كان يقيم محام من سوهاج اسمه الأستاذ وصفى وكان يصر دائما على ترديد حقيقة أنه كان عضوا بارزا فى الحزب الوطنى.. وكان الـرجل فى حالة من الذهول فهـو أكثر الأعضاء داخل الحزب تأييـدا للسادات فى كل تصرفـاته، ويظل يضرب كفـا بكف على هـذه المفارقـة الغريبـة والموجعة.. ودعنى أحكى لك ذكريـات يوم السادس من أكتوبـر عام ١٩٨١.. ففى هذا اليوم دخل علينـا الصول خليفة بملابسه المدنيـة إلى عنبر سجن التجربة.. وقـال لدينا إشارة من وزارة الداخليـة بأن الأنبا صموئيل سوف يأتـى إلى السجن للاجتماع بنا..

وكان السادات قد عينه رئيسا للجنة الخماسية البابوية التى انتقلت إليها سلطات البابا عقب قرار عـزله.. ثم أضاف بأنـه لم يعرف بعد مـا إذا كان مجيؤُهُ قبل أو بعـد انتهاء العرض العسكرى بمدينة نصر.

ثم عـاد الصول ليعلن أن الـزيـارة تحدد لها موعـدا فى الثالثـة ظهـرا بعد العـرض العسكرى.. وجـاءت الثالثة ولم يأت الأنبا صمـوئيل.. وفى الرابعة عاد الصـول خليفة يحمل نبأ تأجيل الزيارة لصعوبة المرور عقب احتفالات أكتوبر.. ولم يكن أحد منا يعلم أن الزيـارة قد تأجلت إلى الأبد.. وطبعا السبـب معروف.. وفى مساء نفس اليوم جـاءنا النقيب مجدى طبيب السجن وأخبرنا أن هناك تعليمات بفتح أبـواب الزنازين للجلوس والتسامر.. وبالفعل كانت سهرة ممتعـة.. وظل النقيب محتفظا بهدوئه وقوة أعصابه ولم يقل لنا أن مصرنا الغالية كانت تعيش أحداثا رهيبة فى تلك الليلة.

وليلتها لم أنم.. فقـد كنت على موعـد زيارة أسرتى فى الصبـاح وجاء صبـاح اليوم السابع من أكتوبر.. وفجأة انفتح باب الزنزانة ودخل مأمور السجن كى يبلغنى بإلغاء الزيـارة والسبب إعلان الأحكام العرفيـة.. وعندما سألته هل السـادات مات؟ صمت.. ولم يرد.. وبعد دقـائق صدرت الأوامر بفتح أبواب الزنـازين على أن يقف كل منا أمام باب زنـزانته بلا حـركة.. وفوق كرسـى فى منتصف العنبر وقف مأمور السجن.. كى يعلن أن السادات قد مـات.. وأن الأحكام العرفية قد أعلنت.. لقد لفنـا الذهول جميعا فى تلك اللحظة.. ونحن مسمـرون فى أماكننـا.. ولم ننتبه إلاَّ على صوت الحرس بإدخـالنا الزنازين مرة ثانية وممنوع الكلام.. لحظتها أحسست أن نسائم الحرية تقترب، وأننى سأعيش وسوف أعـود إلى منزلى.. ولم تعد ثمـة مسافة كبيرة بينى وبين يـوم الإفراج عنى.

وبعد أن هدأت الأمور.. ودخلنـا إلى الزنازين علمنا بوفاة الأنبـا صموئيل فى حادث المنصة.. وفى يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر فوجئنا بالأوامر أن نستعد للرحيل.. البسطاء منا قالـوا إنه الإفراج.. والآخـرون قالوا سـوف ننتقل إلى القلعة أو إلى طرة للمحـافظة على حياتنا.. وفى انضباط صارم وخطوات محسوبة خرجنا من سجن المرج إلى سجن وادى النطرون.. وكنت حتى هـذه اللحظة لا أعرف الفرق بين السجن والليمان.. وهنـاك كان المكان أرحب والهواء أنقى والسماء صـافية.. وشاهـدنا المساجين بملابسـهم الـزرقاء وأدركنا أن فى مصر إذاعـة تسمع حتى فى السجون.. فكل مسجون لديـه راديو صغير..

كما شاهدنا كذلك داخل سجن وادى النطرون التليفزيون.

وكانت إقامتنا فى هذا السجن فى غرفة واحدة واسعة ولكنها كانت مهجورة من قبل تملؤها الفيران والصراصير وبداخلها دورة مياه قذرة وحقيرة.. ورغم ذلك فقد سعدنا بها أكثر من سجن المرج.. وكان عددنا داخلها ٥٦ مسجونا.. وقد جاءتنا مأكولات وكتب من الأديرة المحيطة بنا.. وشعرنا بقرب الإفراج للمرة الثانية.

***

هؤلاء هم الأساقفة الذين تعرفت على بعضهم داخل سجن المرج.. وهناك شخصيات أخرى كانت لى علاقة قوية بها داخل السجن أيضا.. ولكن ليس فى سجن المرج.. ولا سجن وادى النطرون.. ولكن فى سجن ليمان طرة كان لقائى بالقادة والزعماء والسياسيين.. ولانتقالى إلى هذا السجن قصة أخرى تستحق أن أرويها لك.. ففى يوم الأربعاء على ما أذكر الموافق ٤ نوفمبر عام ١٩٨١.. وفى لهجة حازمة.. طلب منى أحد الضباط أن أجمع أمتعتى وأشيائى.. فقد تقرر نقلى إلى ليمان طرة.. حيث يقيم السياسيون فى مبنى «الملحق» وهو أحد العنابر الموجودة بسجن طرة.. وكانت الدولة فى عهد عبد الناصر قد أنشأته خصيصا لهذا الغرض.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هذا كان أول مطلب لى منذ اعتقالى مع الآباء والأساقفة فى سجن المرج.. وكثيرا ما أردت التعبير عن هذا المطلب بالاحتجاج على تقسيم المعتلقين إلى مسلمين وأقباط وما يعنيه هذا التقسيم من وجهة نظرى من أنه تقسيم لمصر كلها.. وليس للمعتقلين.. ولما كان الإضراب فى السجون له قواعد وأصول فقد جاءت محاولتى غير مدروسة وباءت بالفشل الذريع.. الأمر الذى جعلنى ألجأ إلى محاولة الانتحار.. حتى أنبه المسئولين فى السجون إلى رغبتى هذه.. والحقيقة أن محاولتى لم تنجح فى الانتقال إلى سجن السياسيين والزعماء إلا بعد اغتيال السادات حين وافقت وزارة الداخلية بإتمام نقلى إلى ليمان طره مع باقى السياسيين.

وتضم منطقة طرة ثلاثة سجون كبيرة بها حوالى ٦٠٪ من السعة الفندقية للنزلاء.. الأول ليمان طرة ويطل على الكورنيش.. أما السجن الثانى وهو مزرعة طرة ويقع فى الخلف شرقا مواجها سلسلة الجبل فى امتداد المقطعم ويبدو وكأنه مخصص لإقامة المساجين الأقل عنفا والمحكوم عليهم فى جرائم مخففة.

أما السجن الثالث فهو مبنى جديد تماما وليس بسجن الاستقبال حيث يتم بالفعل استقبال المساجين.. وما إن دخلت سجن الملحق هذا حيث يقيم السياسيون حتى شعرت أننى فى سجن «خمس نجوم» فهو سجن له سور خاص ومعزول تماما.. وفيه يقيم بعض من حوكموا فى أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١ مثل على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف.. أما أبرز الأسماء التى ارتبطت بها بهذا السجن من رموز العهد الناصرى هما محمد فايق وفريد عبد الكريم فقد عاشا فى هذا السجن عشرة أعوام.

كذلك من الشخصيات السياسية المصرية التى التقيت بها داخل نفس السجن.. الأخ العزيز فؤاد سراج الدين الذى احتضننى بقوة وشعرت نحوه بمودة وإعزاز وبلقائى به نسيت أننى في السجن.. فعلى الرغم من أن الرجل تعود حياة القصور ومارس السلطة فى شبابه وزيرا فى أهم وزارات مصر ـــ المالية والداخلية ـ إلا أنه كان صلبا فى مواجهة السجن.. أيضا من الشخصيات الأخرى التى كانت لى علاقة قوية بهم.. إلكهل العنيد عبد الفتاح حسن باشا الذى راح يقاوم بشدة كافة أشكال الظلم.. ولعل اللقاء الحار الذى جمعنى بزميلي العزيز المرحوم عبد العظيم أبو العطا.. كان أكثر هذه اللقاءات تأثيرا لما تربطنى به من علاقة خاصة.. لقد عرفت عبد العظيم أبو العطا فى عام ١٩٤٦ أثناء عملى فى كلية الهندسة.. وفى أحداث الحركة الوطنية إبان فترة مقاومة اتفاقية صدقى ـ بيفن عام ١٩٤٩ تصادقنا واستمرت صداقتنا حتى فارق الحياة.

وفى الملحق العظيم داخل نفس السجن التقيت بالصديق القديم محمود القاضى وبالدكتور اسماعيل صبرى عبد الله والدكتور فؤاد مرسى.. كذلك الرجل الشجاع الدكتور محمد أحمد خلف الله بشعر رأسه الأبيض الفضى.. ونقطة أخرى مهمة أذكرها لك فى سياق هذه الذكريات أنه قد جاءت إقامتى فى الزنزانة رقم «١١» بالدور الأرضى مع الزعيم فتحى رضوان.. وكان ثالثنا أحمد فرغلى الصحفى وعضو مجلس نقابة الصحفيين وعضو مجلس الشعب عن حزب العمل الاشتراكى.

وثمة اعتراف يجب أن أبوح لك به.. فقد كانت أشهى الأطعمة وأفخرها تلك التى تعدها السيدة هدايت حرم الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.. فقد كان الرجل يصر دوما على أن أتناول غذائى معه كل يوم.. وكانت غرفة الأستاذ هيكل فى الطابق الأعلى باعتبار أنه من أوائل المعتقلين الذين قدموا إلى سجن ملحق طرة.. وحيث اتفق الجميع

على ترك الـدور الأرضى للشيوخ والكهول الـذين لا يتحملون صعـود السلالم.. وغير هؤلاء وهـؤلاء.. عرفت المحـامى عبـد العزيز محمـد وعبد العظيم المغـربى الـذى كان مسئولا عن الإذاعة المحلية داخل السجن.

*** فى ضوء عقوبة السجن المرفوضة.. كيف ترون الطريقة المثلى لمعالجة الرأى الآخر أو الرأى المعارض؟**

ـ طبعـا قصة السجن مع أى مفكر سيـاسى تختلف باختلاف الظـروف والأوقات وهى بالتـالى جزء من تـاريخ مصر.. وبالنسبة لى كنت حـالة خـاصة.. حيث اعتقلت فى ظروف غير عادية.. بمعنى أنه وكما سبق أن ذكرت لـك.. أنه حين اعتقالى حدثت تفرقة غـريبـة بين المسلمين والأقبـاط فى سجن المرج.. ومن بعـده انتقلت إلى سجن وادى النطرون ثم إلى سجن ليمان طره.. وفى هذه الحقبـة.. كنا فيما يسمى بسجن التجربة.. وهو نوع من أعتـى أنواع السجون وفيه يجربون المسـاجين الجدد داخل السجون كى يكتشفوا ويجربوا مدى تحملهم لهذه العقوبة.

ثم جانبا آخر هـو السجن الذى يضعون فيه المحالين للأشغـال الشاقة إلى الإعدام.. وقـد قضيت فيه من ٢ سبتمبر عـام ١٩٨١ حتى ١٥ أو ٢٠ أكتـوبر من نفس العـام.. ونعود للإجابة على سؤالك.. بالقول إنه سيأتى وقت ليس ببعيد عندما سيضحك الناس ويتنـدرون علينـا لأننـا نضـع أصحاب الـرأى المعـارض داخل السجـون لمجـرد أنهم يعارضـون بـآرائهم وأفكارهم فقط. وهذه قضية مبـدئية وخطيرة.. ونحن الآن ندهش بنفس القدر حين علمنا أن بعض أجـدادنا فى البشرية كانـوا يضعون المعارضين لهم فى أقفاص معلقة مع الأسود كوجبة شهية عقابا لهم على آرائهم المعارضـة.. أو وضعهم فى زيت مغلى أو وضعهم على خازوق.

إذن هى سمـة من سمات تطور البشريـة.. وفى كل فترة زمنيـة تختلف الوسـائل.. ولكننـا نـلاحظ أنـه كلما تقـدم وتحضر الإنسـان كلما قبل الخلاف فى الـرأى ورحب بالمعـارضة.. ولكنى أزعم أنـه أمامنا شـوط طويل على هـذا الدرب فى مصر.. والسبب يرجع إلى أننا مررنا على عصور قهر شديدة ومتنوعة ووجود مثل هذه الفترات بدءا من أحداث التعذيب داخل السجن الحربى وخلافه.. ليست ببعيـدة ولا خافية علينا.. أيضا ما يعانيه الآن بعض فئات المعارضـة الأخرى رغم اختلافى معهم.. إلا أننى لا أقر عقوبة السجن أو التعـذيب ما دامت التهمـة هى الـرأى والفكر.. ولابـد لنـا أن نفرق هنـا بين

موضوعين أساسيين الأول: محاولة قلب نظام الحكم بالقوة ومن هنا لابد على النظام سواء مصرى أو غيره أن يدافع بالقوة عن مثل هذه المحاولات.. لأننا فى هذه الحالة أمام نوع من المعارضة التى تستخدم العنف والسلاح والتآمر.. أما أن يحبس الإنسان لأن لديه عقيدة أو فكرا.. فإن ذلك فى منتهى الخطورة وهذا هو الموضوع الثانى المتعلق بأصحاب الرأى الحر المستنير حتى ولو كان يتعارض مع رأى النظام.

وفى يقينى أن الزج بأصحاب الرأى والمفكرين داخل السجن لمجرد أنهم يعارضون يولد داخل أنفسهم العنف والحقد على النظام نفسه.. وبالتالى نجد أن النظام فى هذه الحالة.. يخسر ولا يكسب، وخسارته تكون كبيرة وعلى المدى البعيد.. وخذ مثالا واحدا على ذلك.. عبد الناصر حينما اعتقل كل الإخوان المسلمين وأدخلهم السجن.. هذه العقوبة أفرزت بداخلهم العنف الذى تمثل فى ظهور جماعات دينية متطرفة مثل الجهاد وآخرين.. ولعلها دعوة أوجهها.. دعنا نتحاور ونختلف ما دمنا لا نستخدم السلاح.. لأن المحاورة تولد الأفكار الجديدة.. والعبرة فى الاختيار للفكرة الأنسب والأصلح للمجتمع من منطلق أننا مقبلون على عصر قبول الاختلاف فى الرأى وأنه لا يحتكر أحد الحكمة وحده.. وأنه لا غلبة لأصحاب الرأى بالقهر.

*** وهل ترون أنه من الضرورى أن يكون هناك سجون خاصة للمفكرين وأصحاب الرأى.. أو أن يزج بهم وسط المجرمين والقتلة؟**

ـ شوف.. لقد كانت هذه قضيتى وأنا عضو مجلس الشعب.. وتجربة السجن التى عايشتها كانت وما زالت ماثلة أمامى.. وقد آليت على نفسى طوال وجودى داخل المجلس آنذاك أن أحقق هذه الرغبة فطالبت أولا بفصل السجون عن وزارة الداخلية ونقل تبعيتها إلى وزارة العدل، لأنها جزء من تطبيق العقوبة.. هذا بالنسبة لجميع الجرائم فلا ينبغى أن يكون السجن برئاسة ضابط يقهر النفس الإنسانية وإنما ينبغى أن يكون قائد السجن أستاذا جامعيا أو دارسا لعلوم النفس وعلوم الجريمة حتى يتحول السجن من مجرد أداة للعقوبة فقط إلى أداة للعقوبة والإصلاح فى آن واحد.. ولا مانع من قرار العقاب كجزء من العودة إلى الذات.. ولا بأس من العزل.. حتى يفكر الإنسان فى مصيره وفى أسباب وجوده هنا.. ولكى يصحح مساره.. هذا جزء أساسى من العقوبة.. و طالبت به كحق للمسجون العادى.. أما المسجون السياسى ورجل الفكر الذى ترى الحكومة أيا كان نوعها أن فى وجوده خطرا عليها لأنه صاحب فكر معارض..

وتود أن تعزلــه فلابد أن يوضـع فى مكـان أمين وآدمى، ويعامل معاملة إنســانية جيدة كأن يتم عزلــه فى أحد القصور الملكيــة مثلا ويكرم.. ولا يتم تعــذيبه أو إهانتــه.. ولقد عاهدت نفسى ومنذ خروجى من السجن أن أناضل وأكافح من أجل حياة أفضل لكافة المسجونين.. وعلى رأسهم المسجون صاحب الرأى وصاحب الفكر.

*** نريـد أن نعرف كم كتابا.. ألفه الدكتـور ميلاد حنا داخل السجن أو خـارجه تأثرا بهذه التجربة؟**

ـ فى الحقيقــة أنا خرجت من السجن فى انفعــال شديد.. ولم يكن لــدينا أى وقت على الإطلاق لتأليف كتب.. وانغمست فى حيــاتى السياسية داخل حــزب التجمع.. وبسرعة شديــدة جاء عام ١٩٨٤ واختارنى الــرئيس مبارك عضوا بــالبرلمان.. ثم تم اختيارى رئيسا للجنــة الإسكان.. ومن ثم انخرطت فى حيــاتى السياسية بالكــامل.. ولم أفكر فى تسجيل هذه التجــربة فى كتاب إلا فى عــام ١٩٨٧.. عندمــا حل البرلمان.. وهجرت العمل السياسى لشهور عديدة.. أى بعد خمس سنوات بالضبط.

وعلى عجل استطعت أن أعيــد الذاكــرة من جديــد.. وأحــاول تسجيل ما شــاهدتــه وشعرت به من خــلال هذه التجربة.. عنــدئذ خرج كتاب «ذكريــات سبتمبرية».. وكان أول الكتب التى سجلت فيها هذه الفترة وهذه التجــربة.. بخلاف ذلك عكفت على تأليف كتب أخرى فى مجال الإسكان.. ثم كتــاب آخر متأثرا بتجربة السجن وأصــالة الإنسان المصرى.. وخرج بعنــوان «الأعمدة السبعة للشخصيــة المصرية».. وهــذا بخلاف كتبى العلمية المتعلقة بتخصصى فى فرع الهندسة.. وأقولها لك كما كتبتها فى ظهر غلاف أحد كتبى لقد دخلت السجن أستاذا جامعيا.. وخرجت منه ممارسا سياسييا ومفكرا.

وفى ختام حــديثى أقول: إنه عنــدنا فى مصر الإنســان لا يكون سياسيــا أو مفكرا أو زعيما إلا إذا دخل السجن.. فهو البوتقة ذات الحرارة العاليــة المكثفة التى تولد وتفجر طاقات فى النفس الإنسانية التى يصعب اكتشافها بدون تجربة السجن.

الحكاية الخامسة يرويها: لطفى الخولى:

اعتقلت ١٢ مرة.. خمس فى عهد الملكية.. والباقى فى عهد الثــورة

يبدو أننا سوف نقضى معظم الوقت داخل هذه الأوراق البيضاء عند حدود كلمات الحوار الذى أجريته مع الكاتب الصحفى والمفكر والأديب الأستاذ لطفى الخولى.. وذلك لأنه لم يفعل كما فعل أغلب المفكرين الذين التقيت بهم.. من حيث إسراعهم فى تسجيل تجربة السجن فى حياتهم فى كتاب..

والشىء الجديد الذى اتبعه الأستاذ لطفى الخولى على هذا الدرب أنه عندما خرج من المعتقل آخر مرة حرص على تجميع تجربته هذه التى سجلها فى قصص قصيرة وأصدرها فى مجموعة كبيرة صدرت فى عام ١٩٨٧.. بمعنى أنه قد لجأ إلى الأسلوب الروائى فى نقل تأثير تجربة السجن والاعتقال على حياته الفكرية والسياسية.. وأسفر هذا الأسلوب عن كتابة مجموعتين قصصيتين هما «رجال وحديد» وقد كتبها لطفى الخولى فى سجن بنى سويف عام ١٩٥٣.. ثم مجموعة «ياقوت مطحون» التى كتبها ما بين سجن القلعة ومعتقل الفيوم والقصر العينى على امتداد أعوام ١٩٥٩ و١٩٦٠.. وقد نشرت هاتان المجموعتان منفصلتين أعوام ١٩٥٣ و١٩٦٤ على التوالى..

وقد يبدو هذا المدخل للحديث عن الكاتب والمفكر لطفى الخولى غريبا للبعض منا.. وربما يرجع سبب الغرابة إلى أننا جميعا نعرف الأستاذ لطفى الخولى ككاتب سياسى فى المقام الأول.. وصاحب رأى وفكر فى هذا الميدان.. فله عدة دراسات سياسية تبلغ تسعة كتب كبيرة.. بجانب مقالاته السياسية المعروفة على هذا الدرب.. ولكن ما كتبته منذ لحظات لا يبدو لى غريبا على الإطلاق خصوصا وأننى اكتشفت أن لطفى الخولى يتسم بصفة الأديب أكثر من صفة الكاتب والمفكر السياسى.. وليس هذا الاكتشاف من اختراعى.. بل عرفته من السيرة الذاتية للمفكر لطفى الخولى.. ومن التعرف على بدايات

كتاباته فى هذا المجال.. وعلى حد قوله لى أثناء الحوار.. إن كل كتاباته الأدبية قد أفرزتها تجربة السجن والاعتقال.. فبجانب المجموعتين السابقتين هناك ثلاث مسرحيات هم: «قهوة الملوك»و «القضية» و«الأرانب»..

وهذه المسرحيات الثلاث شاهدها جمهور القاهرة فى منتصف الستينات من هذا القرن.. بجانب ذلك فهو أيضا كاتب سيناريو مبدع.. كتب أكثر من عشرة سيناريوهات لأفلام روائية طويلة نذكر منها على سبيل المثال «ثمن الحرية» إخراج نور الدمرداش.. «القاهرة ٣٠» إخراج صلاح أبو سيف و «العصفور» من إخراج يوسف شاهين..

ورغم أن الأستاذ لطفى الخولى قد ابتعد قليلا عن ميدان الأدب الذى أبدع فيه.. وكانت بدايته الحقيقية على أرضه.. حيث انشغل طويلا بهموم الفكر السياسى.. إلا أنه كان يعود من حين لآخر إلى ميدان الأدب والفن، فقد حرص على رئاسة وإدارة الدراسات التى نظمتها مؤسسة السينما الفرنسية بباريس عام ١٩٧٣.. ونفس الشىء حدث لحلقات الدراسة عن السينما والعالم الثالث التى نظمها مهرجان قرطاج عام ١٩٧٤..

***

لهذا كله.. لم أجد أى غرابة في حديثي عن الأديب لطفى الخولى كمدخل لحديث المفكر وتجربة السجن.. ورغم أننى لم أعثر على أية ورقة سجل فيها لطفى الخولى تجربة السجن كذكريات مباشرة إلا أننى حاولت العثور على هذه الكلمات من خلال الخوض وراء سطور عباراته التى سجل بها انطباعاته عن تجربة السجن فى مجموعته القصصية التى صدرت منذ عدة أعوام.. وقد سطر بعض هذه الانطباعات فى المقدمة التى حرص على كتابتها مشيرا إلى هذه التجربة والتي قال فيها: فى تجربتى قصة من فصلين: فصل أسميه «ما قبل السجن».. كانت نيران الحرب الثانية على وشك أن تتحول من ساخنة ملتهبة إلى باردة عاصفة فى منتصف الأربعينات، عندما رحت أدرس القانون، وأحضر نفسى للمحاماة.. يؤرقنى مع شباب جيلى المتفجر هموم وطن محتل مطحون يسعى للخلاص بطرق شتى صاخبة.. ولأن المحامى أو المناضل السياسى سلاحه الكلمة وفن الخطابة.. أو هكذا تفتحت الرؤيا فى أعماقى.. لجأت إلى الأدب والفن قراءة ومشاهدة.. وإذا بى أدخل عالماً جديداً، الواقع فيها غير محسوس، بيد أنه أكثر

حيوية من الواقع المحسوس خارج الذات..

والفصل الثانى تحركت أحداثه بين فراغات الحرية وسط قيود السجن حيث تقزم القانون الذى حسبته يوما سيدا عملاقا، لا يرقى إليه إنسى ولا جنى.. انسخط أمام عينى عبدا ذليلا يطيع بلا تردد أدنى إشارة من أصبع الشاويش. انحشر فى الزنازين أكوام من البشر، تدل عليهم أرقام معدنية.. جاءوا من سراديب العالم السفلى.. سرق قانون المجتمع حقهم فى الحياة.. وكنت حينما كان يغرق السجن في لجة الصمت بعد غروب كل شمس.. كنت أقبع فى زنزانتى المنفردة، أجلس مع خبزى الجاف في الظلمة.. وحيدا إلى نفسى كأنها ذلك الآخر الذى عاد فجأة بعد غربة التشرد في الزمن العتيق الذى لا عمر له.. فى هذا الجرح السجين، تفتتت أولى كلماته الأدبية.. كانت قصة قصيرة بعنوان «وصرت رجلا».. نشرتها فيما بعد فى صحيفة فى الخمسينات كتبتها آنذاك بقلم «كوبيا» فى حجم عقلة الصباع على ورق «البفرة» الرقيق الذى كان يستخدم فى لف السجاير..

***

ولسوف نجد أرضية مشتركة من الفهم إذا ما تعمقنا فى كلمات الأستاذ لطفى الخولى.. وتعبيراته.. ولعلها تنقلنا بصدق إلى واقع الألم والظلم الذى لاقاه المفكر لطفى الخولى من جراء هذه التجربة.. وكانت التهمة هى القلم والكتابة وحرية الرأى.. ولسوف نلمس ذلك أكثر حين نتتبع بشكل واع كلمات هذا الحوار.. التى لم تخرج عن صلب موضوعنا الذى اخترناه عبر هذه الصفحات.. وهو تأثير تجربة السجن أو الاعتقال على الفكر المصرى بشكل عام والمفكر بشكل خاص..

وضيفنا هو الكاتب الاستاذ لطفى الخولى.. مع وعد غير مؤكد من جانبنا يتمثل في محاولة الاستعانة ببعض الجمل والعبارات التى صور من خلالها الأستاذ لطفى واقع هذه التجربة مستخدماً أسلوبه الأدبى فى قصصه القصيرة التى نشرها.. ونوهنا عنها منذ لحظات.. كما سنحاول أيضا أن نقف خلف الأسئلة.. وربما لا نقولها صراحة.. حتى نفسح المجال أكثر لنص الحوار ويحاول القارىء من جانبه أن يقف على نصوص هذه الأسئلة من واقع تتبع كلمات الضيف.

وقبل أن ندير الشريط لابد أن نذكر أن هذا الحوار قد سجلناه فى حلقتين.. وفى يومين متتاليين بناء على حماس الأستاذ لطفي الخولى ورغبته فى أن يقول لنا كل تفاصيل هذه التجربة..

❊❊❊

يقول الأستاذ لطفى الخولى: لو حسبنا مجموع السنوات التى سجنت خلالها تقدر تقول «دستة».. يعنى ١٢ مرة.. بخلاف «الفكة».. وإذا حاولنا تفصيل ذكر هذه المرات أقول لك.. لقد اعتقلت خمس مرات فى العهد الملكى.. المرة الأولى منذ تفتح الوعى السياسى بداخلى وانشغالى بهموم مصر آنذاك وبهموم الوطن فى إطار الحركة الوطنية ابتداء من عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٣.. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان عمري فى ذلك الوقت أربعة عشر عاما..

وتراها بداية مبكرة.. والسبب أننى قد تربيت فى بيت سياسى.. فقد شاهدت فيه مناظرات ومناقشات سياسية من مختلف الاتجاهات والأحزاب من ناحية والدى الذى كان انتماؤه للحزب الوطنى.. وخالى الذى كان من الوفد وعمى البهى الخولى أحد رجال مصر التسعة الذين أسسوا حركة الإخوان المسلمين. فى ذلك الوقت المبكر من عمرى كان منزلنا يضج بالمناقشات السياسية.. كما ترى على اختلاف ألوانها واتجاهاتها..

أضف إلى ذلك وجود تيار تاريخى آخر متمثل فى حكايات والدى عن تاريخ مصر الوطنى وأبطال هذا التاريخ وعلاقاته مع زعماء الحزب الوطنى ودورهم السياسى آنذاك.. وكذلك كان هناك كثير من الكتب والصحف التى كانت تعبر عن مختلف هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية.. أضف إلى ذلك انتعاش الحياة العامة مثل المظاهرات التى كانت تطالب بالانسحاب والحريات العامة التى كانت متوفرة آنذاك والتى فى ظلها كنا وراء آبائنا نطالب بمحاربة أغنياء الحرب وهم الفئة القليلة التى أفرزتها الحرب العالمية الثانية..

كل هذه المؤثرات قد شكلتنى فى بداية حياتى السياسية.. وجعلتنى أعيش هذا الواقع وأنا مازلت صبيا.. وأذكر أن أول مرة اعتقلونى قد سبقها موقف من جانب والدى.. حيث شاهدنى أشارك فى مظاهرة من تلك المظاهرات التى كانت تطوف شوارع القاهرة.. والتى نجحت خلالها فى الإفلات من رجال البوليس.. بينما قبضوا على غيرى..

هذه المرة حين عدت إلى منـزلنا فوجئت بوالدى الرجل الـوطنى المخلص الذى قدم لمصر الشىء الكثير.. يعنفنى على اشتراكى فى هذه الأعمال.. وهنا كانت علاقتى بالوالد علاقة متميزة.

فرغم هذه الوطنية.. وهذه الأعمال الجليلة إلا أنه كان ينظر إلىّ كابن يريد أن يبعد به عن هذا التيار.. فقد كانت تغلب عليه مشاعـر الأبوة للدرجة التى هددنى فيها بأنهم لو أمسكونى فسوف يتخلى عنى ولن يسعى لإخراجى من السجن.. والشىء الغريب أننى أعرف نبرات صـوت الوالد.. وأفهم منها ميـوله وحالته النفسيـة.. ومايريد أن يقـوله صادقـا أو غير صادق.. وفى هذا الموقف بالـذات فهمت أن والدى لا يعنفنى من أجل أن أبتعد عن الاحساس الوطنى والمشاركة فى أحـداث بلادى.. ولكن كان هدفه وكما سبق أن قلت كان يخاف علينا جـدا.. لقد أحسست بالفعل أن هذا التهديـد قد خرج من وراء قلبه وعقله..

وفى المرة الثانية.. رغـم هذا التحذير اشتركت فى المظاهـرات وقبضوا على وسجنت.. وأذكر أن أول عـلاقة لى بعـالم السجون والاعتقـالات كان حجز قسـم السيدة زينب.. وكان ذلك عـام ١٩٤٣ أو أوائل عام ١٩٤٤.. وفى هذه التخشيبـة التقيت لأول مرة مع قادة الحركة الفكريـة والوطنية المصرية فكان معى الإخـوان المسلمون.. والشيوعيون والوفـديون والأحرار الـدستوريون.. وفى هـذه التخشيبة رأيت أيضـا والدى يأتينى مسرعا.. بالطعام والشراب بخلاف ما كان منه سابقا..

واسمح لى أن أعـود بك إلي الـوراء قليـلا حتى أقـول بعض المعلـومـات عن أسرتى وأصلهـا.. إننى رغم ولادتى بالقـاهرة إلا أن جـذور أسرتنـا من القرشيـة بمحافظـة الغربيـة.. وهى قريـة لعبت دوراً كبيرا فى تاريخ مصر.. وفى منتهى الأهميـة.. ففى هذه القرية اختفى عبدالله النديم ثمانى سنـوات.. وتستر عليه أهل القرية ورفضوا تسليمه للسلطات آنذاك رغم المكافأة السخية التى أعلنوا عنهـا.. وقد قضى عبدالله النديم هذه السنوات الطوال داخل القـرية معلما للأهالى على لمبـة جاز.. وقد أثرت هـذه الواقعة فى نفسى .. تاثيرا كبيرا.. امتـدت إلي سنـوات طـويلـة.. فقـد اتخذت مع آخـرين شعـار «الحصيرة ولمبة الجاز» من أجل ثقافة وطنيـة.. وطبقناه عمليا بإنشاء دار نشر لتحقيق

هذا الهدف.. بجانب ذلك تمتاز قرية القـرشية بإنجاب شعراء رومانسيين على مستوى عـال أمثـال الشـاعر أحمد الكـاشف وكـان من أكبر المعـاصرين لأمير الشعـراء أحمد شوقى..

***

المهم.. فى هذا الإطار بدأت أتعرف على التيارات السياسية الموجودة آنذاك.. وتأثرت أولا بتيار الوفد الذى امتاز فى هذه الفترة بدفاعه عن كل المساجين والمفكرين السياسيين من كل التيارات الأخـرى بدون تفـرقة.. فكان يـوكل المحامين بما فى ذلك لـلإخوان وللشيوعيين وكل التيارات التى تخالف تعاليم حزب الـوفد.. من منطلق ما كان يردده النحاس باشا آنذاك من أن الوفد ليس حـزبا.. وإنما هو يمثل الأمة المصرية كلها.. ومع ذلك فقد كنت أرى حزب الوفد تتوقف طمـوحاته السياسية عند التحرر من الاستعمار ووطنية الحكم، ولم يصل بفكره آنذاك إلى الأفكار التى بـدأت تجتاح الساحة السياسية والتى كان يمثلها الشيوعيون..

بجانب الأفكـار التى طرقهـا آنذاك الإخـوان المسلمون والتى كنت أراهـا تمثل تيار الاصالة والمعـاصرة من حيث التمسك بالقديم.. والبحث عن كل ما هـو جديد.. لكن مع ذلك كنت تشعر أنهم يقدمون مواعـظ.. وليست رؤى للمستقبل.. وهذا في حد ذاته كان خلافى مع عمى الذى كان من رجال الإخـوان فى ذلك الوقت والذى كان له الفضل الكبير فى تربيتى الدينية.. ولعلك تستغرب حين أقول لك: إننى دخلت المعتقل لأول مرة متأثرا بافكار الإخوان المسلمين.. صحيح أننى لم أكن عضـوا معهم.. ولكننى كنت قريباً جدا من فكر هذه الجماعة بحكم تأثير عمى.. للدرجة التى كنت أذاكر فيها دروسى بمسجد السيدة زينب حتى لا يفوتنى أى درس من الدروس الدينية..

***

وتوالت عمليات الاعتقال.. بعد ذلك إلى أن أمسكـوا بى فى حريق القاهرة عام ١٩٥٢ حيث أصبحت عضوا نشطا فى الحركـة اليسارية المصرية آنـذاك أو ما يمكن أن تسميه الحركة الشيوعية أو الماركسية.. وكنت قد اكتشفت عند إلقاء القبض على بسبب حريق القاهرة أنه ليس هنـاك حركة ماركسية واحدة.. بل عدة حركـات مختلفة ومتنافرة فى هذا الإطار..

وفى هذه المرة.. ساقونا إلى معتقل روض الفرج ولا أستطيع أن أحدد لك بالضبط عدد الأيام التى قضيتها فى هذا المعتقل.. لكننى أستطيع أن أؤكد لك أن المرات الاثنتى عشرة التى دخلت فيها السجن يمكن أن تصل إلى حوالى ثلاث سنوات ونصف فقط.. فى حين أن لى زملاء قضوا فى سجن متصل ومرة واحدة أكثر من اثنتى عشرة سنة..

وأنا أعتبر نفسى فى هذا المجال سعيد الحظ.. ليس فقط من ناحية المدة.. ولكن من حيث تنوع عدد مرات السجن واختلاف أماكنها.. وكان لكل مرة ومكان تأثير خاص على مسار حياتى السياسية والفكرية.. وأنا أذكر أن آخر مرة دخلت فيها السجن.. كانت أيام جمال عبد الناصر.. حين زرعوا التسجيلات فى بيتى بعد مناقشة سياسية.. وبالتحديد فى عام ١٩٧٠ وقبيل وفاته.. حتى إننى كنت معتقلا بسجن القناطر حتى بعد وفاته وفي حبس انفرادى..

*** لو قلنا.. ما هو تأثير تجربة السجن طوال هذه المرات على فكر لطفى الخولى؟..**

– شوف.. أنا فى السجن أولا تعرفت أكثر وبعمق وبشكل مباشر على المجتمع المصرى.. كما لم أكن أعرفه من قبل.. لأنك داخل هذه الجدران الصماء تتعرف على أنماط بشرية غريبة ومتنوعة.. رغم أن ذلك لم يكن من جراء الاختلاط.. لأنه كان هناك عزل تام بين المسجونين السياسيين وبقية المسجونين بتهم وجرائم أخرى.. وهذا العزل كنت أراه بدرجات مختلفة وكان في كثير من الأحيان عزلا شكليا.. ولكن المجتمع داخل السجن يكون نفسه رغم هذا العزل.. ويبدأ فى عقد ارتباطات وعلاقات بعضها جيد وبعضها غير جيد.. ولكن بشكل عام هذا المجتمع لديه القدرة على تسيير الحياة داخل السجن أكثر من إدارة السجن نفسها.. بالإضافة إلى أننى لم أجد مجتمعا أنظف من مجتمع السجن.. فى العلاقات الإنسانية فاللص يتخلى عن طبائعه داخل السجن.. فلا يسرق ولا يغش.. وإلا تعرض لعقوبة من زملاء السجن تكون أقسى مما يناله من عقوبات تفرضها عليه إدارة السجن.. وعلى سبيل المثال يمكن أن يحكموا عليه بالسجن داخل السجن.. فلا تعاون معه.. ولا علاقات.. إذن كأنما يحكم عليه بالموت.. أيضا هناك مشاكل أخرى تعرفنا عليها داخل السجن.. المساجين الفقراء.. وأصحاب التجارة الممنوعة.. والإتاوات.. كما اكتشفت أن أسوار السجن العالية قد فشلت فى منع هؤلاء المساجين من الاتصال.. بالخارج..

لـذلك تجد كل شـيء مـوجـوداً داخل السجن وداخل هـذه الأسوار.. أمـا الحاجـة الثانية.. أننى اكتشفت داخل السجن أيضا أنهم يمنعون عنك الورق والقلم.. وأى شـىء يقرأ فيما عدا الكتب المقدسـة.. لكن مع ذلك كان هناك إمكانية لتهريب الصحف والورق والكتب والأقلام.. أما أصعب شيء واجهته داخل السجن هو الحبس الانفرادى.. الذى كان يعنى.. أن تكـون فى زنزانـة وحدك لمدة ٢٣ سـاعـة.. مع نفسك فقط.. وتخرج لمدة ساعـة واحدة فى اليوم لقضاء حـاجتك وللتريض.. وكانوا يسمونها «سـاعة شمس».. فأنت طوال هـذه الفترة الطويلة تجد نفسك أمام نفسك.. حينئـذ تحاول اكتشاف نقاط الضعف والقـوة فيها.. وقـد صورت هذا الإحسـاس ونقلته بأمـانة مـن خلال كلمات سطرتها فى أحد كتبى الأدبية.. حين قلت:

فى إحدى الليـالى الليلاء.. أحكمـوا حبس السجن فى القمقم عنـدما أعلنا اضرابـا عن الطعـام.. فـلا ورق ولا كتب ولا صحف.. ولا حتي نسمـة هواء، تحمـل إلينا زقـزقـة العصفور اليتيم الذى بنى عشه بين الأغصان الجرداء لتلك الشجـرة البائسة المصلوبة عند البـوابة الكبيرة.. وحين كنت أتـوسل فى وحدتى، سماع صـوت، أى صوت.. حتى ولو كان طنين صمتى، داهمتنى قوة روحية، لا عهد لى بها من قبل.. راحت تدب الحركة فى أوصـالى وتـدفعني إلى نـزع علامـات الاستفهـام عن الجدران وزرعهـا فى النفس العاريـة.. وأعود وأؤكـد لك أن هذه هى إحـدى مميزات السجن، وإن شئت قـل إحدى ميزات المحن الكبرى.. وفى هذا المجتمع المغلق وأنت مع نفسك تبـدأ فى تحديد اختياراتك وتسأل نفسك هل ستبدأ الطريق من جديد.. أم ستظل على ما أنت عليه.. المهم أنك تعيد حساباتك من جديد وعلى ضوء هـذه الحسابات تعرف هل ستستمر أم لا.. وطبعا كان من أهم أهـداف البـوليس السيـاسى فى ذلك الـوقـت أن تتراجع عن أفكـارك وآرائك وميـولك.. وكان سبيلهم إلى ذلك مسـاعدة هـؤلاء على الخروج مبكرا.. وكـان شرطهم الـوحيد أن تقـدم تعهدا بعـدم الرجـوع مرة أخـرى إلى تلك الأفكار ولتلك الممارسـات السياسية التى يرونها تعارض أفكار النظام.. ويظل هذا التعهد موجودا بأيديهم سيفا مسلطا على رقـاب المفكر السياسـى.. حتى لا يفكـر فى العودة إلى ما اعتنقه ومـا أقر على الابتعاد عنه سلفا..»

بجانب ذلك رأيت داخل السجن ألوانا متعـددة من التعذيب النفسى والبدنى.. لذلك يـواجهك الاختيار رغـم أنفك.. وتعود وتسـأل نفسك هل ستستمـر وتتحمل كل هـذه المشاق.. أم تستسلم وتتخلى عن أفكارك وآرائك..

الحاجة الثانية أنك خلال تلك اللحظات ترى نقاط ضعفك وقوتك وتحاول استخدام هذه النقاط فى استكمال النقص الذى قد يعترى نفسك فى وقت ما.

والحاجة الثالثة.. أنك تتعلم من مجتمع السجن وترى قيما جديدة تظهر لدى بعض الناس فى لحظـات معينة.. حينما يتخلـون عن عالم الجريمـة ويصبحون مجتمعـا آخر يشعر كل منهم بأحاسيس الآخر.. إلى درجـة انك تكتشف وجود أناس ربما تراهم في عالم الحياة لأول مرة بهذه الشهامة وبهذه الرجولة..

ولعلى أقـول لك.. إن أى انســان حينما يدخـل السجن لأول مرة.. تتصـور أن هـذا الإنسان المكبل بهذه القيود الحديدية وأسلوب الحياة الخشن إلي درجة بدائية.. بجانب الضرب والركل وألـوان امتهان كرامـة الإنسان ثم التجويع فى بعض الأحيـان.. عندئذ يعتقد أنـه لن يستطيع أن يتحمل ساعة واحـدة داخل هذه الجدران.. ثم تفـاجأ بمرور الساعة وراء الأخـرى ببطء شديد ويأتيك اليـوم التالى.. وهكذا.. وبعد مـرور عدة أيام تحاول أن تتأقلم داخل هذا المجتمع الجديـد.. عندئذ تتفجـر فى الإنسان طاقـات عظيمة تظل مختفية لحين ظهورها في وقت الأزمـات والمحن، وأعظمها اللحظات داخل السجن، وتجعلك تتقبل هذه الحياة الخشنة والشاذة والبدائية.. ومن ثم تصير سيد هذا الموقف وتتغلب على هذه المشاكل وتتقبل العيش داخل جدران السجن..

وما أريد أن أصل إليه هو قدرة الإنسان على التكيف مع ظروف حياته الجديدة مهما كانت شاقة وعسيرة.. أيضا بخـلاف ذلك تكتشف وأنت داخل السجن مناطق مجهولة داخل نفسك.. وبـالنسبـة لى.. فقد اكتشفت امكـانيـاتى وقـدراتي وموهبتى الأدبيـة والفنية.. ولعلك تدهش أننى قد أنجزت معظم مـؤلفاتى الأدبية والسينمائية داخل هذه الجدران فيما عدا قصة وحيدة خارج السجن وهى قصة «المجانين لا يركبون القطار».. هذه القصـة بالفعل كنت قـد كتبتها بعد خـروجى من السجن.. أما بـالنسبة للقصص القصيرة التى أعادوا طبعهـا فقد كتبت لها مقـدمة.. أوضـحت فيهـا كيف اكتشفت هذه القدرة الكامنة فى داخلى.. وكيف اكتشفت فى نفس الوقت مواهبى الأدبية؟.. ودعنى أقرأ

لك بعض مشاهد قصص مجموعة رجال وحديد.. وهى المجموعة التي خصصتها لنقل مشاعرى وعالمى داخل السجن..

تحت عنوان «الليلة الأولى» كتبت أقول: «دار مفتاح فى ثقب الباب دورتين صاحبهما صرير رتيب.. وسمع حسن وقد صار وحيدا فى الزنزانة رنين طرقة أو اثنتين أحس أنهما من صنع الطرف السفلى للمفتاح الذى أغلق دونه الباب الحديدى.. وتبع ذلك وقع أقدام ثقيلة تبتعد وصوت خشن يأتيه من خلال ضجيج المساجين الذين تتكدس بهم زنزانات العنبر: تصبح على خير يا أستاذنا.. ورغم أن التحية كانت قد نفذت تماما إلى أذن حسن غير أنه لم يستطع أن يحرك لسانه بردها إلا بعد مضي شوط غير يسير يستعرض الصور العديدة التى تزاحمت فى وعاء رأسه من الساعات القليلة الماضية.. وتذكر الزمن فجأة..»

ومن مجموعتي القصصية الثانية.. والتى صدرت بعنوان «ياقوت مطحون».. خصصت إحدى قصصها لنقل صور غريبة شاهدتها خلف القضبان.. وعلى سبيل المثال.. صورة الشذوذ الجنسى.. وعلى ما أذكر أن اسم هذه القصة هو «الصفيحة».. ولعلى أقرأ لك منها بعض الجمل والعبارات..

«.. وبدأ الشاويش سليمان.. يتحرك ببطء فى أرجاء المطبخ وتحركت معه عينا «سنقر» خطوة خطوة.. كانتا فى ظهره عندما انحنى يختبر الاعشاب الخضراء المتربة التى يقوم بتقطيعها ثلاثة من المساجين لاعدادها للطبخ على أساس أنها ملوخية خضراء.. وكانتا فوق طرف حذائه الأيمن حين عن له أن يرتفع فجأة دون ما سبب ليركل السجين الهزيل كالعصا الخيزران.. فيد حرجه إلى الجدار مذعورا.. وكان يبدو أن ثمة حديثا صامتا قد دار بين «سنقر» والشاويش سليمان خلال النظرات المتبادلة وانهما قد وصلا إلي اتفاق.. ولم يبق إلا مناقشة التفاصيل»..

❊❊❊

❊ وهل هناك ذكريات أخرى تحملها بداخلك عن هذه التجربة؟

– طبعا.. خاصة آخر مرة دخلت فيها المعتقل.. لأنهم سجنوا معى زوجتى.. وعلى ما أذكر أنهم أيضا قد سجنوا سكرتيرة الأستاذ هيكل «مدام نوال وزوجها».. وكل ده كان أيام عبد الناصر.. وقد مات ونحن داخل السجن ثم أفرج عنا..

*** نريد أن نعرف من الاستاذ لطفى الخولى.. وبشكل عام لماذا يسجن المفكر؟**

– دا بيختلف من بلد إلى بلد.. ومن عصر إلى عصر.. أما بالنسبة لمصر.. فهناك سببان ونوعان من المفكرين.. وبشكل عـام ليس هناك شك في أن السجن والاعتقال فى اتجاهه العام ضـد الفكر ويكبته.. ولكنـا رغم رفضنا لهذا الكبت ونديـنـه.. إلا أننا نعتبره تحد جديد للفكر.. من حيث أنه يثقله ويحدد نشـاطـه.. ويكشف جوانب خفية جديدة فى هذا الإطار وكثيرا ما أعتقد أن فترة السجن هذه تعتبر نقطة تحول فى حياة المفكر.. ومع ذلك ليس بالضرورة لكى يكون للمفكر نقطة تحول أن يدخل السجن.. ولكن بشكل عام فإن المحن والمعضلات الحيـاتية فى العالم محليـا ودوليا وتصدى الفكـر لها سواء فى شكل فلسفى وتاريخى أو شكل اجتماعى أو فنى.. هو التحدى المستمر للفكر أو بمعنى آ خر أن تدخل فى محنة بمعناها الواسـع.. وليس كما نفهمها بمعناها الضيق..

***

وحين تسألنى مثـلا.. عن الأسبـاب التي تـؤدى إلى سجن المفكـر والـزج بـه وراء القضبان.. أقـول لك بشكل عام وطبقا لتجـربتى هناك أنواع من سجن المفكـر.. المفكر العضوى كما كان يعبر عنه الفيلسوف المفكر الإيطالى «جرامش».. والذى يقصد به ذلك المفكر الذى يعتبر أنه ملتزم بأن يدافع عـن فكره اجتماعيا.. ويحشد له الناس فى تنظيم أو أن يواجه النظام المعادى لفكره.. طبعا هنـا لابد وأن يصطدم بالنظام و والموروثات والتقاليد ولابـد من أجل ذلك أن يدفع الثمن.. إذن كل مفكر يختار هـذا الطريق لعرض فكره داخل المجتمع عليه أن يتحمل نتائج هذا الطريق.. ولا نعتقد أن هذا الموقف قاصر على مجتمع بعينه.. بل تجده في كل المجتمعات المتخلفة منهـا والمتقدمة لأنك هنا تتحدى النظام.. وعلى القائمين على هـذا النظام التصدى لأفكارك ومقاومتها.. وعـادة ما يكون المصير هو السجن أو الاعتقال بمختلف ألوانه وأنواعه.. والمفكر فى مثل هذه الأحوال لا يتصدى للقائمين على السلطـة، فقد يساهم فى تكوين رأى عام كبير هـو الذى يتقدم من .أجل التصدى للقـائمين على السلطة من وحى آراء هـذا المفكر أو ذاك الـذى ينظم قوى هذه الجماهير لحظـة المواجهة والتصدى.. وعلى ذلك فـلابد وأنت كمفكـر فى هذا الموقع عليك أن تكون مستعـداً فى أية لحظة لـدفع الثمن.. لأنك هنا لم تتوقف عنـد مجرد قول الأفكار وترديدها.. بل تنزل بها إلى الشارع فى الواقع كى تتحقق..

وهذا هـو النوع الأول أو المدرسة الأولى مـن مدارس الفكر.. ومـاسميناه فى الأول مدرسة الفكر العضوى..

أما النوع الثانى من المفكرين مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين يرون أن مهمتهم أن أكتب وأقول رأيى فى هذا الموضـوع.. وأنتج هذا الفكر.. فمن يريد أن يستفيد منه يقترب منه.. ومن لا يريد يبتعد.. والكثيرون يسمون هذا الاتجاه أو هذه المدرسة.. مدرسة مهادنة السلطة.. وهذا تصور خاطىء.. لأن مثل هذه الخطوات يراها المفكـر من وجهـة نظـره الأصلح للمجتمـع.. ولكل تصـوره الخاص.. فهم يـرون أن مهمتهم تتوقف عنـد التثقيف والتنوير.. وغيرهم يرون أن دورهم لا يتـوقف عند ذلك فقط.. بل يمتـد من أجل تنفيـذ هـذه الأفكار فى الـواقع.. وهـؤلاء ينتمـون إلى مختلف المدارس الفكرية اليسارية واليمينية والليبرالية وخلافه..

وبـالنسبة لأصحـاب الاتجاه الأول الذين يـرون ضرورة النزول الى أرض الـواقع لتنفيـذ أفكارهم.. يتـوقف نجـاحهم على سعـة صدر السلطـة من حيث وجـود بعض التكوينـات الديمقـراطية.. التى تسـاعد على تقبل مثل هـذه الأفكار رغم اختـلافها مع القائمين على السلطة.. هذا أولا.. أما ثانيا: تقبل السلطة أن يستمر هذا المفكر فى نشر تلك الأفكار بحـرية دون تدخل أو رقابـة أو مضايقة ومن هنـا تتفاوت ردود الفعل.. ومع ذلك من الممكن أن تحدث حالات لوى ذراع مثلما حـدث مع المفكر توفيق الحكيم.. رغم أنه ينتمى الى المدرسة الثـانية التى تقف عند حد قول الفكـرة دون السعى الى تنفيذها.. ففى إحدى المرات نشر قصـة قصيرة.. رأت فيها السلطة آنذاك أنها ضـدها.. وكما كان يحكى لنا الله يـرحمه.. عاقبوه بخصم نصف شهر من مرتبـه.. وقد تصل إلى الايقاف عن العمل مثلما حدث مع الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الـدين.. أو إيقافه عند درجة مالية معينة.. ويتساوى هذا العقاب المادى والمعنوى.. وهذا فى حد ذاته نوع من العقاب الذى يؤدى إلى الإيلام.. بحيث تشعر فى النهاية بأنك مسجون داخل نفسك.. حتى ولو لم تـدخل السجن وتعيش داخل جـدرانـه.. وفى كثير من الأحيان لا تصل إلى عقـوبـة السجن أو الاعتقال.. المهم يصاب المفكر فى النهاية بالإحباط.. ويتوقف..

وفى هذا الإطـار توقف الكثيرون من المفكرين عن العطـاء.. وفقا لما عانـوه من ألوان التعذيب.. وإذا ما استمر فى طرح أفكاره وعاند نفسه فهو يكون أمام أمرين: إما أنه مع

هذا الإصرار فى معرفة التصدى لأفكاره يتجه للعمل من أجل تنفيذ هذه الأفكار وبالتالى يتحول إلى الصدام المباشر مع السلطة.. ويكون مصيره فى النهاية السجن والاعتقال.. أو أن الدولة تتركه يطرح أفكاره دون التصدى له.. باعتبار أن هذه الأفكار مجرد كلمات جوفاء لا تأثير لها.. ومتنفس ضعيف داخل المجتمع.. ولا خوف منه.. وعندما تشعر السلطة بخطر هذه الأفكار تتدخل فورا لمحاربته.. ولو بالسجن أو الاعتقال.. ولكن على العموم لا يجب اعتبار السجن التحدى الأكبر أو الوحيد للمفكر.. وإنما الاغتراب.. والضرب تحت الحزام.. هو أخطر ما يواجه المفكر داخل مجتمعه حتى ولو لم يدخل السجن..

***هل تعرفتم على شخصيات تأثرتم بها فى فترة الاعتقال؟..**

– طبعا.. وعليك بقراءة المجموعة القصصية« رجال وحديد» .. وقبل أن أقرأ لك ما جاء فى بعضها أذكر لك أسماء المفكرين الذين عرفتهم وتأثرت بهم كثيرا على هذا الدرب.. منهم الدكتور محمد الخفيف والمرحوم الدكتور لويس عوض.. ويوسف حلمى وعبد المنعم الغزالى ومحمد قطب أخو الأستاذ سيد قطب..

ومن غير هؤلاء عرفت مثلا «أبو السباع».. ذلك السجين الذى كان اسمه الرسمى المسجل بدفاتر السجن والمكتوب بمداد أحمر باهت فى أعلى «التذكرة» المثبتة بباب زنزانته رقم عشرة بالدور السابع اسماعيل محمد.. لكنهم أقصد كل من اتصل به فى حياته العامة أو تلك التى قضاها خلال الاغلال لم ينادوه يوما إلا بـ «أبو السباع».. وبالرغم من أن إسماعيل أو أبو السباع هذا.. أو سماعين كما كنت أسميه.. كائن حى.. يعيش ويتنفس ويدخن وتستطيع بكل سهولة أن تلمسه وتتحدث إليه إلا أنه لو حدث وصافحته مرة تحاشيت طوال حياتك أن تكرر ذلك مرة أخرى.. فإن يدك عندما تغوص فى راحة يده الخشنة تحس وكأنك قد أطبقت على ثمرة من ثمار التين الشوكى تحيط بها عضلات ضاغطة فى قوة لا عهد لك بها.. فكأنها من حديد.. وتحاول أن تخلص يدك بكل ما أوتيت من إرادة حب الحياة ولكنك تفشل.. فتتأوه لحظات وتئن أخرى.. ثم تصرخ.. عندئذ يفرح أبو السباع ويفرج عن يدك وقد احتبس الدم فى مواضع متفرقة منها وانبعثت من فمه الواسع ضحكته التقليدية.. والذين اتصلوا

بـ«أبو السباع» يـومـا أو عاشـوا معـه ولو سـاعـات يسيرة يروون عن شخصيتـه وتصرفاته الأساطير..

ومع الزمن صار معروفا أن للسجن مديرين أحدهما الموظف العمومي الذى يرتدى السترة العسكرية الصفراء والآخر «أبو السباع».. ذلك العملاق الذى يحس الناظر إليه أنه قد أدخل بصعوبة فى لباس السجن الأزرق.. ولم تكن الزنـزانة التى استقل بها أبو السباع تختلف كثيرا عن محل بقالة صغير وكـان هذا المحل يتعامل مع جميع المساجين بأسعار يحددها بعدما راعى فى ذلك أن تكون أقل ارتفاعا من تلك التى تسود فى السوق السوداء والتى كان يباشرها كثير من السجنـاء فى الخفاء.. ومن هنا كان دائما يدخل فى منافسة مع تجار السوق السوداء.. ولكنه كان الرابح دائما.. وكان فى كثير من الأحيان يتدخل تارة بيديه وتارة بواسطة «الحاجة» أى العصا الغليظة ليحمى عملاءه من بطش منافسيه عندما يحاولون تطبيق نصوص اللائحة عليهم..

والشخصيـة الثانيـة.. هو «أبـو دراع».. أو «اللـومنجى».. ذلك السجين الذى بـدأ حكايته أيضـا ولا الأساطير داخل جدران السجن.. فقد نشأ فى الصعيد شـابا شريدا لا يعرف له أصلا.. ولم يصـادف الخوف فى حياته.. بدأ عمله فى الصعيد حـارسا ليليا فى منطقة مقـابر القرية.. وكـان الوحيد الـذى قبل هذه الوظيفة بعـد أن رفضهاالكثيرون غيره.. وفي ذات يوم طلبه العمدة أن يتزعم تنفيـذ مؤامرة لحرق أحد حقول القطن.. ثم تطورت هـذه الطلبات من جـانب العمدة من حـرق الحقول وسرقـة المواشى وتسميم الدواجن إلى سفك الدماء.. وجاء الوقت الذى خشى فيه أبو دراع أن العمدة يستغله ولا يدفع له.. لـذلك قرر الانفصال عن العمدة وأن يـدير أعماله العدوانيـة لحساب نفسه.. وبـالفعل كون عصـابة أفلحت بحـوادثها الـدامية فى أن تشيع الإرهـاب داخل القريـة والقرى الأخرى.. ومنذ هذه اللحظة عاش أبو دراع مطاردا رسميا من الحكومة.. حتى تم القبض عليه.. وكان يطلب دائما للمساجين الجدد الاستماع إلى حكاية أبو دراع وهم واقفون فى عيـادة السجن الطبية ينتظـرون العرض على الطبيب وحتى هـذه اللحظة لم أعرف السبب..

***

خلاف ذلك هنـاك شخصية ثريـة جدا تعرفت عليهـا داخل السجن وهى شخصية الشاويش رجب.. وأنا شخصيا أعترف أنها شخصية تهزك بعنف وتتأثر بها بسرعة..

وأنا أعتقد الآن أنه مات.. وعم رجب هـذا كان فى الستينات من عمره.. وكان العسكرى الوحيـد تقريبا الـذى لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابـة.. وبالتالى خصصـوه لحراسة السياسيين.. وكان يمتاز بإنسانيته الغريبة التى أبعدته عن صفات كل عساكر السجن الآخرين.. فلا يقبل نقـوداً ولا رشاوى ولا أى شىء من هذا القبيل.. لقد كـان نموذجا فريدا يتسم بطبيعته السمحة راضيا بحياتـه وعيشته.. وبالتالى كان يعتبر الرشوة من أجل أداء الخروج على الواجب وعلى مقتضيات الـوظيفة حراما، وكـان اختياره فى هذا المكان مـوفقا.. لأن السجنـاء السياسيين كـان أول عمل لهم داخل السجن هو تكـوين شبكـة من العساكـر والشاويشيـة وعن طـريقهم يتم تهريب كل شىء يتعلق بالفكـر والثقافـة.. وطبعا كلـه بالفلوس.. إلا مع عم رجب.. بجـانب ذلك كان هـؤلاء هم حلقة الاتصال بين المساجين السياسيين وبقية المساجين الآخرين ثم بينهم وبين الخارج..

إن عم رجب كـان شـخصيـة غير عـاديـة.. وكان مسئـولا عن مجمـوعـة زنـازين خصصوها للتأديب بسجن القنـاطر الخيرية.. وكنت سجين إحدى هذه الـزنازين عام ١٩٧٠.. وقد مر عليه عدد كبير من المساجين السيـاسيين.. مثل فؤاد باشا سراج الدين وآخرين.. هذا الرجل اتصافه بصفة الأمية ووجوده بيننا كان مقصـودا..

تتم عملية التجهيل التامة.. لأننا كنـا دائما فى شوق أن نعرف كل جديد في الصـحف والمجلات.. فكيف يمكن أن يتم ذلك لنا والحارس لا يقرأ ولا يكتب.. بالفعل لقد كان عم رجب لا يعرف القراءة.. وبالتالى كنا كثيرا مـا نفشل فى معرفة أخبار العالم من صحف الصباح.. والشىء الغـريب أن هذه الشخصيـة.. قد لفت على جميع السجـون المصرية مصاحبا للمسـاجين السياسيين سواء فى الواحات أو فى السجون الأخـرى.. وقد تأثر هذا الرجل بمصاحبة هؤلاء السياسيين فتحول مع الأيام رغم أنه كان جاهلا.. إلى أحد خبراء السياسة المصرية فى وقت من الأوقات..

ولانه بدأ يتعامل مع السيـاسيين فقد أصبح له موقفا.. وبدأ يتكون لـديه قناعة بأن سجن هؤلاء الرجال غير طبيعى وغير قانونى كما بدا عليه عدم الاقتناع بالسلطة التى سجنت هؤلاء.. وبـدأ يتكون لـديه رأى مؤداه أن هـؤلاء لابد وأن يخرجـوا على الفور ويمارسوا حيـاتهم الفكريـة دون قيود.. وعلى النـاس أن تختار بين فكـرهم.. ولماذا لا يكون هو من بين هؤلاء الذين لهم مثل هذا الاختيار.. فبدأ يأخذ موقفا من السلطة.. كما

بدأ يأخذ موقفا مع أو ضد هذا التيار.. وفقا لاقتناعه بأفكاره.. دون التعرف على صحة أو خطأ هذا التيار أو ذاك.. بل أكثر من ذلك بدأ يتـدخل معنا فى حوار مثمر وثرى.. كما بدأ يذهب إلى المقهى قبل دخوله إلينا فى نوبة حراسته بالسجن.. ومن خلال حواراته مع أصدقاء المقهى.. ينقل إلينا النبض العام لهؤلاء النـاس البسطاء.. وكان يشعر أحيانا أن من واجبه أن ينقل إلينا أو يبلغنا بقضية مـا.. ويتم ذلك من تلقاء نفسه دون توجيه من أحد منا ودون أن يأخذ أجرا على ذلك.. وبـذلك أصبح صديقا لكل المعتقلين السياسيين والمفكرين على اختلاف انتماءاتهم..

ومرة أخذ يحدثنـا عن شجاعة وبطولة فؤاد سراج الـدين فى السجن بدرجة كبيرة.. وكان صديقا لنجم وإمام.. وكان يـداري علينا فيما نكتبه داخل الجدران.. وبالنسبة لى شخصيا كان يخفى الأوراق التي كنت أكتبها عن سينـاريو فيلم العصفور.. أيضا كان متعاطفا مع الاخوان المسلمين ويساعدهم كثيرا في تلبية طلباتهم رغم تحفظه على بعض آرائهم واختــلافـه معهم.. يعنـى تقـدر تقــول بخـلاف ذلـك: السجن مجتمع غنى بالشخصيات..

ويحضرنى بخـلاف قصتى مع «عم رجب».. قصة أخـرى مع أحد صـولات سجن الفيوم.. هذه الشخصية طيبة القلب.. رغم مظهرها القاسى.. كان يتعامل معنا بإنسانية غريبة.. ويتغلب كثيرا على التعليمات والأوامر التى تسرى علينا كمسجونين سياسيين.. ودائما كان يكرر أمامنا أنه غليظ القلب وعنيف.. وكنا نلاحظ تكرار هذه العبارات أمام مسئولى السجن فقط ولكن حين يخلو بنـا.. ينقلب إلى انسان من نوع طيب.. وأستطيع أن أقول لك إننى ظللت على علاقة ببعـض زملائى من المسجونين غير السياسيين حتى بعـد الخروج ومن الضباط.. ولـلأسف.. كان منهم بعض الضبـاط الذين اشتركـوا فى تعذيبى كما لو كنـا أعداء.. هذه العلاقة اتسمت بيننا بـالود حتى إن بعضـهم كان يطلب منى خدمات..

***ولماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر فى دول العالم الثالث بتوقيع رئيس الدولة؟..**

– أنـا أعتقد أن رئيـس الدولـة لا يعلم كل شىء قبل وقـوعـه.. بل قـد يعرف بعـد وقوعـه.. ويؤكـد لك ذلك ما سأرويـه بعد لحظـات.. فعندمـا كنت قريبا مـن الرئيس

السادات وكانت علاقتى به طيبة حتى ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧.. قال لى إن هناك طريقة ما يلجأ إليها الحاكم فى حالة وجود ما يعكر صفو النظام.. وكان ذلك ردا على ما أثرته آنذاك من لجوء السلطة إلى تقييد حرية المفكر واعتقاله.. ومنعه من الكتابة دون أن يعرف هو ذلك.. وأحيانا يكون الاعتقال لأمور ملفقة يتم اكتشافها أثناء إجراء التحقيقات فى النيابة أو أمام القضاء..

وفى رده على ما أثرته.. قال لى الرئيس السادات الذى كان يمتاز بحسن استماعه حتى لخصومه.. إن آلية هذا العمل يأتى بالشكل التالى: هناك مجموعة ما من الوزارة قد قررت أن تأخذ موقفا ما من كاتب أو مفكر.. مثلا من لطفى الخولى.. فعندما تشوع فى كتابة تقاريرها للرئيس عبد الناصر تذكر اسمه بشكل هامشى فى إحدى التقارير الأمنية.. انه شوهد مثلا يصافح فلان وفلان.. وهما من أعداء عبد الناصر أو من خصومه.. ثم تمضى أسابيع ويذكر فى تقرير آخر أن لطفى الخولى قد اجتمع مع بعض هؤلاء المعارضين.. وقال ضمن ما قال إنه لابد من إعادة النظر فيما هو قائم من نظام سياسى.. ثم يبدأ بعد سطر وسطرين... ثم إلى فقرة.. ثم إلى ورقة فى التقرير.. إلى أن يتم كتابة التقرير كله عن لطفى الخولى وعن تحركاته.. ويلاحظ أن ذلك يتم بشكل مكثف فى فترة زمنية قصيرة.. مما يلفت نظر الرئيس عبد الناصر.. الذى يطلب من أحد معاونيه وليكن مثلا سامى شرف.. معرفة حكاية لطفى الخولى بالتفصيل.. فى الوقت الذى يكون فيه التقرير جاهزاً للعرض على الرئيس وفيه كل ما يدين لطفى الخولى من اتهامات صحيحة وغير صحيحة.. وأحيانا عبد الناصر كان يرى بعد فوات الأوان أن ما جاء فى التقرير غير صحيح.. وكان عليه أن يأخذ به لأنه تقرير مرفوع إليه من جهات عليا فى الدولة.. وأنا هنا لا أعفى عبد الناصر من المسئولية لأنه كان عليه أن يضع آلية معينة تضمن صحة التقارير التى ترفع إليه بدون تحيز أو اتهامات باطلة لأحد.. بجانب أن الاعتقال بدون تهمة هو شىء مذموم.. أضف إلى ذلك أن ما جاء بهذه التقارير يضعك تحت المراقبة وأحيانا تمنع من السفر ومضايقات أخرى كثيرة..

وفى اعتقادى أن ما يحدث من مثل هذه الأمور هو جزء من الصراع السياسى الذى يعالج بطريقة غير صحيحة وفردية.. وعبد الناصر لم يكن دكتاتورا ولكنه كان حاكما

فرديا.. لا يـؤمن بالديمقراطية باعتبـارها عقبة معطلة للانطلاق نحـو التنمية.. وطبعا كان ذلك تصورا خاطئا إلى أبعد الحدود..

وبأمانـة الكلمة.. أقول لك إن الـرئيس السادات في نهاية تعقيبـه على ما أثرتـه معه آنذاك.. قد وعدنى بشكل عام أنه لن يلتفت لتلك التقـارير.. وأنه قد قطع عهدا على نفسه بأنه سوف يناقش كل مفكر ياتى ذكره فى أحد هذه التقارير.. ومواجهته بهذه التهم..

***وأخيرا.. لـو كـان الأستاذ لطفى الخولى رئيسـا للحكومـة أو وزيـرا للداخليـة وعرضت عليه أسماء مفكرين معتقلين منهم لطفى الخولى.. ماذا سيفعل؟..**

- الحقيقـة أنك تضعنى فى مـوضـع مستحيل.. وهـذا نوع من الأسئلـة الصحفيـة الذكية.. وأحب أن أؤكـد لك أننى لم أجرب أن أكون رئيس حكومة أو وزيـرا للداخلية.. ولـذلك لا أستطيع أن أقـول لك لأن رئيس الحكومـة يكـون مقيدا بـأنظمة أمن معينـة ومتطلبات جماهيريـة مفروضـة عليه.. ولكن بشكل عـام أحب أن أؤكد لك إننـى ضد الاعتقـال على طـول الخط لأنه لا يفيـد.. ولم تنجح عمليـة اعتقـال المفكـرين.. لأنك فى الحقيقة تعتقل الجسـد ولكنك لا تستطيع أن تعتقل العقل الذى يخرج منه هـذا الفكر.. لأن خروج الفكـر من عقل الإنسان حتى فى هـذه الحالة يصبح الفكـر ملكا للغير وليس ملكا للمفكر فقط..

الحكاية السادسة يرويها جمال الغيطانى:

واكتشفت أن صرخات التعذيب داخـل المعتقـل.. اسطوانـــة

العثور على كلمـة تصلح كى تكون بدايـة موقفـة لمثل هذه الحوارات.. مهمة شـاقة وعسيرة.. وربما تنبع هـذه المشقـة من إحســاسك بأهميـة الموضوع.. وأيضـا أهميـة الضيف المتحدث، من أجل ذلك وفى مثل هذه المواقف وهذه المهام العسيرة أستمع جيدا.. وأقـرأ ذلك بنفس الصفـة.. أمـلا فى العثـور على ما أبحـث عنه وتكـوين بـدايـة طيبـة ومرضية.. ومعبرة عما سوف أقوله من بعدها..

والكاتب الأديب الصحفى المفكر الغيطانى يجعلك تعيش لحظات رهبة وخوف وقلق حين يحدثك عن مثل هذه التجربة التى أثارت بداخلـه الشجون.. وعادت بذكرياته ألف عام.. حتى قبل أن يولد.. لأنه لم يكن يتصور فى يوم من الأيام أنه سوف يدخل السجن ويعتقل.. ويزج به فى زنزانة ضيقة.. وحيدا مكـروبا.. ولسوف تشعر عزيزى القارىء بأنك مشـدود مثلى مع كل كلمة قـالها لنـا خلال هـذا الحوار الذى لم يخل من لقطـات إنسانية تذيب القلب.. وتوجع البدن والعقل..

وبـالاستماع الجيد والإنصـات لكلمات المفكـر والأديب جمال الغيطانى من خـلال شريط التسجيل اكتشفت أنه قد دخل تجربة الاعتقال، وهو لايزال صغير السن.. وقبل أن يدخل عالم الصحافة.. فقد كان وقتها لايزال فى بداية الطريق نحو عالم الأدب وعالم الشهرة.. ولـولا الإصرار بداخله.. واحســاسه بمرارة الظلـم الذى وقع عليه لكـان قد انسحب من الســاحة كلية وآثـر السلامـة وأعطى للأدب والصحـافة والفكـر ظهره.. والتحم بالحياة العملية.. خـوفا ورعبا من تكرار نفس التجربة.. ولكـن الذى حدث هو العكس.. فقد ولّدت لديه تلك التجربة الرغبة فى مواصلة المشوار نحو عالم الفكر والأدب بمفهوم جديد.. لايقترب من عالم السجن.. ولايخاف منه.. ولكنه يحاول من خلال قلمه أن يقاومه كظلم يقع على الإنسان.. وتراه فى ذلك قـد عبر عن هذا العالم الغريب ومآسيه المتنوعـة فى العديـد من كتبه وروايـاته.. وإن لم يكـن بشكل مباشر على طـريقة كتـابة المذكرات أو تسجيل وقتى لأحداث تلك الفترة..

أضف إلى ذلك أن تعرضه لمثل هذه التجربة وهو فى سنه المبكرة دون أن يكون ذا باع طويل فى عالم الفكر والمفكرين.. أثار حفيظته وخلخل كيانه.. وفرض على واقعه سلسلة طويلة لاتنتهى من الأسئلة.. يأتى فى مقدمتها السؤال التقليدى.. لماذا؟.. ومن أجل البحث عن إجابة شافية له، قرر أن يدخل المعركة بفكره وبقلمه ينقل الصورة بلا رتوش.. أملا فى أن يستفيد غيره من المفكرين من هذه المحنة التى اعتبرها البداية الحقيقية لوجوده داخل هذا العالم.. وبصرف النظر عن الانتماء الفكرى أو السياسى الذى ليس هو مقصدنا من هذا الحوار.. فقد دخل جمال الغيطانى السجن بتهمة الشيوعية.. وهو لم يكن يدرى وقتها ضخامة هذه التهمة أو المصير الذى ينتظره من جراء الاقتراب من مجالها.. ولكن ذلك قد حدث وكان عليه أن يقرر وأن يختار..

وفى بحثنا الدائم عن كلمات سطرها المؤلف هنا أو هناك تكون معبرا نطمئن إليه.. فى بداية حوارنا كمدخل للحديث القادم.. وجدنا تلك الكلمات نائمة فى أحضان مجموعة قصصية.. صحيح أنها ليست الوحيدة من نوعها.. بل كتب غيرها الكثير متأثرا بتجربة السجن.. إلا أنه وبنفسه قد رشح لنا هذه المجموعة كى نبحث بين سطورها من أجل العثور على المطلوب.. ولقد وجدنا ضالتنا فى بعض عبارات وجمل هذه القصص مثل قوله فى قصة «رسالة فتاة من الشمال»: عبرت الأرض الساخنة الصفراء، حرارة تخترق نعل الحذاء الخفيف وتؤلم باطن قدمى.. لم يقترب موعد الغداء، عندما تتجاوز الشمس منتصف السماء وتميل عنه.. عندما يزحف الظل الرمادى من أول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثانى والثالث حتى الرابع.. ينطلق نفير الغداء، بجوار جدار حجرى قصير البناء فكروا يوما فى إقامته ثم عدلوا، جلس أربعة زملاء..

وفى موضع آخر من نفس القصة يقول معبرا عن تلك المشاعر التى سجن من أجلها على لسان الفتاة التى بعثت إليه برسالة من بلاد الجليد.. أننى آسفة قد أكون آلمتك بهذا الوصف لذوبان الجليد، لأننى أعرف أنك مقيد، لكننى أحترمك جدا.. ولا أعرف هذه المبادىء التى قيدوك من أجلها ربما لا أميل إليها لكننى أحبك وأحن إليك وإلى من معك.. فأى شىء أعظم من أن يسجن الإنسان من أجل مبادىء يؤمن بها.. إننى فتاة من آلاف يعشن فى بلاد الثلوج البعيدة عنك، ولن ترانى ولن نتصافح بالأيدى.. ولو لم أقرأ اسمك فى نشرة الجمعية التى أنتمى إليها لما سمعت عنى أبد.. كذلك أنا لا أعرف عمرك ولاسنك ولا أوصافك.. لكنى أعرف أنك لاتمشى فى الشارع كما تشاء ولا تأكل كما

يجب، ولا تنـام كما ينبغى أن تنام.. وأعـرف أنك إذا رغبت فى رؤيـة أهلك لن تـراهم.. كذلك صديقتك وزوجتك..

❊❊❊

وكلمات كثيرة نثرها جمال الغيطانى هنا وهناك.. من أجل أن يصف لنا تجربته مع السجن.. وفى كل مرة سوف نتوقف عند إحداها.. وعلينا منذ هذه اللحظة أن نعد أنفسنا من أجل سماع تفـاصيل الحوار الذى دام أكثـر من ساعتين.. وتم تسجيلـه على ثلاث مراحل.. وقد لعبت الحالـة النفسية للأديب والمفكر دورا عظيما فى تحديد مـواعيد هذه المرات الثـلاث.. فلم أكن أتصور ولا هـو كـذلك أن مثل هـذا الحوار سوف يفتح عليـه أبـواب التاريخ وذكـريـات الماضى.. ويقلب مواجـع القلب التى لعب الزمـان دوره فى شفائها.. وكأنما رأيته لأول مرة وهو يدخل المعتقل.. خائفا مرتجفا.. صحيح أنه رحب بالفكرة.. ولكننا عندمـا بدأنا التسجيل.. ومع دوران الشريط.. انفعل بشدة.. وخرجت الذكريات من فمه مصحوبة بآلام ذلك الماضى القريب والبعيد فى آن واحد..

وآه لـو كنتم معى حين التسجيل.. وسمعتم كلماتـه التى أخذ رنينهـا يـزداد داخل الغرفة التى ضمتنا لحظتها.. فحتما سوف تشعرون بسخونة هذه الكلمات ولهيب تلك الجمل الاعتراضيـة العديـدة التى نقلت لنـا الصورة بـدون رتـوش.. وكان لابـد من التسجيل.. فهى كلمة للتـاريخ بصرف النظر عن الفكـرة السياسيـة أو الانتماء.. مادام صاحبها ينادى بها فى سلام وبعيدا عن استخدام وسائل العنف، لإيماننا بأنه لا يقارع الحجة إلا الحجة وأن اللجوء لاعتقال العقل والبدن كوسيلة لإبطال مفعول الفكرة.. هو تصرف عاجز.. ويدل على القصور فى التصرف.. وما هذه الحوارات إلا خطوة على طريق تصحيح المسار وتنمية الشعور العـام والإحساس بأن المفكرين مهما شطحت آراؤهم وأفكارهم لايكـون مصيرهم السجن ماداموا لايلجـأون إلى العنف من أجل تطبيق هذه الأفكار.. وحتى لو ثبت عليهم هذا الأمر.. فإنهم لابـد وأن يحاكموا وفقا للقانون.. ولا يصدر ضدهم أوامر فوقيـة قبل سماع دفاعهم.. أو يزج بهم وراء القضبان قبل النطق بالحكـم.. فالقضاء العـادل هو رمـز الحرية.. وهـو السيف المسلط فوق جميـع رقاب العباد دون تفرقة.. والعبرة هنا بالأدلة..

وكما تعودنا.. سوف نترك للضيف حريـة التصرف.. وبداية الكلمة ونهايتها.. ولن

نتدخل إلا من أجل إدارة الشريط وإيقاف دورانه.. أو وضع ملامح لسؤال نراه بداية لحوار جديد.

***

وكانت بداية الحوار هكذا بعد كلمات الترحيب والثناء المعتادة..

*** نريد أن نعرف من الأديب المفكر الصحفى جمال الغيطانى كم مرة دخل فيها السجن؟..**

ـ مرة واحدة فقط. وكانت بالتحديد فى ٩ أكتوبر ١٩٦٦ فجرا، حين طرق الباب واقتحم شقتنا الصغيرة جدا بحى الجمالية ضابط مع مجموعة من العساكر بزيهم المدنى.. وكان وقتها عمرى لايتعدى الواحد والعشرين عاما.. تقدم منى الضابط فى ذلك الوقت المتأخر من الليل بعد أن فتحت له الباب.. وذكر لى اسما أعتقد أنه اسم غير حقيقى.. وإن كنت مازلت أذكر ملامح وجهه جيدا حتى هذه اللحظة..

المهم دخل شقتنا ومعه ثلاثة من المخبرين الذى انتشروا بسرعة داخل الشقة التى كانت فى ذلك الوقت غرفتين وصالة.. وبدأت عملية تفتيش واسعة لكل الموجود بالشقة.. ولفت نظرى إصرارهم على تفتيش كل ورقة وكتاب موجود بالشقة.. ويبدو أننى كنت سيىء الحظ.. لأن هذا الضابط أخذ منى كمية كتب ضخمة أنا مازلت حتى هذه اللحظة متحسرا عليها وحزينا بشدة لأن أغلبها كانت كتبا من كتب التراث النادرة.. حيث كانت هوايتى فى هذه السن المبكرة تدور فى فلك كتب التراث القديمة.. وأسعى جاهدا لجمعها ولشرائها بأى ثمن.. أيضا استولى على كمية ضخمة من الكتب الماركسية التى كانت متداولة بكثرة فى ذلك الوقت..

أيضا على ما أذكر استولى الضابط على كمية من الورق الأبيض الذى كنت أكتب عليه وكنت أحصل عليه من عملى أو من أحد أصدقائى العاملين بالآلة الكاتبة.. والغريب أن رزم الورق هذه قد آلمتنى كثيرا وسببت لى أزمة نفسية لأننى أبدا لم أكن أكتب إلا وهى بجوارى.. وتقدر تقول.. ربما يرجع ذلك إلى عدم إحساسى بالأمان فى هذه الآونة والخوف.. وقد تتعجب حين أقول لك إن مجموع ما حصل عليه الضابط من هذه الكتب وهذه الأوراق قد ملأ ثلاث ملايات سرير.. حملها المخبرون فوق أكتافهم حين غادروا منزلنا وأنا معهم فى الفجر..

ولا تتصور أن اعتقالى فى مثل هذه السن المبكرة.. وبهذه الطريقة قد أثار أسرتى

الصغيرة.. وأصابها بالفزع والهلع.. فوالدى رجل كـان طول عمره فى حاله.. وقد عاش فى القاهرة لاكثر من خمسين عاما ولم يدخل خلالها إلى قسم بوليس أو ذهب فى مرة من المرات إلى المحكمة.. أما بالنسبـة لوالدتى.. فكان هذا الحدث فى حياتها بمثـابة الزلزال.. أضف إلى ذلك أنه بالنسبة لبقيـة أفراد أسرتى وعلى وجه الخصوص على أخى الصغير فقد أصيب بصرع منذ هذه الليلة.. وظهرت عليه هذه النوبات ابتداء من عام ١٩٦٧ بعد الإفراج عنى.. واستمـرت معه هذه النـوبات.. وظل يعـالج حتى برأ منها منـذ سنوات قريبة..

لقد ولد عنده هذا المشهد الـذى رأى فيه هذا الكم من رجال البوليس الخوف والفزع والصرع الذى ظل ملازما لـه طويلا وأعتقد لمدة ١٨ عاما.. لقـد كان ذلك إحدى النتائج المباشرة والعنيفة لعملية الاعتقال.. جانب آخـر أن الاعتقال كان يتم فى ظروف اقتحام.. ودون أن يذكـروا لك أو لأسرتك إلى أين أنت ذاهب الآن.. وهل سترجع أم لا؟.. لقد كنت تذهب إلى المجهـول.. وفى حالات كثيرة كان يتم هـذا الاعتقال بإهانة ووحشيـة.. سواء فيما يخص الشـخص المطلوب اعتقاله أو أهله.. ومن هذا المنطلق أؤكد لك أن ظروفى فيما يتعلق بهذه الخصوصية كانت جيدة.. ولعب الحظ دوره فى عدم تعرضـى لأى نوع من أنـواع هذه الإهـانات التى كنـا نسمع عنها أو شـاهـدنا بعضهـا.. بل بالعكس حـاول الضابط وقتها أن يهون علينا هذا الأمر.. فتحدث مـع والدى عن بلدته ومولده وأشياء أخـرى من أجل التخفيف عليـه من وقع هـذه المصيبة.. ولكن حينما خـرجت فـوجئت بأفراد الشرطة وقـد وضعونى بين أذرعهم خوفا مـن الهرب.. والمسدس فى ظهرى من جانب آخر.. وكـانت من المشاهد التى أثارت سخريتى فيما بعـد.. فقد تصورت نفسـى من المجرمين العتاه.. أو زعيم عصابة.. لم يصدقوا أنفسهم حين اعتلقوه..

وعلى بعد خطـوات من المنـزل وخارج الحارة فى شـارع قصر الشوق بـالجمالية.. وقفت سيـارة شرطة رمـاديـة اللـون على رأس الشارع لأنها فشلت فى دخـول الحارة لضيق ممـراتها.. وزكبت معهم وسط حـراسة مشـددة.. إلى مبنى المبـاحث العامـة.. ومكثت هناك سـاعة.. وأذكر وأنا موجـود فى إحدى الغرف هناك أننى تقـابلت مع أحد الصحفيين ويدعى محمود عزمى، وكانوا قد أتوا به مع مضبوطات من الورق والكتب.. وقد لفت نظرى داخل هذه الغرفة كذلـك صورة تعلو الحائط للسيد زكريا محيى الدين ومن فوقها الآية القرآنية: «رب اجعل هذا البلد آمنا»..

ولقد لصقت بذهنى طويلا للدرجة التى جعلتنى أكررها كثيرا فى روايتى «الزينى بركات».. طبعا أنا كنت داخل هذا المبنى.. وأثناء تنقلى فى شوارع القاهرة قبل الوصول إليه.. كنت أسترجع الصور الحية للشوارع والأشجار والمبانى.. لإيمانى بأننى ربما لن أشاهدها مرة أخرى.. يعنى احتمال القتل أو الموت كان ماثلا فى ذهنى، لأنه كانت لدى معرفة سابقة بأن مثل هذه الأمور تحدث وراء القضبان.. وربما تكون من نصيبى.. وكان السؤال الذى يتردد فى ذهنى وأنا أتجول ببصرى طوال رحلتى داخل شوارع القاهرة قرب الفجر.. وأنا وسط هذه الحراسة المشددة.. هو متى أشاهد هذه الشوارع من جديد؟.. وهل سيقدر لى أن أراها مرة أخرى أم لا؟.. وبعد أكثر من ساعة داخل مبنى المباحث العامة اقتادونى إلى سجن مزرعة طرة الذى كان مقاما فى ذلك الوقت داخل أحد معسكرات الجيش.. ودخلت المعتقل.. وأثناء تدوين البيانات.. لاحظت أنهم كتبوا أمام اسمى «شيوعى» ونسيت أن أقول لك إننى طوال الرحلة من المباحث إلى السجن كنت مقيدا بالكلبشات ولا أعتى المجرمين.. فكان ذلك طبعا شعورا غريبا بداخلى.. حيث أحسست فعلا أننى تحولت هذه اللحظة إلى زعيم عصابة.. وأنا هنا داخل المعتقل، ومما أثار نفسى أيضا أننى بمجرد دخولى تعرفت على أحد جيراننا بحارة الطبلاوى.. كنت طول عمرى أعرف وأسمع عنه أنه دائم الدخول إلى المعتقلات بسبب أنه من الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٥٤.. ووجدته ينظف أرضية السجن ببدلته الزرقاء التى كانت تختلف عن البدلة التى كنت أرتديها.. وكان لونها الأبيض هو اللون المميز للمعتقلين.. وكان اسمه الأول أحمد..

وفور لقائى به.. أعطانى هدية غالية جدا لم أكتشف قيمتها إلا بعد فترة من وجودى بالسجن.. تعرف ماذا كانت هذه الهدية؟ قطعة جبنه مثلثة الشكل «نستو».. وأوصانى بضرورة الاحتفاظ بها وألا آكلها مباشرة.. وفعلا بعد فترة من وجودى داخل المعتقل اكتشفت قيمتها الغالية على حد تعبير عم أحمد.. وهذه النقطة تجرنا للحديث عن نوع المعيشة والطعام داخل الجدران السوداء.. فالوجبات الثلاث من الفول المهروس بالسوس والزلط.. وكنا نأكله بعد معالجة بالزيت وأشياء أخرى حتى يمكن ابتلاعه بسهولة..

وكانت أنواع الجبن والسالمون.. والمعلبات الأخرى نوعا من الترفيه لايحصل عليه إلا المحظوظ.. وبوسائل ملتوية.. كنا فى الغالب نحصل عليها بالفلوس لأنها كانت تباع

لمن يقدر على الدفع.. المهم أننى دخلت حجرة كبيرة جدا.. وبداخلها فوجئت بعدد كبير من أصدقائى خارج السجن وعدد آخر ممن لا أعرفهم.. وعلى ما أذكر كان من بينهم صلاح عيسى الذى كانت تربطنى به علاقة قوية فى تلك الفترة للدرجة التى اعتبرت نفسى فى طريق الاعتقال بمجرد أن عرفت أنه قد اعتقل قبلى. وآخرون سبقونى إلى نفس المعتقل منهم على ما أذكر عبد الرحمن الأبنودى.. وعلى الشوباشى.. لقد كانوا من الكتاب والمثقفين المصريين المستنيرين فى تلك الفترة.. وبعد فترة اكتشفت أن هؤلاء قد اعتقلوا قبلنا ومنذ خمس سنوات.. أما أنا ومعى الشاعر سيد حجاب كنا ندخل المعتقل لأول مرة.. وهؤلاء كان يجمعهم انتماء واحد يدعى آنذاك «وحدة الشيوعيين».. والذى دخلت السجن بسببه لأول مرة فى حياتى..

فى نفس الوقت تم اعتقال مجموعة من أعضاء الاتحاد الاشتراكى بتهم انتمائهم لتنظيم يدعى «القوميين العرب».. ومنهم مسئولون كبار فى ذلك الوقت.. وعلى ما أذكر منهم الدكتور محمد الخفيف «الله يرحمه».. ولطفى الخولى.. وأمين عز الدين.. والدكتور إبراهيم سعد الدين هؤلاء الذى كانوا على مقربة من النظام فى ذلك الوقت.. الأمر الذى جعلنا نتصور ببلاهة أنه قد وقع انقلاب يمينى فى مصر.. مما أدى بهؤلاء إلى دخول المعتقل..

*** ليسمح لنا الأستاذ جمال الغيطانى أن نقاطعه كى نسأل.. كم مدة قضاها داخل السجن؟..**

ـ أنا مش فاكر. لكن أقدر أقول لك .. إنها بدأت بأسبوعين انقطعنا خلالهما عن العالم تماما.. ثم بدأ استدعاؤنا فى مجموعات إلى السلخانة وهو لفظ كان يطلق على سجن القلعة.. للتحقيق ووقتها كنت أصغر معتقل ربما فى مصر كلها، ولذلك لم أكن أملك خبرة فى هذا المجال.. وقد تعرفت فى هذه الآونة على بعض الشيوعيين من الطبقة العمالية منهم مثلا عم منصور زكى ومحمد بدر.. وقد بهرتنى شخصيتهم.. واكتسبت من وجودهم قبلى خبرة طويلة.. للدرجة التى جعلتنى مصدر تشجيع دائم لهم طوال إقامتى فى السجن الحربى.. حتى وفى فترات التعذيب. أيضا.. المهم فى ليلة من الليالى.. فوجئت بأنهم ينادون على اسمى.. فخرجت أنا والدكتور صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى.. وشخص ثالث لا أذكر اسمه.. وتوجهنا إلى إحدى السيارات التى سوف تنقلنا إلى سجن

القلعة للتحقيق.. وأثناء جلوسى بالقرب من ضابط الحراسة وقع بصرى على الجواب الخاص بالترحيل.. وقرأت فيه عبارات تقول: أمر بترحيل فلان وفلان.. وفلان.. تحت الحراسة المشددة مع العلم بأنهم من الخطرين..

وبناء على ذلك شددوا الحراسة علينا وأحاطوا سيارتنا بسيارات أخرى أمامنا وخلفنا.. وفى هذه اللحظة انتابنى احساس بأننى لن أعود مرة أخرى، خصوصا ونحن فى طريقنا إلى السلخانة ومعقل التعذيب بأنواعه المختلفة.. وللمرة الثانية أسمح لخيالى بالتقاط صور من الشارع فربما لن يسعدنى الحظ وأراها مرة أخرى.. وداخل القلعة توقفت بنا السيارة أمام باب أثرى عتيق.. وأخذونا معصوبى العينين فى طابور، ووضعونى فى زنزانة كان رقمها آنذاك (٣٤) وحبست فيها انفراديا.. وقبل أن أدخلها سبقنى إليها أحد العساكر المدنيين حيث قام برش أرضية الزنزانة بماء مثلج.. وأمرنى بعدها أن أدخل كى أنام.. وكنا وقتها فى شهر أكتوبر والبرد على أشده.. ولا توجد أغطية سوى بطانية.. والنوم على الأسفلت.. لقد قضيت هذه الليلة واقفا..

وحين نعود لحكاية الأكل داخل هذا المعتقل الجديد.. أقولها كلمة حق أن نوع الأكل كان جيدا إلى حد ما عما رأيته فى سجن مزرعة طرة، وبعد يومين من وصولى.. بدأت حرب الأعصاب.. فقد بدأت أسمع يوميا صراخ طفل يعذبونه.. وعلى ما يبدو كانوا يصعقونه بالأسلاك الكهربائية فى بعض أعضائه التناسلية.. وأقول لك إننى لم أسمع فى حياتى مثل هذا الصراخ الذى كان يذيب قلبى وعقلى ويهزنى من الداخل للدرجة التى جعلتنى أقضى يومى بأكمله داخل الزنزانة واقفا مرعوبا محاولا أن أبعد عن أذنى هذا الصراخ المروع.. وفى تجربتى أعتقد أن صوت التعذيب أقوى تأثيرا من التعذيب نفسه.. وبعد أن مكثت أسبوعا على هذه الحالة السيئة وداخل الزنزانة الحقيرة التى لايتعدى حجمها عن أربع خطوات.. استدعيت للتحقيق.. واقتادونى معصوب العينين مع وجبة دسمة من الضرب بالشوم والركل حتى تصل إلى المحقق.. وحتى عندما وصلت هناك دخلت مكانا لم أشاهد معالمه لأننى كنت لا أزال معصوب العينين.. وبعد لحظات انهالوا على جسدى النحيل وفى هذه السن المبكرة ضربا وركلا بطريقة وحشية لم أسمع عنها من قبل..

ثم فوجئت بهم يرفعون عنى عصابة العين ويدخل رجل أنيق طلب منى الجلوس.. بعد أن عنفهم على هذه الطريقة فجلست فوق كرسى بدون ظهر.. ويقف خلفى رجلان

يحمـلان الشـــوم.. وبـدأ يســألنى عن شخصى واهتمامــاتــى الشخصيــة وانتمائى السياسى..

ولما لم أستجب شتمنى بأمى.. ولا أغالى حين أقـول لك أن هذه الشتمة هى أكثـر ما آلمنى فى هذه الرحلـة.. ومن بعدها اقتادونى مرة أخرى بنفس الطـريقة، حيث زنزانتى من جديد.. وهـذه المرة أحسست براحة نفسية بـدون أن أعرف السبب.. واسمح لى أن أقول إنه تنتابنى حالة عصبية كلما أحكى هذه المواقف فاعذرنى..

ثم مرة أخرى استدعيت للتحقيق من جديد وتعرضت لنفس التعذيب.. وبعد أسبوع آخر اكتشفت ولعلـك سوف تضحك أن صراخ الطفل الـذى حكيت لك عنه منـذ لحظات كان مجرد اسطوانة مسجل عليها هذا الصوت وكان الغرض منه إرهاب المعتقلين.. وقد اكتشفت ذلك من تكرار إذاعة نفس الصوت وبنفس الطـريقة وربما فى أوقات مختلفة.. وكانوا يتعمدون إذاعة هذه الاسطوانة عند قدوم دفعة جديدة من المعتقلين..

ولعلى أذكر أننى قد قضيت فى الحبس الانفرادى داخل هذه الـزنزانة أربعة وثلاثين يوما.. دون أن يتم أى اتصال بيننا.. ولكن مع الأيام استطعت أن أعرف من هم جيرانى من المعتقلين وعلى ما أذكر كان فى الزنزانة الانفرادية التى أمامى.. الشاعر عبد الرحمن الأبنودى.. وعرفت بوجـوده بالقرب منى عن طريق المخبرين الذين كـانوا يتسامرون معه اعتقادا منهم أنه شاعر الأغنية المشهورة «على حسب وداد جلبى» التى كان يغنيها عبد الحليم حافظ..

وقتها كان الأبنـودى شاعرا مشهورا.. وكـان نجما يحاول بعض المخبرين التقرب إليه.. واكتشفنا بعد ذلك أن تلك الحفاوة التى كانوا يعاملون بها الشاعر الأبنودى كانت تتم بناء على تـوجيهات شعراوى جمعـة ـ وزير الـداخلية ـ فى ذلك الـوقت.. والذى تم اعتقالنا بعد دخوله الوزارة بأربعة أيام تقريبا.. وقد سمعت منه هذه التعليمات.. حين جاء لتعزيتى فى وفـاة والدتى عام ١٩٨٣.. وقتها تغير الزمن.. وبعدهـا صرنا أصدقاء خلال فترة السبعينات وما بعدها..

وفى أثنـاء لقـائى معه فى سرادق العـزاء سألنى.. هل اعتقلـوك يـاجمال؟.. فأجبتـه بالقول: طبعـا.. اعتقلت رابع يوم دخولك وزارة الداخليـة ياسيادة الوزيـر.. وكان هذا اللقاء فرصـة طيبة كى يحكى لى كيف تم اعتقالنا.. وكان يركـز فى حديث لى على وجهة

نظره الأمنية فيما تم اتخاذه ضدى وضد الآخـرين من رجال الفكر الذين اعتقلوا معى أو قبلى..

أعود بك من جديد إلى حديث السجن.. فقد نقلونى مرة أخرى إلى سجن مزرعة طرة بعد هـذه الأيام السـوداء.. ولا أذكر لحظات فـرح فى حياتى مثل لحظـات خروجى من السجن الحربى إلى سجن طره..وكأنما ولـدت من جديد.. ودعنى أقـول لك إن لحظات الفرح فى حيـاتى تعد على الأصابع منهـا يوم حصـولى على دبلوم الصناعـة.. ويوم أن استلمت أول مرتب لى.. واليوم الثالث يـوم انتقالى من سـجن القلعة.. وعلى ما أذكر حين عودتى ولقاء الأصدقاء.. وأخذت أتحدث معهم ١٢ ساعةمتواصلة وبلا توقف.. وكانت المشكلة لمن كانوا معى فى السجن الحربى وعادوا معى من جديد إلى سجن مزرعة طره.. هى من الذى له الحق فى أن يتحدث أولا قبل الآخر..

وفى طره.. مكثت بالضبط خمسة أشهر وأربعـة أيام.. وتم الإفراج عنى بعدها حين جاء إلى مصر الفيلسوف الفـرنسى سارتر.. وتقريبا كـان ذلك فى مارس عام ١٩٦٧.. ووقتها كـان اعتقالنـا له دوى خاص فى أوسـاط المثقفين فى أوروبا.. الأمـر الذى جعل الفيلسوف سـارتر يحمل معه إلى القـاهرة طلبا خـاصا للرئيس عبـد الناصر بضرورة الإفراج عنا.. وتمت الاستجابة لهذه الطلبات، حيث أفرج عنا.. وحين خرجت من المعتقل وجدت نفسى مفصولا بقـرار جمهورى من عبد الناصر شخصيـا.. وكنت أيامها أعمل موظفـا كرسـام سجاد فى أدنى درجات السلم الـوظيفى، وقبل وجودى هنـا فى أخبار اليـوم فى مؤسـة التعـاون الإنتاجى وفقـا لتخصصى كحـاصل على دبلـوم الصناعـة تخصص السجاد..

المهم حينما ذهب والـدى لاستـلام مـرتبى كـالمعتـاد.. أبلغـوه بأننى أحلت إلى الاستيـداع.. ومعنى ذلك أنـه سوف أتسلم مـرتبى لمدة سـتـة أشهـر ثم أتسلم نصف المرتب لمدة سـتـة أشـهر أخـرى.. وقد شـاهد والـدى بنفسه تـوقيع جمال عبد النـاصر الشـخصى على قرار الإحـالة والذى كـانت تقول كلماتـه «يفصل جمال أحمد الغيطانى أخصائى السجاد بمؤسسة التعاون الإنتاجى ويحال إلى الاستيداع».

ولا تتصور كيف كان شعور والدى حين عرف بأننى قد فصلت بتوقيع عبد الناصر شخصيا.. فقد اعتقد أننى قد ارتكبت كارثة مثلا.. ضبطت فى شبكة تجسس أو اشتركت

فى قلب نظام الحكم.. حاجة كدة تساوى توقيع الرئيس عبد الناصر الشخصى على قرار فصل موظف مثلى..

❊❊❊

❊ نريد أن نعرف.. ما هو تأثير تجربة السجن على جمال الغيطانى كأديب وصحفى ومفكر أولا.. وثانيا على الفكر المصرى بشكل عام؟.

ـ شوف.. أستطيع أن أقول لك إننى لأول مرة داخل السجن آخذ فرصة إجبارية للانفراد بالذات.. خاصة طوال الأيام الأربعة والثلاثين داخل الحبس الانفرادى.. لدرجة أننى اكتشفت نفسى معجبة بهذه الوحدة الإجبارية.. ولعلمك الزمن داخل الزنزانة الانفرادية يمر بأسرع مما تتصور لعدم وجود حركة.. إذن الزمن فى هذه الحالة قد تم إلغاؤه.. وفى داخل السجن قررت ألا يكون لى أى علاقة بأى حزب سياسى.. ثانيا: التفرغ التام للكتابة والفكر.. أما ثالثا: فقد زادت مرارتى من النظام.. الأمر الذى جعلنى أعبر عن هذه المرارة فى كل ما كتبت..

ولعلى أذكر لك أننى عبرت عن هذه التجربة فى أكثر من كتاب.. على سبيل المثال قصة قصيرة اسمها المغول وهى موجودة فى المجموعة القصصية «أرض أرض».. وفيها تجربة من التاريخ ثم المجموعة القصصية «أحراش المدينة» وأيضا تجد جدوى هذه التجربة تقف وراء قناع من التاريخ فى رواية «الزينى بركات».. المهم أن قضية قهر الفكر هذه ظلت شغلى الشاغل فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن، وتمثل ذلك فى إحساسى بالمطاردة والخوف من المستقبل، وأيضا كان لها وقعها على نفسى حتى قبل دخولى السجن.. وعلى ما أذكر.. أنه فى عام ١٩٦٢.. وكنت وقتها دائم الحضور فى ندوة نجيب محفوظ التى كانت تعقد فى كازينو الأوبرا القديمة بميدان الأوبرا ناحية العتبة وتصادف أن دخل علينا وقتها أحد الضباط.. وظل يراقبنا طويلا.. وبعد نصف ساعة تقريبا.. طلب من الاستاذ نجيب أن يكتب له تقريرا عما كان يدور بيننا.

طبعا رفض الأستاذ نجيب وأصر على إنهاء الندوة.. وعندما سألنا عن السبب عرفنا أن الرئيس عبد الناصر فى تلك الفترة كان ينوى زيارة منطقة الأزهر والعتبة ومطلوب من رجال الأمن كتابة تقارير أمنية عن هذه المناطق.. يعنى تقدر تقول إنه فى ذلك الوقت كان هناك جو ملائم لحدوث مثل هذه التجاوزات مع المفكرين ومع غيرهم.. والأغلبية

من المثقفين كانـوا يعدون أنفسهم لمثل هذه المرحلـة.. وقد صورت هـذه الفترة فى قصة بعنوان «أيـام الرعب» ولكنك تستطيع أن تجد تعبيرات مباشرة لى عن هذه التجـربة فى كتابى «تجليات» بجانب ذلك توجد بكل رواياتى إشارات لهذه الفترة ولهذه التجربة..

*** ولماذا يسجن المفكر يا أستاذ جمال؟..**

ـ عندما يتناقض مع واقع النظـام.. وعلى عكس ما يتصور البعض أن الفكر العربى منذ أزمان بعيدة دائم الصدام مع السلطة.. وتقـدر تقول من أيام محنة الإمام أحمد بن حنبل الذى سجن بسبب اختـلافه مع الخليفـة فى مسألة رأى لاغير.. فكان عليـه إما أن يقول مثل قول الخليفة.. أو يسجن.. وقد فضل الاختيـار الثانى.. إنها مشكلة موجودة ولاتزال سمـة من سمات الثقافة العربيـة فإن الحاكم عادة ما يحاول أن يفـرض رأيه ونظامه أولا باللين.. والمراوغة.. وأخيرا بالقهر والعنف..

والمثقف بطبيعة تكوينه قلق ولذلك تجد دائما بينه وبين الواقع خلاف.. وفى رأينا أنه إذا انتهى هـذا الخلاف فى داخل المفكر.. يكـون مصيره فى طريقـه إلى النهايـة.. فى عالم المفكريـن.. وفى حالة مـا إذا أصبح المفكر مـع أفكار السلطة على اقتنـاع حقيقى ودون تزييف أو منافقة، فإنه يصبح جزءا من النظام.. ويبتعد كلية عن طريقه أن يكون مفكرا إلى الأحسن.. أو تقدر تقول إنــه أصبح مفكرا موقوفا.. أمـا إذا أيد السلطة والحاكم عن عدم قنـاعة.. فهو فى هذه الحالـة يتحول إلى نصاب ومهرج.. إن المشكلـة الآن فى العالم العربى كلـه.. هو كيف يحافظ المفكر على استقـلاليته.. والمشكلة أيضـا هو كيف يفهم النظام فى هذه الدولة أن المفكر إذا اختلف معـه فهو ليس ضده وأن أفكاره لصالح بقية الناس.. والجماهير.. فكيف مثلا تقبـض على كاتب قصة.. وتسجنه لمجرد أنـه قد كتب كلمات ضد هذا النظام أو ذاك.. ليس هذا فقط.. بل تصل فى كثير من الأحيان إلى تعذيبه وإهانته.. فى إنسانيتـه وشخصـه.. ودعنى أذكر لك واقعة مرتبطة بعـالمنا الثقافى.. إننى رغم عدم معرفتى حتى هـذه اللحظة بملابسات إعدام المفكـر الإسلامى سيد قطب، إلا أننى على يقين أن الحوار معه كـان سيكون أفيد وأعظم لمصر وللنظام من إعـدامه.. لأن ارتكاب النظام لمثل هذه الواقعة قد فرخ الآلاف من سيد قطب، وأظن الساحة السياسية المصرية تشهد بذلك الآن..

*** نعـود نسأل الأستـاذ جمال الغيطـانى.. عن عـدد الكتب التى كتبهـا سـواء فى مجال الروايـة أو فى غيرهـا داخل السجن أو تأثـرا بهذه التجـربة رغم أننـا عـرفنـا بعضها أثناء الحوار؟..**

ـــ طبعا ظهـرت تجربة السجـن بشكل غير مباشر فى قصص قصيرة مثل «الـزينى بركات» وكتاب «التجليات» وفى مجموعة «وقائع حارة الزعفرانى»، وإن كانت فى كتاب التجليات تقترب من الـواقع قليلا.. أما تجربتــى داخل المعتقل لم أكتبها حتى الآن.. وفى داخل المعتقل نفسه لم أتمكن من كتابـة أى عمل أدبى.. وذلك لأسباب وكما تعرف منها عدم استطاعة الإنسان التعامل مع الـورق والقلم، ومعْ ذلك فقد تمكنت من كتابة قصة صغيرة علي ورق « البفرة» ورق لف السجاير زمـان.. وقرأتها فى إحدى الأمسيات التى كنا نعقدها يوميا داخل السجن.. ثم نشرتها بعد ذلك.. وكان اسمها «أحراش المدينة»..

والغريب أننى كنت مشغولا بفكرة السجن قبل دخولـه وقد بدا ذلك واضحا عندما كتبت قصــة بعنوان «القلعــة» عام ١٩٦٣.. وقصــة أخرى نشرت عـام ١٩٦٥ بعنوان «رسالة فتاة من الشمال»..

*** وهل كانت تجربة السجن بالنسبة لك.. فترة تعتبرها سوداء أم كانت نقطة انطلاق نحو عالم أوسع داخل مجال الفكر والرأى؟..**

ـــ فى بدايتهـا كـانت فترة سوداء.. ولكنهـا فيما بعـد تحولت إلى دفاع حقيقى نحـو الاستمرار داخل عـالم الفكر والرأى والأدب.. اننى أعتبرها بحق نقطـة تحول.. بعد ما اكتسبت خبرة من واقع التجربة.. وربما يـرجع سوادها فى بداية التجـربة إلى افتقادى لعامل الخبرة والخوف والفـزع.. ولكنك حين تندمج فى الحياة الجديـدة وتخلو لنفسك كثيرا تتحول إلى إنسان آخـر.. يفكر بعمق ويقرر أيضا بعمـق وروية.. وانتصارك على نفسك فى هذه الظـروف يكوّن إحســاسك بقيمتك وكيانك.. وبـالتالى تقـرر أن تواصل المسير نحو هذا العالم بثقة أكبر..

وأعود وأقـول لك إننى أعتبر فقط.. فترة التحقيق معى فى داخل السجن الحربى هى النقطة السوداء التى لا أحب أن أعود إلى ذكرها لأنه قد صاحبتها، وكما ذكرت لك، ألوان من التعذيب لى ولغيرى من المثقفين.. أما فى أيام السجن الأخرى فقد كانت خلوة إجبارية تم خـلالها عقد صفقـة رابحة بينى وبين نفسى، حيث اتخذت مجمـوعة من القـرارات وحـددت لحياتــى أساليب جـديـدة.. مـازلت أسير عليها حتى الآن.. ومـن أبرز هــذه القرارات اعتبار الأدب الاهتمام الأول والأخير لنفسى.. وإنه لاشىء يعادل تأثير الأدب بالنسبـة للأديب إلا مواقفه المعلنـة التى تكمل مسيرة حياته.. وبشكل عـام كانت فترة السجن تحديـا حقيقيا لنفسى.. ولقـدراتى.. وإننى حينما أوضـع فى مثل هــذه المواقف

أكسب لقدرتى على تحمل المنافسة والتحديات لذلك كانت فترة خصبة فى حياتى..

واعترف لك أن أكثر الأعمال الأدبيـة الجميلة التي كتبتها بعـد خروجي من السجن مباشرة تأثرا بهذه التجربـة لإيمانى أن الشـىء الصـعب يمكن تحويله إلى دافع له أهمية يمكن أن يستفيد منه الإنسان بشرط توافر المقدرة لدى هذا الإنسان..

*** لـوقلت لك.. مارأيك فى سجـون مصر الآن.. وهل تـواكب تطور الجريمـة فى مصر الآن؟..**

ـ السجون فى مصر الآن هى وريثة عصــور مظلمة فى التاريخ.. أيام العصر العثمانى والمملـوكى.. وكل مـا أتمناه الآن أن تتحـول السجـون إلى معسكرات عمـل للإنتـاج.. فتصـور لو كل هـذا الجيش الكبير أو الطابـور الطـويل من المسجونين قـد توجـه إلى الصحراء.. لاستصلاحها.. طبعا النتيجة معـروفة والفائدة كبيرة.. فى مثل هذه المناطق يتم إنشاء وتكوين معسكـرات عمل تضم هذه الطاقات المعطلـة.. ولا أميل أبدا لتحويل السجون فى مصر إلى سجـون فندقيـة كما يحدث الآن فى أوروبا.. فى هـذه الحالة تخرج عن وظيفتها كوسيلة من وسائل العقاب والردع.. وبشكل عام فإن عالم السجون لدينا عالم رهيب ومخيف.. وبالنسبة لنا.. كان لدينا فى المعتقل بعض التقاليد ومراعاة بعض الظـروف الإنسـانية.. ولكن مـا كنـا نسمعـه عما يقـاسيه المسـاجين الآخـرين شىء لايصدقه عقل..

وفى داخل هذا المجتمع تنتشر الجرائم والرذائل.. وبالتالى يتحول السجن فى مثل هذه الظروف إلى بوتقة لتفريخ مجرمين آخريـن.. إذن فالسجن هنا لا يؤدى دوره كوسيلة للإصـلاح والتهذيب.. بل يساعـد على المزيد من الجرائم.. أما فيما يتعلق بخصـوصية تبعية السجون.. فأنا أفضل أن تكون تابعة لوزارة العدل وليس لوزارة الداخلية.. حتى يكون للوزارة حق التفتيش الدائم.. لأن السجين بعد الحكم عليه يتحول إلى وديعة فى يد الدولة مسئولة عنه حتى يخرج.. وكذلك مصلحة السجون.. لابد أن تكون تابعة إداريا لوزارة الداخلية أما تفتيشا وإشرافا فلا بد أن تتبع وزارة العدل..

*** ولو كان جمال الغيطانى مأمورا لأحد السجون الموجود بداخلها مفكرين.. ماذا كان يفعل؟..**

ـ فى الواقع أنـا أذكر أنه كان يوجد فى المعتقل فى فترة وجـودى أحد الضباط اتصف بالإنسـانية.. وعلى أية حـال.. فإن مأمور السجن فى كل الحالات ما هـو إلا رجل منفذ

للتعليمات.. وأقدر أقول لك من خلال تجربتى إننى قد تعرضت لنوعين من السجن.. سجن التحقيق وسجن الاعتقال.. الأول تديره المباحث العامة.. والآخر يديره أحد ضباط مصلحة السجون واسمه فتحي.. هذا الرجل كان على علاقة طيبة جدا بالمفكرين وكان صديقا للجميع كما كان يعرفنا جميعا.. ويدخل علينا الزنازين فى أى وقت.. وكان يتصدى لحل أية مشكلة تواجهنا..

أما فى حالة وجودى كمسئول عن السجن.. سوف أحاول إنسانيا أن أقترب من عدد أكبر من هؤلاء المسجونين المفكرين.. وأحاول التقرب منهم مع التزامى الكامل بالتعليمات والأوامر.. ويكون تعاملى مع المساجين فى حدود هذه التعليمات وكذلك فى التطبيق.. لأننا اكتشفنا فى كثير من الحالات أن هناك تجاوزات عديدة تصدر من بعض الضباط والبعض الآخر كان ينفذ التعليمات وهو مجبر عليها.. وأحب أن أقول لك إننى لم أتخيل نفسى ولو فى الأحلام ضابط سجون.. حتى ولو فى أعمالى الروائية..

*** ولو كنت رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليك كشف بأسماء معتقلين مفكرين.. ماذا كنت تفعل؟..**

ـــ بصراحة.. أسعى للحوار معهم أولا.. وبالعكس بدلا من أن أصدر أوامرى بالقبض عليهم أواعتقالهم.. لأننى على يقين أن من يسجن مفكرا أو أديبا لايستحق أن اسميه.. ومع ذلك لابد أن تعرف أنه ليس هناك أديبا أو مفكرا فوق القانون.. المهم أن تحاكمه أولا.. وإذا تمت إدانته يقبض عليه فورا وينفذ فيه العقوبة.. وهذه تندرج تحت حالات الإدانة والتحقيق التى يتعرض لها أى إنسان فى المجتمع.. ولكن إذا كانت التهمة فكرا معارضا فلا ألجأ مطلقا إلى عقوبة الاعتقال أو السجن.. بل أسعى إلى مجادلته وحواره.. وبالعكس فإن الآراء المعارضة عادة ما تؤدى إلى فائدة كبيرة للمجتمع.. وأضيف أننى إذا كنت رئيسا للحكومة ومقتنعا بالآراء المعارضة أسعى للحوار معها.. فمن المؤكد سوف أختار وزيرا للداخلية يتميز هو الآخر بنفس الصفة بجانب صفاته الأمنية الأخرى.. ولكن للأسف هذا لايتم عادة فى دول العالم الثالث.. لأن كل رئيس حكومة همه الأول إرضاء الحاكم وفقط..

الحكاية السابعة يرويها صلاح عيسى:

حكايتى مع السـجن بدأت فى عهد عبد الناصر!!

لم أجد كلمات تعبر عن محنة السجن بالنسبة للمفكر، فيها الصدق والمعاناة.. والألم والقوة.. سوى ما كتبه الزميل الصحفي صلاح عيسي من كلمات كان ينشرها هنا وهناك بين الحين والآخر.. هذه حقيقة نقلتها بإخلاص ولا أعرف السبب.. فقد حرصت أثناء إجراء هذه الحوارات على قراءة أكبر عدد من الكتب التى طرحها هؤلاء المفكرين.. سواء قبل أن أسجل معهم أو بعد التسجيل.. ورأيت في بعض كلماتهم التى سطروها في هذه الكتب مدخلا دفعنى بقوة نحو المضي قدما نحو عالم السجن وتأثيره على المفكر وحياته وتكوينه..

وكثيرا ما كنت أمر على ما كتبوه بسرعة دون أن أتأثر أو يصيبنى الغم والهم.. إلا صلاح عيسى.. لقد ظلت كلماته التى قرأتها عن تجربته فى السجن واقفة فوق صدرى ليال طويلة.. وكثيرا ما حاولت الهرب من تأثيرها.. وسرعان ما يهاجمنى هذا التأثير كلماً أعاود الكتابة عن هذه التجربة من واقع حوارى معه مثل غيره من المفكرين المصريين الذين كانوا ضيوفي عبر هذه الصفحات.. وكنت أفكر فى أن أنقل إليكم بعض هذه العبارات والكلمات، ولكننى تراجعت في الوقت المناسب.. وعقدت العزم على أن أكتفى فقط بما قاله لى وما سوف أنقله إليكم عبر هذه الصفحات من واقع شريط التسجيل ولكننى ربما أضطر إلى الاستعانة ببعض كلماته وسط الحوار.. كى أنقل صورة صادقة لمعاناة المفكر وأحواله داخل الزنزانة.. تعجبا على تلك الأوضاع السياسية التى تسمح لمن يقتربون منها بأن يتم وضعهم فى السجن بلا محاكمة مع اقتناعهم الكامل بأن المفكر هو أثمن رجل في المجتمع.. وبه وبأفكاره يتم إنارة عقول الجماهير.. ولكنها الأزمنة الغابرة التى ترفض وتفرض على الإنسان والمجتمع أوضاعاً يكرهها.. وإن قبلها فهو القهر بعينه..

وبصرف النظر عن شخصية الحاكم أو فترة الحكم.. فإن الحديث يتناول قضية تأثير السجن على الفكر المصرى ولماذا يلجأ رجال السلطة عادة إلي السجن كعقوبة لأصحاب الفكر والرأى..

*****

قبل كلمات هذه المقدمة بثوان كنت أفكر فى استخدام عنصر الزمن كمدخل لحديث هذا الحوار.. ولكننى اكتشفت فى اللحظة المناسبة أننى قد استخدمته من قبل.. ومن ثم كان علينا أن نبحث عن طريق غيره.. وقد كان.. لقد وجدت فى كلمات صلاح عيسى التى كتبها في أحد كتبه تحت عنوان «تباريح جريح» خير مقدمة.. توجع القلب والعقل.. وتجعلك تخاف من الفكر حياة المفكرين.. ولكنها ضريبة الذين يحملون مشاعل الفكر.. ويحلمون بواقع حياة جديدة.. ويتوقعون أيضا حياة النوم فوق الأسفلت وأكل الفول أبو زلط.. مع أنه من العدل أن يعيشوا وفقا لفكرهم ويستفاد بآرائهم مهما اختلفنا معهم.. فإن الخلاف فى الرأى ليس معناه عقوبة السجن والاعتقال..

بقيت لنا كلمة قبل أن ندير الشريط كى نستمع جميعا لتفاصيل الحوار، إننى لا أبغي من وراء هذا المجهود المضنى سوى تسجيل كلمة حق لله وللتاريخ عن واقع فترة زمنية مرت بها بلدنا الحبيبة مصر.. بصرف النظر عن الاختلاف أو الاتفاق في الرأى أو المذهب السياسى أو العقائدى.. لأن الفكر لا يفرق بين هذا وذاك مادام الطريق الوحيد هو الكلمة.. ولا شيء غيرها..

والآن حان الوقت كى ندير الشريط ونسمع الأستاذ صلاح عيسى يتكلم وأنا من بعد التسجيل معه أنقل لكم تفاصيل الحوار عبر هذه الأوراق..

***

*** نريد أن نعرف من الأستاذ صلاح عيسى.. كم مرة دخل فيها السجن أو المعتقل أو التحفظ باعتبار أنها ألفاظ لمسمى واحد؟..**

ـ أنا اعتقلت في أول مرة في ٤ أكتوبر عام ١٩٦٦ والسبب ثلاث مقالات نشرتها في إحدى صحف بيروت وتسمي «ملحمة الحرية».. والمقالات كانت بعنوان «الثورة بين المصير والمسير».. وقد اعتبرها القائمون على ثورة يوليو آنذاك أنها نقد حاد للثورة وقائدها.. هذه المقالات نشرت من يوليو إلى سبتمبر.. وبمجرد الانتهاء من نشرها اعتقلت.. وكنت ضمن عدد كبير من الصحفيين والكتاب والمفكرين المصريين.. مثل سيد

حجاب وجمال الغيطاني وعبد الرحمن الأبنودي وآخرين..

ورغم أن هذا الاعتقال كـان قصـير المدة فقد استغرق ستة أشهـر، إلا أنه كان كثيف التعـذيب فى فترتــه الأولى.. وأفرج عنا في مـارس عام ١٩٦٧ ثـم أعيـد اعتقـالي في مارس ١٩٦٨.. والسبب الاتهام بالمشاركة فى مظـاهرات الطلبة التى اشتعلت آنذاك من ١٧ إلى ٢١ فبراير عام ١٩٦٨.. وهـذا الاعتقال كان أطول من سابقـه.. فقد مكثت ثلاث سـنوات بالمعتقل وخـرجت عام ١٩٧١.. أما المرة الثـالثة.. فقد كـانت من عام ١٩٧٥ واستمرت كـذلك عدة أشهر وفيهـا قدمت للنيابـة من الناحيـة الظاهريـة فقط.. أما في جوهرها فكانت أيضا اعتقال.. ومن عام ١٩٧١ حتى هذه الفترة لم أسلم من المضايقات والتحقيقات وبدا الاعتقال في صورة أخرى مثل الرفد من الوظيفة عام ١٩٧٣..

فى هذه المرة الأخيرة التي ذكـرت لك فيها أننى مكثـت أربعة أشهر تم الإفـراج عنى فيما يسـمى قانـونا على ذمة القضية التي لـم تتم حتى الآن.. وفى المرة الرابعـة عــام ١٩٧١ طلبت فــى التحقيق بمناســبة أحداث ١٨ و ١٩ ينـاير ولكننى نجحت فى الهرب هذه المرة لمدة عشرة أشهـر.. فقد جـاءونى فعلا من أجل اعتقـالي مثل كل مـرة.. وفور معرفتهم بى نجحت فى الإفلات والهرب إلى أن قبض على في أكتوبر أو سبتمبر من نفس العام، وقـدمت للمحاكمة على ذمـة القضية بعد أن مكثت أربعـة أشهر داخل السجن.. وكنت من بين الذين برأتهم المحكمة في هذه القضية..

أيضا في عـام ١٩٧٩ قـدمت للمدعـى الاشتراكى للتحقيق معى، ولم يصاحب هـذا التحقيق دخول السجن.. وفي ينـاير عام ١٩٨١ القوا القبض على عندما وزعنـا بياناً فى معرض الكتـاب الذى عقد آنـذاك نطالب فيـه بمقاطعة الجنـاح الإسرائيلى فى المعرض.. واعتقال هـذه المرة لم يستمر طويـلا.. لأنه قد أحـدث ضجة في حينها.. وعلى مـا أذكر استمر ثلاثة أسابيع.. وتم بعدها الإفراج عنى على ذمة القضية.. ولتصفية حساب هذه الفترة تم اعتقـالى أيضاً لآخر مـرة في سبتمبر عام ١٩٨١.. وتم الإفراج عنى بعـد وفاة الرئيس السـادات.. وكنت ربما آخر دفعات هذا الإفراج..

*** يعنى نقدر نقول كم مرة يا أستاذ صلاح؟**

ـ الحقيقـة أنا لم أعـدها، ولكن تقدر تقـول.. ست مرات حتى الآن والحمـد لله.. لم يمسسنا شىء فى عهد الرئيس مبارك.. ولا أظن أنه سيحدث إن شاء الله..

*** فى تصور الأستاذ صلاح عيسى.. ما هو سبب كل هذه الاعتقالات؟..**

ـ طبعـا السبب الأسـاسى هو في معظمـه يتعلق بالفكر والموقف السيـاسى.. وأيضا بالصحـافة كممارسة.. يعنى المرة الأولى كانت بسبـب مقالات نقدية للـرئيس الراحل جمال عبد النـاصر.. وكنت أطالب من خلالها بمسـاحة أكبر مما كـان متوفرا للحـرية والديموقراطية.. وقد اعتبرها عبد الناصر كما نقل لى بعد ذلك خروجا على نظام الثورة.. وعارف السبب يرجع إلى تفتح وعيي السياسى قبل الثورة وارتباطه بديمقراطية حزب الوفـد.. لقد كانت قبضة الـديمقراطية تاثـرا بالجو الذى كان سـائدا قبل الثورة.. هى شغلى الشاغل.

وعلى فكرة فى المرة الأولى أنـا لم أعتقل فقط، بل فصلت، فقد كنت مـوظفا وأكتب في الصحف المصرية والعربية.. وجاء هذا الإجراء بناء على مذكرة كتبها السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت.. وقدمها إلى الرئيس عبد الناصر الذى وقع عليها بالتنفيذ للاعتقال والفصل..

بـرضه فى المرات التـالية.. كـانت بسبب موقفـي من الديمـوقراطيـة فمثلا في عـام ١٩٦٨.. كانت أول مظـاهرات تقوم بعد الثـورة ويتقدمها شباب الجامعـات.. وفى عام ١٩٧٥ كـانت التهمـة الموجهـة إلى أننـى كنت أذهب إلى الجامعـة.. وألقى محاضرات.. وأنادى بـالديمـوقراطية والتعـددية الحزبيـة وفى عام ١٩٧٧.. كـذلك ارتبطت بقضية الديموقـراطية رغم ارتباطها بانتفـاضة الطعام.. وكانت التهمة أننى من خـلال الكتابة والمحاضرات كنت أهيىء الجماهير وأثيرهم من أجل هذه الانتفـاضة.. وفى وقتها حدث بينى وبين رجال النيـابة مناقشـات على جانب كبير من الأهميـة.. لاننى اكتشفت أن ما أقوله فى المحاضرات وما أكتبه وينقل عنى.. كله فيه تحريف.. من هنا تستطيع أن تقول إن السبب يرجع إلي السعى الدائم من أجل قضية الديموقراطية رغم أننى كنت ومازلت اشتركيا.. ولكن الديموقراطية فى تصورى هى جزء من الاشتراكية.

*** مـا هـو تأثير تجربـة السجن على فكـر صـلاح عيسى أولا.. ثم على الفكـر المصرى آنذاك؟..**

ـ هـو طبعا تجربة السجن.. من التجـارب التي لا يمكن أن يمر بها إنسان وخـاصة لأسباب فكريـة وسياسية دون أن تترك تاثيرات أسـاسية فى حياتـه.. سلبية أو إيجابية حسب طريقة الإنســان في التفاعل مع التجربة وحسب الظـروف السياسية التى تعتقل خلالها.. الحبس مثلا في عهد عبد الناصر. كان سببه معارضته شخصيا.. لأن المعارضة

فى أيامه لم تكن مقبولة.. وربما كان يرجع ذلك إلى قوة شخصيته التي جعلت إحساسك بالمعـارضة أمامه لا تسـاوى شىء.. وأيضا إحساسك بأنـك ريشة تقاوم تيارا قـويا لدولة تملك كل شىء.. ورجل يحكم بمفرده..

وعلى سبيل المثال.. كنـت أعمل موظفا فى الـدولة التى يحكمهـا عبد النـاصر.. وبعد دخـولى السجن وخروجى منـه.. فصلت من العمل، وحاولت البحث عن عمل فى مكـان آخر ولم تفلح محاولاتى، لأن الـدولة فى ذلك الوقت كانت تملك كل شىء حتى مقـادير وأرزاق الناس.. فـالشركات ملك الـدولة.. والحكـومة ملك الـدولة.. وكل شـىء.. مما جعلني أعتبر هذا الـرفد نوعـاً من الإعدام البطىء.. لأننى كنت مـوظفاً حكوميـا خريج جامعـة.. وأعمل أخصائيا اجتماعيـا.. ولو كان في يـدي مهنة أخرى لكنت مـارستها.. ولكننى خلقت هكـذا موظف وكـاتب ومفكـر.. لقد كـانت تجربة قـاسية هـزت داخلى بعنف.. ومع ذلك أقـدر أقـول لك إنها أعطتنى في الـوقت نفســه نوعـاً من من التفـاؤل الداخلى.. يعنى كل شىء لا يدوم وأن الأمور فى أصلها مصيرهـا الزوال، وبالتالى ولدت عنـدي قوة دفع إلى الأمـام.. يمكن ذلك لم يظهـر لى فى أول مـرة، فحين خرجت آنـذاك أمشى بجوار الحائط تجنبا للإهانة التي ذقـت مرارتها فى أيام السجن داخل الزنزانة.. لأننى قد تـربيت فى أسرة عودتنى على احترام الـذات وكره الإهـانة.. وبـالتالى تـولدت بداخلى ما يمكن أن تسميه كرامة الطبقـة الوسطى.. ولكن بشكل مبالغ فيه بالنسبة لى شخصيا..

وفي الاعتقال الثانى.. حاول السيد خالـد محيى الدين ونايف حواتمه التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عنى.. ولكنهما أرســلا لى رسولا يحمل لى كلمات عبد الناصر الذى نقل لهما أنه لن يفرج عن صلاح عيسى مادام هو على قيد الحياة.. ولم يقصدنى وحدى بل كنـا ثلاثـة معتقلين أناوالشيخ إمـام وأحمد فـؤاد نجم.. فلا يمكن أن تتصـور أنك سوف تخرج إلى الحياة بعد هذا التهديد.. ولم نكن بالتالى نتصور أنه سوف يموت وهو في عز قوته.. وبجانب أننى رغم هذا التهديد لم أكن أحسب أن يموت عبد الناصر..

بصرف النظر عما أنـا لاقيته وزمـلائى من المفكرين على يد رجـاله.. وكـذلك تفاجأ بقدوم عام ١٩٧٠ وأن عبد الناصر مـات.. وأنك خرجت من المعتقل بعد وفاته.. وكأنما تحققت كلماته.. وفعلا لم نخرج إلا بعد أن مات.. فقد خرجت فى فبراير بعد أربعة أشهر مـن وفاتـه حيث مـات في سبتمبر عـام ١٩٧٠ .. حين قرر الـرئيس السـادات تصفيـة

المعتقلات، يعنى تقدر تقول حياتى منذ الاعتقال الأول كانت بين الافراج والاعتقال والرفد والصعلكة فى الشوارع.. رغم أننى أنتمى إلى أسرة مستورة إلا أن اتجاهى السياسى لم يكن يروق لها.. أضف إلى ذلك أن بعض أفراد أسرتى أغلبهم يعمل في الحكومة فى مناصب حساسة مثل البوليس.. الأمر الذى جعل أغلبيتهم يتنكر لى، خوفا على مناصبهم..

من هنا أخذت اختيارى على عاتقي وبمفردى.. واتخذت من عقوبة السجن وسيلة دفع إلى الأمام حيث الاستمرار فى العمل السياسى والفكر والكتابة والتمسك بحرية الرأى والدفاع عنها.. وفي كل مرة أخرج فيها أجد الحياة بالنسبة لى تبدأ من جديد.. مثلا تجد عملا جديدا أو مصدر رزق جديدوهكذا.. لقد كان ذلك أحد التفاعلات الإيجابية الهامة لتجربة السجن.. من حيث أنها عودتنى على الصبر وحسن الاختيار والانطلاق إلى الأمام بلا رجعة إلى الخلف.. ولذلك تجدنى ووفقا لهذه التفاعلات لم أراجع اختياراتى كثيرا.. ورغم كراهيتى الشديدة لعقوبة السجن إلا أننى بعد المرة الأولى لم أعد أخاف منها.. ولم أخف من تكرارها فى حياتى مرة أخرى.. وأبدأ فى ممارسة طقوس هذه الفترة العقابية.

مثلا تجدنى أظل نائما في زنزانتى أكثر من أسبوعين متواصلين لأننى بالفعل لم أكن أنام خارجها بالقدر الكافى، ربما بسبب التكالب على الرزق.. ومن جانب آخر لاعتقادى الشديد أنك يجب ألا تفكر فى أمر الخروج. لأنك وحسب تجاربى فى هذا الميدان.. لابد وأن تعيش خلف هذه الجدران أكثر من أربعة أشهر.. ثم تبدأ فى التفكير فى عملية الخروج أو الإفراج.

إن السجن بشكل عام له تأثير مهم وخطير على المفكر المصرى بشكل عام.. وأذكر لك مثلا المفكر المصرى سلامة موسى.. فى كتابه «تربية سلامة موسى».. الذى سجل فيه تجربته داخل السجن،.. حيث وجد نفسه بعد أربعين عاما من الكتابة والتفكير والعمل العام.. وسط الحرامية والنشالين والقتلة.. بدلا من التكريم.. وقد قبض عليه أيام صدقى باشا.. إن هذه التجربة تخلق لدى الإنسان نوعا من المرارة.. وعايز أقول لك إن السجن فعلا قرين التفكير فى بلاد تسود فيها الدكتاتورية.. ولا تقبل الخلاف فى الرأى وتضيق بأصحابه، وتجد أن السجن هى المكان الطبيعى لهم..، ولكن من الناحية العملية تجد أن السجن فرصة للتأمل مفروضة عليك بالقوة.. وخاصة فيما يسمى

بالحبس الانفرادى الذى حرمته منظمات حقوق الإنسان.. وكثيرا ماكنا نفكر ونتساءل عمن هو الشرير الذى ابتدع فكرة السجن الانفرادى.

لقد كانت مسألة صعبة جدا.. أن تأتى برجل وتضعه بين أربعة جدران وتتركه أياماً أو شهراً دون أن تعذبه.. فذلك الموت بعينه ومقاومة هذا العذاب يتوقف على ثرائك الداخلى.. بحيث تحاول أن تستثمر هذا السجن وهذا العذاب المتمثل فى الوحدة.. فى إبداع فكرة.. أو تصور واقع.. أو تخطيط لحياة جديدة.. ويأتى ذلك كله من تركيز حياتك فى التأمل.. وهذا فى تصورى هو الطريق الذى يمكن أن يسلكه الكاتب والمفكر فى كسر سم هذه الفترة.

*** وإذا خصصنا هذا السؤال وقلنا.. لماذا يسجن المفكر فى مصر أو فى دول العالم الثالث على وجه العموم؟**

ـ هو طبعا.. الأنظمة عموما فى دول العالم الثالث وفى مصر فى فترة من الفترات قد قامت على فكرة أن الحاكم لايقبل الخلاف فى الرأى، وأن الخلاف بالنسبة له يعتبر تطاولاً عليه شخصياً وانتقاصاً مما قد يؤديه فى وطنه.. وقد يكون يؤدى فعلا لوطنه خدمات.. ولكن المسألة بالنسبة للمفكر هو حالة الاعتراض المستمرة والشاملة التى ربما تكون للكون كله، وفى هذه الحالة لايجد الحاكم الدكتاتور أمامه من وسيلة لإسكات صوت المفكر إلا السجن والاعتقال.. وبالنسبة لمصر كان هناك فى العهد الناصرى خطة عن قناعة تبلورت فى ضرورة تصفية العناصر المعارضة أو المضادة للثورة، ودمج كل التيارات المختلفة فى تيار واحد يقف خلف الثورة.. والذى كان يخرج عن هذا التيار كان لابد من أن يتعرض لعملية بلورة داخل السجون والمعتقلات حتى يخرج كى يؤيد ويقف أمام النظام بدلا من الوقوف خلفه أو ضده، وذلك من جراء مايلاقيه فى هذه المعتقلات من معاملة غير إنسانية وعادة ما يصاحبها نوع من التعذيب والتغريب والمهانة.

وحتى عندما تخرج من السجن تبدأ المرحلة الثانية من هذه البلورة والتى تتمثل كثيرا فى عرض المناصب والإغراء المادى وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. والنتيجة تكون كما يتوقع رجال الثورة.. يصبح المعارض رجلا مبسترا.. قابلاً لأن يقف معهم بكل كيانه ويفقد بذلك فكره و رأيه ويحضرنى فى ذلك مثال سمعته فى جلسة خاصة.. كان يحكيه المتحدث كمثال لما يجرى فى أحد الانظمة العربية.. قال إن ٩٠٪ من شعوب العالم

الثالث تقبل العيش حتى على الكفاف.. والحاكم الدكتاتورى الشاطر هو الذى يستطيع أن يمد هذه النسبة بما يكفيهم من الطعام والشراب، وهناك ٧٪ من هذه الشعوب لاهم لهم سوى جمع الأموال والسرقة، وهؤلاء أمر معالجتهم ميسور.. أما نسبة الـ ٣٪ الباقية فهى تمثل أصحاب الرأى والفكر.. وعادة مايحاول الحاكم القضاء عليهم بالتصفيةوالقتل حتى يأمن شرهم.. ويتمكن من الاستمرار فى حكمه فترة أطول.. لأنه يعرف مقدما أنه سوف يفشل فى التفاهم معهم بالطرق العادية المرتبطة بالبطون والجيوب.. وأن القضاء عليهم بهذه الصورة سوف يجنبه شرهم الذى يمكن أن يمتد لبقية النسبة من السكان.

*** وماهى الطريقة المثلى فى رأيك لمعالجة الرأى الآخر.. بعيدا عن شبح السجن..؟**

- أن تسود حقوق الإنسان فى أن يعارض ويقول مايشاء ويكتب مايشا.. ولابد من الاعتراف بها.. وتنظيم الوسائل التى بها تسود هذه الحريات.. عندئذ فإن حجم المخاوف المصاحبة لسيادة هذه الحريات.. حين الممارسة سوف تقل.. أو تنعدم.. والمهم هو الاعتراف بحرية الرأى والرأى الآخر وفقا للشريعة والقانون والأخذ بهذا الرأى مهما كان معارضا مادام يقدم الحلول.. وعلى ذلك لابد من أن نتوقف عن الاعتقاد بأن الحاكم مقدس ولايجب نقده.

*** نريد أن نعرف بالضبط.. ماهى الشخصيات السياسية والشخصيات العامة التى تعرفتم بها داخل السجن؟ وماهى أهم المواقف الطريفة والمواقف المحزنة التى واجهتكم؟..**

- ياه.. كتير قوى.. وفى كل مرة من مرات السجن أتعرف على الكثير ويمكن أعرفهم قبل الدخول إلى المعتقل بحكم انتمائى السياسى إلى اليسار المصرى الذى كان فى فترة من الفترات أكثر الجهات السياسية تعرضا للاعتقال.. ولكن فى آخر مرة من مرات الاعتقال عام ١٩٨١ شاهدت داخل المعتقل نوعيات مختلفة من المفكرين والسياسيين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية والفكرية.. وأنا أذكر فى اليوم الأول لانتقالنا من سجن الاستقبال إلى السجن الملحق بطره.. وقفت فى زنزانتى أتابع طابوراً من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزنازين المجاورة.. رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها.. تقلبت عليهم العهود والأزمان.. وقد استغرقنى مشهد المرحوم

عبدالعـزيز الشوربجى نقيب المحامين الأسبـق.. وكانوا قد اعتقلـوه من فراش المرض وهو يصعد السلم بأعوامـه السبعين.. بخطوات بطيئة واهنة وحوله عبـدالعزيز محمد وأحمد ناصر يحاولان مساعدته فيرفض بإباء..

وحين استقـرت الأوضـاع وجـدت نفسى فى زنزانـة واحدة وكـانت رقم (١٤) مع محمد عبدالسلام الزيات وفؤاد سراج الدين وقد قاوما بشدة ونبل حقيقى تطوعى بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسيطة فى زنزانتنا المشتركة بحكم سنى الصغيرة، لكنهما اضطرا للرضوخ، ولأن الزنزانة كـانت الوحيدة التى لا إضاءة بها، فقد أمضينا الليالى الأولى نستمع إلى ذكريـات فؤاد سراج الـدين، بينما بقية الـزملاء يقضـونها فى سمر.. ويوما بعـد يوم كانت آلامى النفسية تـزيد وشوقى لأبى يملأ القلـب وخوفى أن يموت فتحول الأسوار بينى وبين أن أقبل جبينه.

هـذه الآلام كنت أصرفها عـادة فى تأمل مناضلى الحرس القـديم وهم يتجولـون فى فسحة الضحى أمام زنـزانتى.. ومنهم كان فتحى رضوان الله يـرحمه وفؤاد مرسى وإسماعيل صبرى عبدالله وابراهيم طلعت وآخرون.

ومن الشخصيات المهمـة التى اقتربت منها كذلك فى هـذه الفترة عبدالسلام الـزيات الذى كان يتميز بأنه قليل الكلام، وبدا لى فى أوقات كثيرة كأنه رجل داخل نفسه.. وكان يـوم ١٧ سبتمبر عـام ١٩٨١ واحدا مـن أيام الحزن العظيم بـالنسبـة لعـلاقتى بهذا الرجل.. فقد جـاء الطبيب والمأمور كى يطلبا من الزيات أن يجمع حاجيـاته لينقل فورا إلى المستشفى، فالسجن غير مسئـول عن حياتـه لأن حالته الصحيـة حساسة للغـاية ورفض الـزيـات بعنـاد أن يـدخل مستشفى السجن.. وبعـد عـدة اتصـالات وافق المسئـولـون على نقلـه إلى أحـد المستشفيـات الجامعيـة وليس إلى أحـد مستشفيـات السجون.. ومن ثم غادرنا الزيات قبل الغروب بقليل واحتضنته مودعا ومشجعا..

أما عن الحكايات والمواقف المحزنة التـى صادفتنى وراء القضبان فهى حكاية موت عبدالعظيم أبو العطـا.. فلم يكن قد مضـى علينا فى السجن سوى عشرين يـوما.. وأذكر أنه وصل ذات غـروب.. حين صاح النقيب سـامى سرحان من الـدور السفلى أن ضيفا جديـدا قد عاد من مستشفى سجـن الاستقبال وهو عبـدالعظيم أبو العطا وزيـر الرى الاسبق.. لقد رأيته فى الصباح وأنا أسلم الزنزانة رقم ١٧ صحفها، رحبت به وحييته وسألته عن أماناته وعما يريده من الكانتين كى أدبره له.. وفى ضحى اليوم نفسه رأيته

مرة أخرى فى العيادة والطبيب يفحصه وقد بدا لى شاحبا وهزيلا أكثر من المعتاد.. ولم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية، لكن وزنه كان يزداد هزالا وكان مصابا بالقرحة فى المعدة ويتطلب غذاء خاصا.. لذلك كان ولأسابيع طويلة يعيش على اللبن الزبادى فقط..

وفى اليوم المشئوم كنا فى انتظاره، فاليوم كان مخصصا لمناقشة محاضرة ألقاها قبل أيام داخل السجن عن مشكلة الأرض الزراعية.. وكنت مازلت أعد الكوبونات التى أوزعها على زملائى.. وكان عبدالعظيم أبو العطا قد دخل زنزانته ليستريح كما سمعته يقول للأستاذ هيكل، ولا أذكر أننى رأيت زميلنا الطبيب على نويجى وكمال الابراشى وهما يدخلان الزنزانة رقم ١٧، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعورا ويصرخ طالبا أنبوبة أوكسجين.

لقد تحركت على الفور فالأنبوبة كانت فى عهدتى داخل الزنزانة وبسرعة شديدة انتقلت الأنبوبة الضخمة إلى الزنزانة رقم ١٧.. وجلست صامتا ولاهثا، عرف الوافدون للمشاركة فى الندوة أن «ابو العطا» يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين.. ومرت دقائق طويلة.. وربما ثوان خرج الطبيب بعدها يصرخ: مات عبدالعظيم أبو العطا.. وعلى الفور أخطر الشاويش محمود الإدارة.. ومضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم، ضباط كبار وضباط صغار.. دخلوا الزنزانة رقم ١، خرج كبيرهم وقال لنا البقية فى حياتكم.. وأنا أذكر وقتها أننى ظللت جالسا أمام الزنزانة حتى تقدم الليل.. جهزوا الجثة استعدادا للرحيل خارج السجن إلى المقابر.. وقتها حاولت أن أمنع نفسى من البكاء فلم أستطع..

*** نريد أن نعرف من الكاتب الصحفى والمفكر صلاح عيسى هل من رأيه أن يكون للمفكرين سجونا خاصة.. أم يزج بهم وسط غيرهم من المسجونين الذين تمت إدانتهم فى قضايا سرقة ومخدرات؟..**

ـــ هو من ناحية الخبرة الإنسانية.. فإن معاشرة أى أنماط أخرى من البشر هى تجربة مفيدة بالنسبة للمفكر.. وبالنسبة لى أنا شخصيا فقد استفدت كثيرا من هذا الاختلاط، سواء وسط تجار المخدرات أو اللصوص أو القوادين.. أو جرائم الثأر.. لقد كان اختلاطا جميلا ومفيدا.. وعلى فكرة أن للسجن طقوسا خاصة به.. وتآلف وتعاطف اجتماعى بعيد الأثر، وأيضا تجد بداخله قوى الصراع والحاجة.. بحكم

الظروف التى تفرض عليك داخل السجن وفيه أيضا نوع من أنواع التسامح باعتبار وجودنا داخل هذه الجدران إقامة جبرية.. وعلى ذلك فلا يجب علينا أن نتشاجر أو نتخاصم ونصدر أحكاما ضد بعض.

ويحدث ذلك أيضا بالنسبة للجرائم الجنائية وإلى آخره.. ومحصلة التجربة.. عالم جديد بالنسبة للمفكرين من الممكن الاستفادة منه والخروج بتجربة ثرية وعظيمة.

ومن ناحية الراحة والمعاملة الحسنة والاحترام، فلابد وأن يكون بالفعل للمفكرين سجنا خاصا بهم أو على الأقل إذا مكثوا فى نفس السجن، فلابد وأن تتوافر لهم حياة أفضل ومعاملة أحسن.. لأن المفكر يحتاج إلى أشياء لايحتاجها المسجون العادى.. من أجل ذلك إذا لم يكن هناك مكان خاص لهؤلاء المفكرين فلابد من الاستجابة لبعض هذه المطالب الأساسية مثلا المفكر يحتاج إلى القراءة والكتب والورق والقلم مثل الأكل والشرب تماما.. وأيضا الاستماع إلى الإذاعات .. فمثل هذه الحاجات لابد وأن تكون مكفولة له داخل السجن.. سواء داخل السجن الخاص به كمفكر أو السجن المختلط.. وعموما السجون المصرية تحتاج الآن إلى ثورة حقيقية لتغيير أوضاعها.. وكان كل مايشغلنا ونحن داخل هذه الجدران أننا حين نخرج لابد لنا وأن نطالب بقوة من أجل وقفة جماعية عن طريقها نناشد بتغيير السجون المصرية شكلا وموضوعا.. وللأسف حينما نخرج لايتم لنا ذلك وكأننا نريد أن ننسى هذه الفترة العقابية من حياتنا.. وفى إحدى المرات على ما أذكر ونحن داخل السجن أقمنا ندوة كبيرة حضرها مثلا الدكتور حلمى مراد واتخذنا قرارات من أجل مناشدة المسئولين من أجل تحسين أوضاع السجون فى مصر.. سواء كنا بداخله أو خارجه.

وعن نفسى حاولت الوفاء بهذا الوعد فور خروجى من السجن.. وعلى صفحات الأهالى خلال أعوام ٨٢، ١٩٨٣ حاولت أن ألفت الأنظار للمعاملة غير الإنسانية التى يلقاها الإنسان المصرى داخل السجن وجندت لهذه الحملة مجموعة من المحررين الشبان من أجل إثارة هذه القضية ومحاولة تحسين الفلسفة العقابية من منطلق أن كل هذه السجون فى مصر اقيمت فى عهد الاستعمار.. أو قل معظمها.. وشهدت فترة من التخلف تبعد عن الفلسفة العقابية المقصود بها.. هو الانتقاع.. وليس الإصلاح.. ولكن الغريب إننى حينما حاولت أن أبدأ هذه التحقيقات.. فوجئنا بنقص المعلومات.. بل ورَفَضَ المسئولون عن السجون إعطاءنا بيانات صادقة عن السجون.

مثلا عـددها وعـدد المقيمين بها وهكذا.. أضف إلى ذلـك أننى أعرف مثـلا انخفاض مستوى معيشــة السجانين.. الأمـر الذى يـؤدى إلى سوء المعـاملة وتحولهم فى بعض الأحيان إلى وحوش آدمية لا هدف لها سوى امتصاص دماء المسجونين..

*** ذكرتم لنا فى حديثكم ردا على السؤال قبل السابق.. أنكم التقيتم بالعديد من الشخصيات العامة والسياسية.. فهل تذكرون شخصيات أخرى غير سياسية أو فكرية؟ وبالضبط شخصيات من المسجونين غير السياسيين؟**

ـ طبعا.. لقد تعرفت على العديد منهم.. وبعضهم من الضباط.. أيوه بعضهم كان من ضباط السجن.. فقـد تعرفت على اثنين من ضبـاط السجون.. منهم واحد كـان وقتها عقيد واسمـه ناصف مختار.. وأرجـو من الله أن يكـون مايزال حيـا.. لقد كان مـدير معتقل طره السيـاسى وهو مسيحى.. فى الفترة التى اعتقلت فيها عـام ١٩٦٦.. وأقول إنه كان مسيحى الـديانة لأنه كان قـائد معتقل طره الذى خصصته الحكـومة لاعتقال الإخـوان المسلمين، فى ذروة معاداة النظـام للإخـوان.. وقـد اكتشفت فى هذا الضـابط نموذجا عاليا من الرجل المصرى الطيب الشهم.

بالفعل لقد كان نموذجا لضابط السجن المصرى الذى يمكن أن تسميه رجل الواجب الذى يؤدى واجبه بالذمـة والقانون والضمير وليس له شأن فى أن يعامل الآخرين بما يفهم منـه استغـلال السلطـات.. مع أنه كـان يمكن أن يكـون ذلك وأكثـر.. واللـوائح والقـوانين كـانت تعطيـه هذا الحق.. إننى أشهـد أن هـذا الضـابط المصرى لم يستغل وظيفته ولا سلطاته فى إيذاء الآخرين طوال إقامتى داخل سجن طره.. لقد كان نموذجا غير طبيعى.. وللأسف لم تـدم علاقتى به بعـد الخروج، رغم أننا قد تعاهـدنا على ذلك كثيرا معه.. ومع غيره من الأصدقاء.. وكان منهـم مثلا اللواء أحمد مصطفى الذى كان فى ذلك الوقت برتبة عميد..

لقد كان هؤلاء نموذجا مشرفاً للضـابط المصرى الذى كان يعامل المساجين معاملة تليق بـآدميتهم.. وكثيرا مـاكـان ينجح فى التعـامل مـع مختلف المعتقلين من مختلف التيـارات السياسيـة.. ولقد كـان يتمتع بـدرجة كبيرة من المرونـة. وتطبيق القانـون وروحه حتى المخبرين داخل السجن وجدت فى بعضهم الإنسانية.. وأنا أذكر فى مرة من المرات أننى كنت معلقا للتعذيب وظللت كذلك طويلا نظرا لتردد المخبرين فى القيام بهذه

المهمة اللاإنسانية لقد شاهدت منظرا ملأ قلبى بالإيمان.. فقد رأيت أحدهم يحاول التهرب من تنفيذ عقوبة التعذيب الخاصة بى.. ويدفع زميلا آخر له.. الذى كاد أن يتنصل من هذه المهمة لولا نظرات الوعيد من أحد رؤسائه.

*** وكم كتاباً ألفه الأستاذ صلاح عيسى فى السجن؟**

ـ من الكتب التى ألفتها بشكل مباشر فى السجن مجموعة قصصية صدرت بعنوان «بيان مشترك».. وقد نشرت فى العديد من المجلات الأدبية فور خروجى من السجن.. ورواية أخرى بعنوان «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا» وطبعت فى بيروت عام ١٩٧٩.. ويعاد طبعها الآن..

هذه الكتب تم تأليفها مباشرة داخل المعتقل.. بجانب ذلك هناك فصول من ذكرياتى داخل السجن نشرت فى بعض الكتب مثل كتاب «تباريح جريح» وبعضها نشرت فى الصحف والمجلات ولم يتم تجميعها لاصدارها فى كتاب أيضا. وفكرة كتاب «حكايات من دفتر الوطن» نشأت وتبلورت داخل السجن.. ولم أستطع تنفيذها هناك لأنه احتاج منى العديد من المراجع.. ولكننى بعد الخروج انتهيت منه وهو الآن موجود بالأسواق.. وعلى فكرة أقدر أقول لك أنا لا أستطيع أن أحصر كل الأفكار والموضوعات التى نبتت فى ذهنى فى هذه الفترات.. ولكن عموما لقد كانت فترة السجن فترة ثرية.. ومهمة.. خاصة لمن لديهم الاستعداد لإيمانى أن هذه الفترة تفجر بداخلك طاقات كامنة يمكن استغلالها بنجاح، ودليل ذلك على ما أذكر أنه كان أحد العمال مسجونا معنا فى عام ١٩٦٨ وكان يعمل برادا.. وكان بجوارى فى زنزانته الفنان التشكيلى محمد حسين هجرس.. الذى كان يمارس هوايته الفنية فى فترة اعتقاله، ففوجئنا فى لحظة أن صاحبنا الذى من حلوان يحاول تقليده ويصنع لنا تمثالا من الحديد والحجر، لقد تأثر بالجو الذى كان يعيشه.. وأعرف أيضا من بين الأدباء والشعراء الذين كتبوا فى السجن الشاعر مجدى نجيب.. حيث كان محبوسا معنا عام ١٩٦٦.. لقد سمعنا وعشنا آلاف القصص والحكايات التى صاحبت فترة السجن بالنبسة للفنانين والأدباء وكانت لهم مصدر إلهام وتفجير لطاقاتهم المكبوتة.

*** مارأى صلاح عيسى فى سجون مصر الآن.. وهل يفضل أن تكون تبعية السجن لوزارة العدل أم لوزارة الداخلية.. ولماذا؟**

ـ سبق أن حدثتك عن أوضاع السجون فى مصر من حيث المأكل والمشرب والمعاملة..

أما فيما يتعلق بـالنصف الثانى من السـؤال.. فأنا على مـا أذكر أن السجن فى فترة من فترات العهد الملكى كان يتبع وزارة الحربية وكان مـرتبطا مثلا بشخصية اللواء محمد حيدر بـاشا.. فإذا أصبح وزيـرا للحربيةأصبح السجن تـابعا لـوزارته.. وإذا أصبح وزيرا للـداخليةأصبح تابعـا له.. وهكذا مـن منطلق أن الملك فاروق كان يـريد تشغيل المساجين فى جمع المحـاصيل واستصلاح الأراضى.. وكـانت هذه مهمـة حيدر بـاشا شخصيا..

أما فى الوضع الحالى فأنا اقترح أن تكون السجون تابعة لمؤسسة يشترك فى إدارتها وزارتى الـداخلية والعـدل.. وأن يكون عليهـا رقابـة قضـائية صـارمة تتـابع تطبيق لوائحها وفقا للمعاملة الإنسانية.. وخصـوصا معاملة المسجون المفكر.. إننى اؤكد لك أنه لابد من وجود رقابة قضائيـة مباشرة حتى فى إطار القانون القائم الآن الذى يعطى للنيابـة حق التفتيش على السجون.. وفى هذه الحالـة يمكن اكتشاف المخالفـات التى قد لاتتعلق بـالمسجون نفسه.. ولكن بـالأوضاع داخل السجـن عموما من حيـث السرقة والاختلاس وأشياء أخـرى من هذا القبيل، خاصة وأن السجـون تتعامل مع متعهدين وهيئات أخرى لها مصالحها أيضا بالنسبة للمسجون الذى يعتبر أمانة لدى الدولة وان إساءة معاملته من الممكن أن يسىء للدولة نفسها.

*** وماذا تفعل لـو كنت مأمورا للسجـن فترة اعتقال مفكـرين ومنهم صلاح عيسى؟..**

ـ بأمانة.. كنت سوف أفرج عن صلاح عيسى من السجن فوراً.. و غير ذلك وايمانا منى بأن الفلسفة العقابية من وراء السجن هى إصلاح السجين.. من المؤكد كنت سوف أقـوم بمهمتى فى حدود هـذا التصور.. حتى يخرج مـواطنـا صالحا وليس الثار ممـا أرتكبه.. لاعتقادى ان الانسان دائما يخطىء ودائما فى حاجة إلى من ينبهه للخطأ.. لذلك أرى أن الفلسفـة العقابيـة لابـد وأن تقوم على محاولـة إصـلاح السجين وإعادتـه إلى المجتمع نافعا وليس ناقما.. فلـو كنت مأمورا للسجن كنت افرجت عن نفسى وطبقت هذه السياسة على ٩٠٪ من المساجين إلا النسبـة القليلة التى يستعصى عليها العلاج.. وهم مانسميهم المرضى النفسيين الـذين يحتاجـون إلى جانب جهود المأمـور.. جهود أطباء النفس..

*** وماذا يكون رد الفعل لدى صلاح عيسى إذا كان فى مقام رئيس الحكومة أو وزير الداخلية وعرض عليك أسماء معتقلين مفكرين مطلوب القبض عليهم؟**

ــ أنا من حيث المبدأ مع مساواة المواطنين جميعا أمام القانون بشرط أن تسود الديمقراطيةوتحقيق مصلحة عامة للوطن.. وبالتالى لابد أن يتساوى الجميع مفكرين وغيرهم أمام هذا القانون.. فى ثلاث حالات إذا كان قانونا ديمقراطيا.. ويحقق مصلحة عامة.. وصادر عن إرادة الشعب.. فإذا ارتكب مفكر أو صحفي أو كاتب أو أى إنسان خطأ يعاقب عليه القانون بهذه المواصفات بما يعني وجود مخالفة تمس الصالح العام وفقا للقانون الذى ارتضيناه جميعا.. من هنا تكون الفلسفة العقابية قائمة على ردع الذين يرتكبون مخالفة ضد الصالح العام وليس ضد الحاكم وحده.. فى هذه الحالة لايكون من سلطاتي أو من صالحي استثناء مفكر أو غير مفكر من القبض عليه والتحقيق معه وفقا لهذا القانون.. لكننى فى ضوء ملاحظاتى العامة لما يجرى داخل المجتمع المصرى لا أعتقد أن المفكر يرتكب مثل هذه المخالفات التى تمس سيادة الصالح العام.. فستكون القضية فى واقع الأمر مجرد مخالفة فى الرأى.. وفى هذه الحالة.. لابد وأنا فى منصب رئيس الوزراء أو وزير الداخلية أن أستدعى هؤلاء المفكرين وأناقشهم.. لاعتقادى أن المفكرين هم الذين يقدمون عصارة أفكارهم لخدمة المجتمع..

وحتى فى حالة ارتكاب نوع من هذه المخالفات.. فهى فى اعتقادى تتم عفويا وبدون قصد.. وعلى هذا الأساس تدور مناقشاتنا مادام هدفنا هو الصالح العام.. إما أن يقنعنى أو أقنعه.. وحتى إذا اختلفنا وتمسك كلانا برأيه فلا يجب أن أعتقله. بل أتركه لأننى على ثقة من أن المفكر ليس لديه فى الحياة سوى رأيه وقلمه لا خطر على المجتمع منه. ولا أقدم على خطوة الاعتقال إلا إذا تحول المفكر إلى إرهابى بمعنى أن يستبدل القلم بالسلاح.. ونادرا ما يحدث ذلك.. وحتى في هذه الحالة سوف أوافق على القبض عليه ومحاكمته وفقا للقانون الذى سبق وأن تحدثت معك عنه منذ لحظات والذى لايفرق بين مفكر وغيره من أفراد المجتمع..

*** فى أعتقادك.. لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع رئيس الدولة؟..**

ـ لأنه قرار سيادى.. يرتبط بوجود أعلى سلطة فى الدولة ولكنه يفوض فيه وزير الداخلية، وعادة مايبادر رئيس الدولة بإصدار هذه الأوامر لأن المفكر له شعبيته

وفكره وتلاميـذه، وخوفا من إساءة استخـدام السلطة ضده.. فهو يبادر بمتـابعة أمر اعتقالـه بنفسه ويحسب حسـابه بـدقة شـديدةحتى لايـؤدى هذا الاعتقـال إلى نتائج عكسية.. وهـذا ماحـدث فى بعض الحالات.. لأن قرار الاعتقال.. هـو فى حد ذاتـه قرار مصادرة حرية الآخـرين بدون سند قانوني.. أما إذا كان هناك سنـد قانونى فلا يلجأ الحاكم إلى الاعتقـال بل يترك الأمـر للنيابـة والمحـاكم.. فإذا رأت جـريمة فـلابـد من معاقبته..

ومن هنا يظل الحاكم محتفظا بحقـه فى هذا الاعتقال.. من أجل تقييد حـرية من يراه خطرا عليه وعلى خطه وعمله فى مرحلة ما..

وكثيرا ما يخطىء الحاكم فى استخدام هذا الحق.. وتقدر تقول إن ذلك لايحدث دائما إلا فى ظل أنظمة الحكم الـدكتاتورية.. حيـث هناك شبه إرادة على سلب حريـة الآخرين الذين يقفون فى صفوف معارضة الحاكم.. أما فى حـالة سيادة الديمقراطية.. فأنا أعتقد أن احتفاظ الحاكم بحـق اعتقال المفكر يكـون أفضل من احتفاظ غيره بـه.. وذلك لأننى أرى أن الحاكم فى هذه الحالـة هو أقدر النـاس على تقديـر قيمة المفكرين لاتسـاع أفقه وخبرته..

الحكاية الثامنة يرويها جمال بدوى:

دخلت المعتقل.. وخرجت منه
أحترم وأقدس حرية الرأى

كل الذين قابلتهم وتحدثت معهم فى هذه السلسلة من الحوارات أصيبوا بالدهشة حين علموا بأن أستاذنا الأديب والصحفى والمفكر جمال بدوى قد تعرض لتجربة السجن والاعتقال فى بداية حياته العملية.. وهو لا يزال طالبا بالسنة الخامسة الثانوية.. وأن هذه التجربة المبكرة فى حياته كانت الدافع الأساسى نحو دخوله عالم الصحافة والتمسك بمبدأ حرية الرأى.. رغم أنه كان فى هذه السن المبكرة لا يزال يبحث عن ذاته.. ويتحسس البداية الذى سرعان ما وجدها فى أفكار ومبادىء الإخوان المسلمين.. للدرجة التى جعلته ينخرط فى فكر هذه الجماعة ويصبح وهو لا يزال طالبا فى هذه السن المبكرة قائدا مهما داخل هذه الجماعة وفكرها.

كانت البداية وكما قال لى فى عام ١٩٥٤ حين ألقوا القبض عليه.. ولم يكن سنه فى هذه الحقبة المبكرة يتعدى السادسة عشرة.. ولأول مرة يدخل السجن.. وقدم للمحاكمة آنذاك مع من قبض عليهم من زملائه.. ولصغر سنه.. ولظروف اجتماعية أخرى سوف نعرفها حين ندير شريط تسجيل الحوار.. قرروا الإفراج عنه، ومع ذلك مكث فى السجن أكثر من سنتين.. ولم تقبل الحكومة تنفيذ حكم القضاء بالإفراج عنه.

ومرة ثانية دخل المعتقل خطأ.. ومكث به ساعة واحدة.. ومن بعدها أفرجوا عنه.. واعتذروا له.. ورغم قصر هذه الفترة التى قضاها هناك إلا أنه أصيب بحالة من الهياج والإحباط.. أكثر مما أصيب فى حالة دخوله السجن فى المرة الأولى.. فقد ألقوا القبض عليه عام ١٩٦٥ ضمن هوجة القبض على رجال الإخوان المسلمين آنذاك.. رغم أنه كان فى تلك الفترة صحفيا كبيرا.. قريبا جدا من نظام عبد الناصر فى تلك الفترة.. فقد

تصادف قدومه من مدينة أسوان حيث احتفالات السد العالى، الذى كان يتابعها صحفيا هناك.

وعلى باب أخبار اليوم انتظروه.. وأبلغه أحد الزملاء أن أحد الضباط يسأل عنه.. وما هى إلا لحظات حتى كان فى منزله كى يأخذ الشنطة التى أتى بها منذ ساعات من أسوان.. ولحظتها كانت القسوة تطل برأسها.. حين رأي طفلته الصغيرة تقف بباب المنزل.. وهم يأخذونه إلى سيارة البوليس.. وقتها لم يجد الكلمات التى يعبر بها عن هذه الرحلة المفاجئة، فتعلل بعودته إلى رحلة صحفية أخرى تم تكليفه بها وسوف تستغرق أياما وربما شهورا.

وبعد أن حبسوه مع آخرين لمدة ساعة واحدة.. جاء من يستدعيه إلى مكتب المسئول عن البوليس فى تلك الفترة.. الضابط حسن أبو باشا الذى اعتذر له عن هذا الخطأ.

هذه مجرد بدايات حاولت التقاطها من صوت شريط التسجيل.. كى تكون مدخلا مثيرا لحكاية جمال بدوى كمفكر وصحفى وأديب فى عالم السجون والمعتقلات.

***

أما البداية الفعلية للقائنا عبر هذه الصفحات.. بين كاتب هذه السطور وبين المفكر والأديب والصحفى ورئيس تحرير جريدة الوفد أستاذنا جمال بدوى، عبر جهاز التسجيل ولقطات المصور.. فقد مر بالعديد من الظروف التى فرضت علينا تأجيل بداية الحوار أكثر من مرة.. ومع الإصرار على إتمام هذه الرحلة.. فضلت الرحيل مبكرا حيث مكتب الأستاذ جمال بدوى الذى يقع بالدور الأرضى بجريدة الوفد التى احتلت الآن بالمشاركة مع الحزب فيلا الشريعى باشا.. أمام مبنى كلية دار العلوم القديمة بالمنيرة.. وفى الموعد المحدد.. نادى على كل من حوله بضرورة إغلاق المكتب.. وقطع كل الاتصالات التليفونية حتى إشعار آخر.

وهكذا.. وعلى مدى أكثر من ساعة ونصف بدأت تشغيل شريط التسجيل.. وكان هذا الحوار.

*** الأستاذ جمال بدوى.. نريد أن نعرف كم مرة دخلت فيها السجن أو المعتقل؟**

ـ تقدر تقول فى البداية إنها سلسلة.. والعبرة ليست بعدد المرات.. ولكنها مرتبطة بما اصطلح على تسميتــه «البــلاك ليست» أو القــائمــة الســوداء.. ووفقــا لهذه القــائمــة.. فالإنســان معرض للاعتقــال فى أى لحظة.. ولقد كنــت فى شبابى ضمن هذه القــائمة.. والسبب أننى كنت منتميا للإخوان المسلمين.. وتقــدر تقول جاء هذا الانتماء فى المرحلة الثانيــة أيام المرحوم حسن الهضيبى.. وليس أيــام المرحوم حسن البنا.. وكــان عمرى وقتها ١٦ عاما.. ولقد استمر وضعنا فى الإخوان المسلمين وخلال السنتين الأوليين من قيام الثورة يسير فى طريقه السليم.. وعلى وفاق مع رجال الثورة.

إلى أن حــدث الصدام فى عــام ١٩٥٤.. حين تم حل الإخوان لأول مــرة فى ينايــر من نفس العام.. وتم اعتقالى فى هذه الفترة حين كنت وقتها طالبا بــالمدرسة الثانوية بمدينة طنطا.. ولم يستمر هذا الاعتقال سوى أيام أما حينما وقع حادث المنشية جاء دورى فى الاعتقال الثانى.. مع هــوجة الاعتقالات الكبيرة التى قام بها رجــال الثورة ردا على هذا الحادث.. وبالفعل اعتقلت بدون جريمة وسجنت أيامها بالسجن الحربى بالقاهرة.. ثم رجعت مدينــة طنطا مرة أخرى لاستكمال التحقيقات.. وبعــدها قدمت للمحــاكمة أمام محكمة الشعب الدائرة الثانيــة.. التى حكمت ببراءتى.. ورغم ذلك مررت على العديد من السجــون مثل سجن مصر والقلعــة والسجن الحربى حتى أفــرج عنى فى يونيــو عــام ١٩٥٦.

لقــد مكثت فى السجن فى هذه الفترة عــامين.. رغم قــرار الإفراج والسبب يــرجع إلى اعتقال البــوليس لتنظيم من شباب الإخوان المسلمين يجمع تبرعــات لأسر المسجونين.. الأمر الــذي جعل عبد النــاصر يرفض قرار الإفــراج.. ثم اعتقلت مرة أخــرى وأنا أعمل صحفيا بأخبار اليوم عــام ١٩٦٥ أيضا بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين.. رغم تغير الظروف.. واقترابى من السلطــة آنذاك حيث كنت أيامهــا قادما من رحلــة صحفية من أسوان لتغطيــة احتفالات الســد العالى، ولكننى فوجئت بــالبوليس ينتظــرنى على باب أخبــار اليوم وتم اعتقــالى بالفعل.. ولهذه المرة الأخيرة قصــة أغرب من الخيــال دعنى أحكيها لك.

فبعد وصــولى إلى مبنى المباحث العامة.. وبعــد لقائى بزمــلاء المعتقل.. وفور وضــع شنطــة الملابس التى أتيت بها إلى هنا.. استــدعيت فورا.. ومشيت وراء الشرطى الــذى

جاءنى، ففوجئت بـأننى أمام غرفة مغلقة مكتـوب عليها المدير العام.. فـدخلت الغرفة ووجدت بداخلها شخصا وقـورا فى غاية الاحترام.. طلب منى أن أجلس.. ولم أصدق.. وأصابنى الخوف.. فأصر على أن أجلس أمامه.. وبأدب شديـد فوجئت به يقول لى: إننا فى غـاية الأسف لاعتقـالك.. ولم أصـدق حديثـه.. فكيف يأتـون بـرجل اعتقلوه منـذ لحظات.. كى يعتذر له مدير عام المباحث.

المهم.. مرت دقائق ولا يزال رجل البوليس الوقور يكرر اعتذاره هذا الرجل كان هو اللواء حسن أبو باشا.. ولحسن استقباله لى داخل المكتب فتحت معه حوارا ناقشت من خلالـه آلامى الذى سببهـا هذا الاعتقـال الأخير، وقتها اختلطت داخل نفسى مشـاعر متضـاربة بين الفـرح والحزن والضيق.. كما قلت لك إن السبب يرجع إلى أننى وقتهـا كنت صحفيـا أعمل بقسم التحقيقـات بأخبـار اليـوم وكنت وقتهـا راجعـا من رحلـة صحفية من أسوان ومتابعة احتفالات الثورة بالسد العالى.. لقد وصلت القاهرة فى ذلك الوقت السـاعـة التاسعة صباحا.. وهناك فى أسـوان أحسست بمشاعر الضيق والحزن الذى خيم على مدينة أسوان فى ذلك الوقت لاشتـداد تيارات الاعتقال بها خاصة اعتقال رجال الإخوان المسلمين.. وسط مشاعر فرح افتتـاح السد العالى.. لقد عشت لحظات فى منتهى التناقض.

فى هذه الأثناء وعنـدما رجعت من أسوان كنت أشعر بـالخوف لشىء لا أعلمه.. لقد توجهت من محطة الجيزة إلى منزلى فى التاسعة صباحا.. وفور وصولى وضعت شنطة ملابسى ثم اتجهت إلى الجريدة كى أكتب الموضوع الذى كنت أتابعه هناك.. ولكننى فى منزلى شاهدت أيضا الخوف يملأ الوجوه.. والرعب يسيطر عليهم.. ومما يدل على ذلك أن أختى الكبيرة جاءت من البلـد.. وتعجبت من سرعة نـزولى من المنزل فى هـذا الوقت العصيب من وجهة نظـرها.. المهم كما قلت لك تـوجهت إلى الأخبار فى هذه السـاعة من الصباح.. وفور دخولى إلى صالة التحريـر.. وبعد مرور أكثر من نصف ساعة فوجئت بزميلى الـراحل الأستاذ إبراهيم يـونس ينادى على من أول صـالة التحريـر بأن هناك ضابطا واثنين من المخبرين يسألون عنى.. ويطلبون مقابلتى.

وتتعجب حين أقول لك إننى وقبل وصـولهم كنت أتحدث عن موضـوع الاعتقالات ومنفعل بـه غاية الانفعـال.. وربما يرجـع ذلك إلى الخوف الذى لا يـزال مسيطرا على

نفسى حتى هذه اللحظـة.. المهم طلبوا من الراحـل إبراهيم يونس أن ينـاديني بصوت خافت.. وقد كان.. حيث اصطحبونني إلى سيـارة البوليس التى كانت تقف بباب أخبار اليوم القـديمة.. وبـداخلها فـوجئت بالعـديد من المعتقلين من الإخـوان.. وتعرفت على بعضهم كـزمـلاء قـدامى.. وفور دخـولى إلى سيـارة البـوليس سألـونى عن شنطـة ملابسى.. وعندما عرفوا أننى تركتها منـذ ساعة فى منزلى استأذنوا الضابط أن يفوت بالسيارة على المنزل لإحضارها.

وفعلا رجعنا العجـوزة حيث أعيش مع أسرتى وواجهت موقفا حـرجا جدا تمثل فى البحث عن حجة أقولها لأهلى ودون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لى.. عندئذ ادعيت أننى ذاهب فى رحلة صحفية جديدة إلى غزة.. وقد اخترت هـذه المدينة بالذات لبعدها اقتناعا منى أننى لن أعـود من هذا الاعتقـال إلا بعـد شهور طـويلة وربما سنـوات.. ووسط دهشتهم من هذا التصرف أخـذت الشنطة ونزلت إلى السيارة من جـديد.. ومما جعلنى وقتها أشعـر بألم نفسى شـديد وضيق منظـر شاهـدته على باب العمارة وأنـا أركب السيارة.. طفلتى الصغيرة التى كـان عمرها فى ذلك الوقت خمس سنـوات، تنظر إلى فى تساؤل غريب ولقد مكثت أنظر إليها فترة طـويلة.. والسبب أن الضابط قد تركنا داخل السيارة واستأذن بعض الوقت للسؤال عن سمسـار عقارات يبحث له عن شقة.

فهل تتصور إنسـانا يمر بهذا التنـاقض الغريب.. معتقل ينظـر إلى طفلته الصغيرة التى تحاول أن تتساءل عـن مصيره.. فى الوقت الذى يبحـث فيه الضابط المسئـول عن الاعتقـال عن سمسار وشقـة للإيجار.. ممـا آلمنى بشدة أن طفلتى الصغيرة «سميـة» وهى الآن متزوجـة ولها أولاد أخذت تنظر إلى فى دهشـة وتساؤل.. ولا تعـرف أين أنا ذاهب الآن.

أما الأمر الثانى الذى أثر فى نفسي أكثـر.. أن ضابط الشرطة المصاحب لنا.. كان يقف أمام العديد من المنازل فى مختلف أحيـاء القاهرة وينزل من السيارة كى يسأل عن اسم أحد الأشخاص من أجل اعتقـاله.. والمفاجأة أنه كثيرا ما كـان يسمع عبارة ده مات من زمان أو ده هاجر خارج مصر.. هذه المشاهد كلهـا قد نقلتها بانفعال شديد للواء حسن أبو باشا أثناء لقائى به فى مكتبه لحظـة الاعتذار الذي ذكرته لك منذ قليل.. وركزت على شخصيتى كصحفى باعتبار أن الصحفى لا يجب اعتقالـه بمثل هذه المهانة.. أضف إلى ذلك حكاية المعتقلين الموتى أو المهاجرين الذين اكتشفهم الضابط لحظة السؤال عنهم..

والحقيقةأن الرجل قد امتص غضبى وقتها.. وشعرت باستجابة لما كنت أحكيه.

*** طيب.. نقدر نقول كم من الوقت مكث الأستاذ جمال بدوى فى السجن خلال هذا الاعتقال الأخير؟**

- ساعة واحدة.. والساعة الثانية كانت فى مكتب اللواء حسن أبو باشا.. وتعرف أخطر مشكلة واجهتنى بعد قرار الإفراج والاعتذار هو كيف أستعيد شنطة ملابسى مرة أخرى.. وكنت قد تركتها مع زملائى المعتقلين وبعد هذه الساعة اضطررت للرجوع إلى مقر الاعتقال فى مبنى المباحث.. والتقيت من جديد مع زملائى المعتقلين وأبلغتهم بقرار الإفراج العجيب.. ثم أخذت الشنطة ورجعت إلى منزلى.. هناك أصابتهم الدهشة وتوالت الأسئلة.. لكن أظرف شىء واجهنى بعد رجوعى إلى منزلى.. أن زملائى المرحوم إبراهيم يونس والأخ الزميل سيد الجبرتى..حضرا إلى المنزل فى الوقت الذى رجعت فيه بعد الإفراج.. عارف ليه.. كى يبلغوا زوجتى وأسرتى بقرار الاعتقال.

المرحوم إبراهيم يونس كان يرتدى نظارة سوداء تأثرا منه بهذا الاعتقال.. المهم عندما دخلا الشقة قمت بمقابلتهما.. وكانت قمة المفاجأة.. وصدقنى كان مشهدا هزليا وامتزج فيه الضحك والبكاء.. لقد جاءا حالا لإبلاغ أسرتى باعتقالى ولكنهما فوجئا بوجودى بينهما.. ولقد ظنا لأول وهلة أننى نجحت فى الهرب من البوليس وجئت أختبىء فى منزلى.. وبهدوء حكيت لهم القصة الغريبة.. قصة اعتقالى لمدة ساعة واحدة ثم الإفراج عنى.. وانتهى الموقف بوليمة دسمة.. كانت قد جاءتنى من البلد.

*** ولو سألت الأستاذ جمال بدوى عن علاقته بالإخوان المسلمين.. ماذا يقول؟**

- أرجوك أن تفسر.. ماذا تقصد بالفترة المعنية بالسؤال.. إذا كنت تقصد فترة الخمسينات فأنا أقول لك إنها كانت فترة تربية.. حيث كنت وقتها عجينة تتشكل.. وبالفعل تربيت فى أحضان الإخوان تربية دينية أمينة جدا.. لقد كانت مدرسة تربوية من أعظم مدارس التربية على المستوى الدينى والوطنى.. وكل المستويات.. وقد استفدت منها جدا.. ووقتها كنت عضوا مسئولا وعضوا نشطا له تأثير فى جماعة الإخوان والدليل أننى اعتقلت وقدمت للمحاكمة.. والاعتقال فى هذه الفترة بالنسبة لى لم يكن جزافا.. بل كان بسبب وجودى فى التنظيم السرى للجماعة.. وعندما قدمت للمحاكمة..

وكما سبق أن قلت لك.. أخـذت هيئة المحكمـة بعين الرأفـة حيث كنت وقتها تلميـذا ومتزوجا أيضا ولى أولاد.. ورغم أننى وقتها كنت رئيس المجموعة داخل التنظيم.

والعجيب أن زمـلائي ممن كنت أرأسهم داخـل الخليـة حكم عليهم بـالسجن عشر سنـوات مع إيقاف التنفيـذ وكـانـوا جميعا تـلاميـذ فى مثل سنى.. فى مـدرسة طنطـا الثانوية.. ورغم حكم البراءة مكثت سنتين داخل سجون مصر إلى أن أفرج عنى.

*** ما هو تاثير تجربة عقوبة السجن على الفكر المصرى بشكل عام؟**

ـــ أود أن أفـرق لك أولا بين نـوعين.. السجن والاعتقـال.. لأننى لم أسجن.. بل تم اعتقالى.. والفرق بين النوعين شديد وكثير، فالإنسان الذى يعتقل تقيد حريته.. ويشعر أنه لا يعرف مصيره.. من حيث متى سيخرج أو يتم التحقيق معه؟.. بعكس المسجون.. فله حقوق.. ويعرف المدة التى سيقضيها خلف الجدران.. ولديه إحساس بالذنب.. هذا الإحساس ارتبط فى داخلـه بتنفيذ العقـوبة.. وأبـدا لا يفقد الأمل فى الإفـراج عنه فى أى لحظة أما المعتقل.. فلا يدرى مصيره.. ولا متى سيفـرج عنه إنه إنسان يعيش حتى بلا أمل داخل جدران السجن.

الحاجة الثـانية.. أن المعتقل ليس له قـانون.. بعكس المسجون العادى الـذي تحكمه داخل السجن لوائح.. وله حقوق وعليه واجبات، والـدليل أننا كنا ممنوعين من القراءة أو الكتابـة ولا نجرؤ على ذلك إطـلاقا.. ومن يضبـط لديـه أى مكتوب يعاقـب بشدة.. ودعنى أحكى لك حكاية بهذه المنـاسبة وهى تصور ارتباطى بحـاسة الصحفى فى هذه السن المبكـرة.. رغم أننى لم أكن صحفيـا.. وإنما كما ذكـرت لك سـابقـا كنت طـالبـا بالثانوى آنذاك.. المهم لقد دفعنى حبى للقراءة أن أبحث عن أى شىء مكتوب حتى ولو على الجدران، للدرجة التى جعلتنـى أجمع قصاصات من الصحف.. كانـوا يبيعون لنا فيها أقراص الطعمية داخل المعتقل.

وأنا أذكـر أننى جمعت كمية كبيرة من هـذه القصاصات الملـوثة بـالزيت والتراب.. وكنت أجمعها فيما يشبه بجريدة صغيرة.. ونظل نتنـاوبها فى القراءة ليلا حتى لا يرانا أحد المسئـولين عن السجن.. هذه القصـاصات من ورق الصحـف كانت تمثل لنـا كنز المعرفـة.. وقد تتعجب أكثر حين أقول لك إننـى عرفت بموت الفنان أنـور وجدى من تجميع هذه القصـاصات.. فقد قرأت سطـورا مبتورة لمقال كتبه المرحـوم أستاذنا على

أمين.. ينعى فيه الفنان الراحل.. ومازالت كلماته أحفظها حتى هذه اللحظة.. حيث كتب يقول: عـاش شبابه كى يشترى المجـد.. ثم قال البائع لا يكفى.. ثم عـاد فلم يجد البائع ولم يجد الدكان.

وقبل أن أنسى أقـول لك.. هذه الـواقعة حـدثت لى فى سجن مصر الذى كـان يسمى آنذاك «قره ميدان».. ولا تتخيل كيف كنا نقرأ هذه الجريدة الصغيرة والبسيطة.. فرغم ما بها من زيت ورائحة الطعمية وملوثة بالأتربة إلا أننا كنا ننتظر قدوم الليل ونحاول قراءتها حتى تحت البطانية خوفا من بطش رجال السجن.

إذن المعتقل خطورته أنه لا يحكمه قـانون.. ومن حق السلطة أن تفعل بك ما تشاء.. تعذبك وتهين كـرامتك وأشياء أخرى كثيرة.. وكم من مـرات عديدة تعرضت فيهـا أنا شخصيا لتعـذيب شديـد.. خاصــة فى فترة التحقيقات.. عندمـا كنت أذهب إلى السجن الحربى.. فكان لابد أن تذوق فيه ألوانا من التعذيب.. لأن من تقاليد هذا السجن العريق هو التعذيب البدنى الشديد والقاسى.. ولقد وضعت الثورة هذا السجن من أجل الإبادة وليس من أجل التعـذيب.. فكم من المصريين الشرفـاء مـاتـوا ودفنـوا من جـراء هـذا التعذيب.. والسجين منا حين يدخل السجن الحربى عليه أن يتوقع تعذيبا شديدا سواء كان بريئا أو مدانا.

المهم.. لابد وأن يأخـذ جرعة شـديدة من هـذا الهول.. لقد كانت الإقـامة فى السجن الحربى شيئا لا يصـدقه عقل حيث كـانت اللغة الوحيـدة المعترف بها بداخلـه هى لغة الكربـاج.. وأنا مكثـت بداخل هـذا السجن فترتين وصلتا إلى أربعـة أشهر منـذ حادث المنشية عام ١٩٥٤.. وحتى ينـاير عام ١٩٥٥ ومن بعده انتقلنـا إلى سجن القلعة الذى كان بالنسبة للسجن الحربى معناه أنك الآن مهيأ للخروج وللإفراج عنك فى أى لحظة.. فقـد تحول سجن القلعـة من سجن المجـزرة إلى سجن الإعداد والانتظـار للخـارجين والمفرج عنهم.. وسجن الإعداد وغسيل المخ.. وبداخله عشنـا لحظات طيبة فقد كان كل اثنين ينامان على سرير.. وأكل نظيف.. وسلسلة من المحاضرات والمحاضرين العظماء.. وكانوا يحدثوننـا عن أفكار جديدة ومشاريع وطنية كانت تنفذهـا حكومة الثورة.. إلى جانب درس دينى كـان يلقيه علينا أحد مشـايخ الأزهر.. يعنى تقدر تقـول كانت فترة إعـداد ومصـالحة.. وكنـا على وشك الخروج لـولا أنهم ضبطـوا تنظيما من الإخـوان

المسلمين من الشبـاب يجمع تبرعات لصـالح أسر المعتقلين.. وكان هـذا التنظيم يسمى تنظيم مارس.. وهو تنظيم مشهور جدا.

ولما علم عبد الناصر بأمر القبض على التنظيم الجديد رفض الإفراج عنا.. وانتقلنا من سجن القلعة إلى سجن مصر.. حيث قضيت بقية مدة العقوبة وهى سنتان.. ثم عدت إلى سجن القلعـة مرة ثـانية حين قرروا الإفـراج عني لآخر مـرة.. ومكثت بـه أسبوعين.. وأحب أن أؤكد لك أن سجن مصر لم يكن بـه تعذيب.. كنا أيامهـا موجودين بعنبر «ج» المطل على ميدان السيـدة عائشة.. هذا السجـن تم هدمه الآن وتحول إلى حدائق عـامة.. وطوال فترة سجـن مصر.. توالت علينـا المحاضرات وتعرفـت من خلالها على أسـاتذة تركـوا أثرا طيبا في نفسى، وأذكـر منهم الأستاذ الدكتـور توفيق الشاوى.. والـدكتور محمود أبو السعود.. كنا وقتها نسمع محاضرات متنوعة فى الأدب والدين.

*** ما هو تأثير هذه التجربة على المفكر والكاتب الأستاذ جمال بدوى؟**

ـ شوف.. أنـا وقتها شعرت أننى ولابد وأن أعمـل فى المجال العام كرسـالة لابد أن أؤديها بأمانة.. إنما إيه بالضبط؟ لم تكن الـرؤية واضحة.. وفى تلك الفترة قرأت وأنا ما زلت على أبواب السنـة النهائيـة من القسم الثانويـة فى إحدى المجـلات عن وجود قسم جديد بكليـة الآداب.. هو قسم الصحافة، دوره إيه وماذا يقـدم؟ لم أكن أعرف وقتها.. وكل ما عرفته هو ارتباطه بالدكتور عبد اللطيف حمزة.. وبدأت أجمع معلومات وأشغل ذهنى بهذا القسم الجديد وأنا ما زلت مسجونا بسجن مصر.. إلى جانب التجربة نفسها وإحساسى آنذاك بقيمة الحرية وأثرهـا على مصير الإنسان وعلى حياته وفكره.. وظلت كقضيـة تشغلنى بشدة وفـرضت نفسهـا حتى على إحساسى بالعـدل.. لأننى عرفت وقتها أن الحرية قرينة العدل.. والاعتقـال فى هذا السن المبكر جعل من هذه الحرية لدى نفسى قيمة ومبدأ لا مساومة عليه.

وهذا السبب هو الذى جعلنى أغير فكرى وأنتقل به إلى الفكر الليبرالى وأحيد عن فكر الإخوان المسلمين.. ولعلنى أتحدث معك عن هـذا التحول وربما لأول مـرة.. لأننى بعد الخروج من المعتقل ويمكن قبل أن أخـرج بدأت أفكر فى مسألـة الحريات العـامة.. تلك القضية التى لم تكن واضحـة فى أذهاننا وقت أن كنـا فى مدرسة الإخوان.. هـذه القيمة الجديدة أضيفت إلى بـاقى القيم العظيمة التى تعلمنـاها فى مدرسـة الإخوان كالأمـانة

والصدق والوطنية.. ويمكن أن أقولك: إن قيمة الحرية فى ذلك الوقت لم تكن مطروحة على الساحة السياسية آنذاك.. وفى داخل المعتقل عرفت بها وأحسست بقيمتها.. وعقدت العزم على أن أناضل من أجلها.. لإيمانى بأن تلك الحرية أثمن شيء فى وجود الإنسان.. وقد أكد هذه المعانى الجديدة فى ذهنى إقبالى على القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية.. وأيضا تأثير تلك المحاضرات المهمة التى كانت تلقى علينا فى تلك الفترة.

وخرجت من ذلك كله بنتيجة مهمة جدا وهى أنه لابد من وجود ضمانات واضحة لصيانة الحريات العامة.. وأنه إذا كان هناك أى كلام عن نظام حكم فى الإسلام.. فلابد أن يأتى فى المقدمة أهمية صيانة الحرية.. والاعتزاز بالحريات العامة.. من هنا تجدنى أرفض أن يأتى أى حاكم أو خليفة مسلم أو أى نظام ينتسب إلى الإسلام ويضحى بالحرية من أجل أى هدف آخر.. فأنا بصراحة حينما تعمقت فى قراءة نظام الحكم فى الإسلام.. وجدته نظاما من الناحية النظرية لا يضاهيه أى نظام حكم فى العالم.. ولكن المشكلة كانت فى التطبيق.. فكما قدم لنا التاريخ نماذج طيبة من الحكم فى الأيام الأولى للإسلام قدم لنا أيضا نماذج سيئة جدا لحكام يحكمون باسم الإسلام.. لا يعترفون بالحريات العامة ويدوسونها بأقدامهم.. رغم أن الإسلام فى جوهره يقوم على احترام هذه الحريات.. إذن كانت هذه نقطة التحول الأساسية فى حياتى الفكرية.. ولا أستطيع أن أقول لك التحول من فكر الإخوان المسلمين، ولكن التحول إلى فكر أكثر إيمانا بالحرية.. وعلى وجه الخصوص هذا التحول قد تم وأنا فى سجن مصر.. والسبب يرجع إلى أننى وجدت مصادفة بين مجموعة من الزملاء المثقفين داخل هذه الجدران العالية.. وهم من الإخوان المسلمين الذين كانوا أكثر منى استنارة.

هذه المجموعة كانت من شباب جامعة القاهرة.. وعلى ما أذكر منهم كان الدكتور ماهر حتحوت من شباب كلية الطب والأستاذ مدحت أبو الفضل من شباب كلية الحقوق وآخرين.. هؤلاء قد تأثرت بهم.. وهم ما زالوا من المتمسكين بالفكر الإسلامى.. ولا أستطيع أن أقول فكر الإخوان المسلمين.. وما حدث أن هذه المجموعة قد فتحت أمامى عالما جديدا.. ومحاضرات الدكتور الشاوى أيضا نقلتنى إلى عالم آخر تحدث فيه عن الديمقراطية والحريات وكانت وقتها عبارات وشعارات جديدة.

كل ذلك بجانب قراءاتى المتعددة.. وقد صاحب هذا الجو الجديد إثارة آلاف الأسئلة

داخل نفسى، وكلها كانت تدور حول مفهوم الحريات وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان.. ولماذا نحن هنا داخل المعتقل؟ ومن أجل من نناضل ونفكر؟

تلك كانت البداية التى تبلورت فى الكفاح ضد ديكتاتورية الحاكم الفرد الذى تمثل فى وجود جمال لعبد الناصر وغياب الحرية فى ظل هذه الديكتاتورية.

*** وكم كتابا ألفتموه داخل السجن.. أو بعد الخروج منه تأثرا بهذه التجربة؟**

ـ أنا لم أكتب عن هـذه التجربة فى كتب صدرت لى.. ولكننى على ما أذكر ألفت كتابا واحدا عن هذه التجربة اسمه «شهداء وضحايا من تاريخ الإسلام».. إن عنوانه يوحى بأننى أتحدث عن شهداء المعارك الإسلامية مثل موقعة بدر وخلافه، ولكنى فى الحقيقة كنت أقصد شهداء الحرية الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأى خلال التاريخ الإسلامى كله.

وهذا ما كتبته فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأى خلال التاريخ الإسلامى كله.. وهذا ما كتبته فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل حرية الفكر من أمثال عبد الله بن المقفع وغيره.

وهؤلاء الذين تعرضوا للاضطهاد أيضا تجد فى الكتاب فصولا عن التعذيب والمهانة التى يلاقيها المفكر من أجل دفاعه عن الحرية.. لقد كان همى من خلال هذا الكتاب إبراز كفاح هؤلاء المفكرين من أجل إعلاء كلمة الحرية .. الكتاب صدر عام ١٩٨٤.. وكنت قد نشرته من قبل مسلسلا فى جريدة الاتحاد فى دولة أبو ظبى حيث كنت هناك في خلال فترة من فترات حياتى الصحفية.. وتقدر تقول أيضا إن كل مقالاتى التى أكتبها الآن ومازلت فى جريدة الوفد التى أرأس تحريرها تعبر عن هذا المفهوم.. وتعتبر تأثرا بتجربة السجن والاعتقال، وهى نوع من الموضوعات التى أكتبها فى هذا الإطار المتعلق بالسجن وتأثيره على الحياة الفكرية فى مصر الآن وعلى الحريات العامة بشكل مجمل.

تلك القضية التى اكتشفت نفسى موجودا بداخلها بعد تجربة السجن الأخيرة عام ١٩٦٥.. صحيح فى هذه الفترة كنت أعمل صحفيا فى أخبار اليوم وكنت مهتما بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية.. ولم أكن أقترب من القضايا السياسية.. ولكننى بعد هذا التاريخ ارتبط وجودى بقضية الحريات وضرورة الكفاح من أجلها.. وهناك كتب

أخرى كتبتهـا تأثرا بهذه التجربة مثل كتـاب تاريخ الفكر السياسى فى الإسـلام، وهو جولة فى تاريخ نظم الحكم السياسى فى الإسلام عبر التاريخ.

*** نريد أن نعرف من أستاذنا جمال بدوى رأيه فى عقوبة السجن أو الاعتقال كوسيلة من وسائل قهر الفكر المعارض؟**

ـ أنا زى ما قلت لك سابقا.. هناك فرق كبير بين السجن والاعتقال فى مجال العقوبة.. السجن يصـدر بـه حكم قضائى وللمسجـون بنـاء على ذلك حقـوق وعليه واجبـات.. والإنسان يدخل السجن إذا ارتكب فعـلا يخالف القانون الذى يردعـه.. ولا جريمة على عقوبة إلا بنص.. أمـا الاعتقال فهو إجراء تعسفى تلجأ إليه السلطـة من وراء القانون.. ويدخل صاحبه السجن فى أى وقت وفى أى لحظة.. وبـالتالى ليست له حقوق.. أما قولك بأن السجن يمكن أن يتحول إلى إحدى وسائل قهر الفكر وكبت الحريات.. فردى عليه.. شوف.. أقول لك رغم ذلك.. فإننى لا أدعو أبدا وفقـا لحرية الفكر إلى حرية الإلحاد لأن رأيى فيها صريح ولا مناقشة فيه.

أمـا فيما يتعلق بقضـايا الفكـر الأخـرى.. طبعا السجن لا يمكـن أن يكون وسيلـة لإسكـات صوت الحريـة.. وأننى أرفض ذلك تمامـا.. خاصـة فى مجال حـرية الـرأى السياسى.. فإذا كانت الحكومة ديكتاتورية.. حتما سوف تصطدم بصاحب هذا الرأى.. ويكـون مصيره كما تقـول أنت السجن لتجنـب شر فكـره وآرائه.. وتشهـر فى وجهـه القانون كسلاح.. مهما كانت التضحيات.. وفى ظل الديمقراطية عادة ما تلجأ الحكومات إلى القانـون داخل المحكمة وليس القـانون الخاص بها.. بمعنى أنك إذا كنـت مخطئا فى رأيك من وجهة نظر الحكومة تحيلك إلى المحكمة وفقا للقانون من وجهة نظرهـا.. وربما يكون للمحكمة وجهة نظر أخرى.

أيضا بالقانون.. فترى مثلا أنك غير مذنب.. وبـالتالى فلا تدخل السجن.. وهذا فرق كبير بين الحالتين.. ولكى نتم مشوارنا الديمقراطى علينا ونحن نضع الدستور أن ننتبه إلى تنقية مثل هـذه القوانين حتى نضمن حريـةالرأى وحرية الفكـر.. وتأتى النصوص مسـايرة للضمانـات مثلما يحدث فى أوروبا مثـلا ..وأعيد وأكـرر عليك أن قهر الفكـر والضيق من الحرية يتم بصورة كبيرة فى ظل الحاكم الديكتاتـور الذى تضايقه مثلا أن تختلف معه.. وفى ظل الأنظمة الديمقراطية تختفى صور القهر الفكرى.. كلما كان هناك

استقرار فى الحكم.. وهـذه نتيجة حتمية لهذا النوع من الحكم.. حيث يـوجد احترام للحريات والحقوق.

ودعنى أسألك هل سمعت فى يوم من الأيام أن فى بريطانيا انقلابا عسكريا؟ طبعا لن يحدث ذلك.. لأنك سوف تفاجأ بالشعب يخرج ويقـذف الدبابات بالبيض ويتنصل من هذا الانقلاب ويقاومه.

*** هل تعرف الأستاذ جمال بدوى خلال رحلته داخل المعتقل على شخصيات معينة.. أثرت فى فكره؟ وما زال على علاقة بها حتى بعد خروجه؟**

ـــ آه طبعا.. لقـد ذكرت لـك أننى تعرفت على أخى وصـديقى الأستـاذ مدحت أبـو الفضل.. وهو الآن محام كبير.. وكان قد مكث بدولة الكويت سنوات طويلة.. ثم عاد إلى القاهـرة.. ومنذ ثلاث سنـوات تجددت بيننا الصلات والعـلاقات.. ومن هـؤلاء كذلك الدكتور توفيق الشاوى كمحاضر وأفكاره عن الحريـة والديمقراطية قد أحدثت ثقبا فى عقلى أخـــذ يتسع مع الأيـــام فيما يتعلق بإيمانـــى بما سمعت منـــه فى المعتقـل عن الديمقراطية وعظمتها وأهميتها فى حياة الشعوب.. ومن غير المفكرين قد تأثرت بالعديد من الذين قـابلتهم داخل السجن.. ولى معهم حكايات ومـواقف جمعتنا داخل الجدران السوداء منها الطـريفة ومنها الحزينة.. وعلى ما أذكـر أنه كان لى أحد الأصـدقاء الذين كنت أرأسهم داخل المجمـوعة.. وحكم عليـه بـالسجن عشر سنوات مع التنفيـذ وظلت علاقتى به طيبـة داخل الجدران السوداء.. وبعد أن أفرج عنى وخـرجت وتركته حيث قضـى بعد خروجى أكثر من ثمانى سنوات.

المهم حين علمت بخروجه.. كنت فى غـايةالشوق لرؤيتـه وظللت أبحث عن عنوانه.. حتى عثرت عليه.. وعـرفت أنه يعمل موظفا فى إحدى محافظات الـدلتا.. وعقدت العزم على البحث عنه ولقـائه بعد هذه الفترة الطويلـة التى استمرت أكثر من عشرين عـاما.. وفعـلا نجحت فى الوصـول إليه.. ولكنـه للأسف اختفى منى ورفض أن يقـابلنى ولا أعرف حتى هذه اللحظة السبب.. المهم بعدها عرف أخوه بهذه الحكاية وجاء كى يعتذر معللا السبب بأنه الخوف وأشياء أخرى.

لحظتها أصـابنى الحزن.. لأننى بالفعل كنت أحـب هذاالرجل وأود أن نتقـابل من

جديد.. وأقدم لـه أية خدمة.. لقد كنا أكثر من أخـوين حيث كنا زملاء فى المدرسة حتى قبل تجربةالمعتقل.. ومن المواقف الأخرى التى صادفتنى وزملائى فى السجن الحربى.. أنه كـان معنا أحد الطلبة الـذى أصبح الآن من علماء الدين الإسلامى المعـدودين وهو الدكتور عبد الودود شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

المهم ونحن داخل السجن.. لم يتمكن أحد الضبـاط من نطق اسمه كما يجب فناداه بقوله: عبـد الود ـ ود.. فاستغـرقنا فى الضحك أوقاتا طـويلة.. وكانت النتيجـة أننا قد جلدنا جميعا عقابا على الضحك.. ويومها عـذبونا أيضا.. لقد كنا نضحك على جهل هذا الضابـط.. وأذكر موقفـا آخر.. رغم أنـه كان محزنـا ومؤلما فى نفس الـوقت.. ولكننى سوف أحكيه لك...على مـا أذكر وكنا أيضا فى السجن الحربى.. وكـان من أشق الأمور بداخله دورة الميـاه.. هذا السجن فى الأصل كان بـه ٢٤٥ زنزانة.. وكانت لا تـوجد به مياه كافية.. وعدد المعتقلين بـه أكثر من ٥ آلاف شـخص.. وتصور كيف يقضى هؤلاء حاجتهم وسط ندرة المياه.. وندرة المكان أيضا.. أضف إلى ذلك أنك كنت وقتها محروما من النوم.. فقد كانوا يضعون فى كل زنزانة لمبة قوتها أكثر من ١٠ آلاف وات.

ثم أنك كنت مجبرا على عـدم النوم لأنـه من المحتمل أن تسمع اسمك فى أية لحظـة.. المهم نرجع إلى قصة أحـد زملائى داخل المعتقل.. هذا الرجل تحامل على نفســه وغامر بدخول دورة الميـاه فى آخر لحظة وقبل طابـور التمام كما كانوا يقولـون بلغة المعتقل.. وانتهـزها فـرصة وأخـذ حماما بـالماء والصـابون.. فبعـد أن نادى الضـابط على كل المسجونين الذين أعلنوا وجودهم بالطابور .. جاء ذكر اسم هذا الرجل المسكين.. ولما لم يجدوه.. بحثوا عنه أولا فى دورة المياه.. ووجدوه بداخلها.. فأخرجوه عاريا والصابون على وجهه وجسده.. ولا تتخيـل ما حدث له وهـو على هذه الحالة لقد أخـذوا يضربونه بكل أنـواع العصى والكـربـاح حتى فقـد الوعى ووقـع على الأرض وهو ينـزف دمـا مخلوطا بالصابون.

*** يمكن لنا أن نخـرج من هـذا السـؤال.. إلى سـؤال آخـر ربما يـرتبـط بـه من قـريب أو بعيد.. وهـو: نريـد من أستاذنـا جمال بدوى تقييما لموقـف كل من عبـد الناصر والسادات من قضية الفكر والمفكرين؟**

ـــ شــوف هــذه القضية يجيـب عنها الــواقع.. وهــذا التقييم تـحدده لنــا الظـروف والملابســات التي صاحبت الأحــداث التي جـرت فى كل من العصرين فمثلا.. إذا كــانت السجون والمعتقلات عقوبة المفكرين فى عهد عبد الناصر يصبح هذا العهد متسما بالظلم ولابد أن يدمغ.. أما إذا جاء عصر سمح فيه للمفكرين بالقول والفعل والاختلاف.. بقدر كبير من الحرية.. فلابد أن نشيد بهذا وهذه بالطبع إحدى سمات عصر السادات.. ولكن حين يأتى الرئيس السادات بعد ذلك ويزج بــالمفكرين داخل السجون والمعتقلات فلابد أن نــدين هذا الفعل ونــرفضــه.. إذن المسألة فى رأيــى ليست مسألة أشخــاص.. وإنما المسألة متعلقــة أولا وأخيرا بالمواقف.. بمعنى أنه إذا أتيحت هذه القــدرة وتمكن الناس من التعبير فى حريــة وبعيدا عن الخوف.. نرحب بــذلك ونسعد، وكلما تم التضييق على الناس فى حيــاتهم وحريــاتهم.. أصابنا الحزن والخوف على المصير.. لأن المفكــرين هم حملة المشاعل الذين يضيئون الطريق نحو عالم أفضل.. فكلما أتيحت لهم فرص التعبير كلما واصلوا المسير.. والعكس هو الصحيح.

*** ما رأيكم فى سجون مصر الآن.. وهل هى بوضعها الحالى تواكب تطور عصر الجريمة؟**

ـ والله أنا لا أعرف.. لأن صلتى قــد انقطعت بها منذ فترة طويلة ولكننى أسمع أنها سيئة جدا ولا تساعد على إصلاح أحوال المسجونين.. بل ربما تفسدهم أكثر.. ومما أكد لدينا هذا الإحساس مشاهدتى لأحــد الأفلام الروائية الحديثة.. الذى عبر تعبيرا صادقا عن أحوال السجن فى مصر.. ولما سألت عن حقيقة مــا رأيته، أكد لى البعض أن الصورة فى الحقيقــة أســوأ ممــا رأيتــه.. واسمح لى أن أقــول لك لا أستطيع رغم ذلك أن أعطيك صورة صادقة ورأيا قاطعا إلا إذا شاهدت ذلك بنفسى.

*** طيب.. ولماذا وأنت صحفى كبير.. لم تفكــر فى زيارة سجــون مصر لتأكيد معرفتك بأحواله؟**

ـ .. حرام عليك.. دا شىء كريه.. وأنا أذكــر أننى فى يوم من الأيام اضطررت أن أمر أمام السجن الحربى فى مــدينة نصر.. حتى بعــد هدمه.. وشعــرت بخوف وضيق وألم شديــد.. وعلى الفور أسرعت من المكــان.. ومرة أخــرى دعونى لزيــارة المتحف الحربى

بالقلعة الـذى أقيم مكان السجن.. ولحسن الحظ أو لسوئه الله يعلم..تـركوا زنزانتين على مـا هما عليه.. هى الـزنزانـة الأولى والثـانية.. وكنت فى أيـام المعتقل مسجونـا فى الزنـزانة الثـانية.. ولا تتصـور حالتى النفسية.. فقـد شعرت بـانقباض شـديد وألم نفسى.. وقد تحاملت.. حتى انتهت الزيارة إلى غير رجعة.. فلا أستطيع أن أقول لك إننى من الممكن أن أزور السجون الآن أو حتى أكتب عنها.

وهنـا تصور آخـر لى فى هذه النقطـة.. إننى لا أكتب عن السجـون ولكنى أكتب عن الحريات حتى لا نفقدها مرة أخرى، ونـدخل على إثر فقدها السجن، وأحب أن أؤكد لك أن السـجن ليس شرا كله.. وإنما لابـد منه كوسيلة عقـابية، ولكنك تقدر تقـول لابد من نظرة من أجل تطويره.. بعيدا عما كنا نسمع عنه مثلما يحدث فى سجون أوروبا.. والتى وكما يقولـون تقارب فى شكلها وفى خـدماتها فنادق درجـة ثانيـة.. وإلا تحولت بذلك السجون عن رسالتهـا.. وفقدت قوتها كوسيلة ردع للمجـرمين.. ولا مانع مع ذلك من مراعاة الحالة النفسية والإنسانية للمسجون.

وهنا لابد أن نفرق بين سجن المفكر وسجن المجرم.. فلا يتصور أحد مثلا أن نضـع المفكرين مع غيرهـم من القتلة والقوادين فى سجن واحـد.. أيضا لأن المفكـر لم يرتكب جـريمة ولم يعـاقبه القـانون.. إذن لابـد من وجود أمـاكن خاصـة يحجز بها المفكـر المعارض أو المختلف مع الحكومة أو السلطة.. وألا يزج به مع الحرامية والنشالين.. إن ذلك فى رأيى جريمة أخرى فى حق الحكومة.. لأن من الواجب علينا صيانة حقوق المفكر وصيانة كرامته.. حتى داخل السجن.

*** لو كان الأستاذ جمال بدوى مأمورا للسجن.. فى فترة اعتقال مفكرين.. ماذا كان يفعل؟**

ـ يعنى كنت أحول هذا المعتقل إلى منتدى.. وأحاول الاستفادة من هؤلاء المفكرين فى إصلاح وتهذيب إخوانهم من المسجونين الآخـرين وتثقيفهم.. بعيدا عن شبح التعذيب الذى أعتبره مرفوضا تماما ولا أقبله على المستويين.. مستوى السجين المفكر والسجين العادى.. وحتى إذا طلبوا منى القيام بهذه المهمـة وفقا للوائح والقوانين.. أرفض ذلك.. أو على الأقل أستقيل.. أو أطلب نقلى إلى مكان آخر.

*** وماذا تفعلون لو كنتم رئيسا للحكومة.. أو وزيرا للداخلية وعرض عليكم كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم؟**

ـ لا.. شوف أقول لك حاجة.. أولا أنا لا أقبل مطلقا تقييد حرية أى إنسان.. سواء مفكر أو غير مفكر.. فما بالك بالمفكر.. خاصة السياسى منهم.. أرفض على الفور التوقيع على هذا الكشف.. أما بخصوص مسألة الإلحاد فإن موقفى معروف ولا حياد عنه.. لإيمانى أن خلاف المفكرين مع السلطة.. لا يعطى لهم الحق فى أمر اعتقالهم.. بل بالعكس أطلب مقابلتهم ومناقشتهم ولا ألجأ مطلقا إلى الاعتقال لأننى أعتبر من يلجأ إليه كوسيلة إنما هو فى موقف الضعيف.. والحكومة التى تلجأ لمثل هذا الإجراء هى بالتالى حكومة ضعيفة ويبرز ضعفها من فشلها فى الاقتراب من هؤلاء المفكرين والتعامل معهم الفكر بالفكر.

لكن عايز أقول لك حاجة مهمة جدا:إن الفكر إذا اختلط بالسلاح فلابد وأن أوافق فورا على أمر الاعتقال بمعنى أننى إذا وجدت المفكر يلجأ إلى غير القلم من أجل تحقيق رأيه وأفكاره فلابد من القضاء عليه فى حينه.. لأن ذلك يسمى إرهابا.. وأنا أشك أن المفكر الحقيقى يلجأ إلى العنف من أجل أن يقول رأيه وينشر فكره.. إن المفكر له مطلق الحرية فى أن يقول ما يشاء دون أن يقترب من منطقة العنف.. بل أكثر من ذلك أن إيمانى بلا حدود فى دور المفكرين فى إبعاد الناس عن التعصب والعنف.. وليس أمامى من وسيلة لعلاج هذا الإرهاب الفكرى.. إلا بالقانون.. حينما يقترن بالعنف.

الحكاية التاسعة.. يرويها مختار السويفى

بسبب لم أعرفه دخلت السجن مظلوماً

.. وتحدد اللقاء.. ومن بعده كان لابد من الذهاب إلى حيث حدد لنا الكاتب والمفكر والأديب مختار السويفي.. المكان الذى سوف نتقابل فيه.. وخلال جولة داخل شوارع القاهرة استغرقت نصف ساعة.. كنت هناك أقف أمام إحدى ناطحات السحاب المصرية.. أو ما يحلو لنا أن نطلق عليها عمارات الأبراج.. وطبقا للمعلومات التى دونتها فى ورقة صغيرة كانت هى كل ما أحمله.. مع جهاز التسجيل وكشف بأسئلة الحوار.. وقفت أمام مكتب الاستعلامات داخل العمارة المدونة بالعنوان، والذى أكد لى أن الكاتب الكبير موجود بالفعل هنا.. ولكن فى الدور الثامن والعشرين!.. والمطلوب منى أن أستخدم الأسانسير الذى سوف ينقلنا من الأرض إلى السماء.. وقد كان.. ولن أصف بعد ذلك الاحساس الذى انتابنى كلما اقتربت من شقة مختار السويفى.. وبطبيعة الحال لم يكن السبب فيما أحسست به هو الرجل فى حد ذاته أو شقته العامرة.. وإنما وسيلة المواصلات الفوقية التى نقلتنى عبر ثمانية وعشرين دوراً.. لقد مكثت أكثر من دقيقة داخل صندوق أنيق.. لا تسمع فيه إلا صوت الهواء الذى يصطدم مع الآلة الرافعة لذلك الصندوق العجيب. وقد تكررت نفس الرحلة بنفس الأحاسيس حين العودة.. لأننا بعد إتمام هذا اللقاء بسلام أخذنى الكاتب الكبير فى جولة سريعة داخل الشقة، فرأيت القاهرة الساحرة تنام فى أحضان أضواء الكهرباء الجميلة. لقد نقلتنى شرفة المنزل إلى مسافة عشرات الكيلو مترات.. ولولا زيادة كمية الضباب التى كانت عالقة بالجو آنذاك لرأيت كل معالم القاهرة.. الأهرامات والقلعة.. وبرج القاهرة!! وكل شىء بدون مجهود عضلى أو بصرى.

وبعد هذه المقدمة التى رأيت أنها ربما تكون مدخلاً طيبا لتخفيف وقع كلمات

الحوار عليكم وعلينا.. رأيت أن أحدثكم عن شىءآخر أهم مما ذكرته آنفا.. وهو أننى قد اكتشفت أن هذا أول حوار أجريه عن هذه التجربة.. يتسم بالضحك والسخرية!!..

لقد اكتشفت أيضا أن الكاتب والمفكر مختار السويفى.. يتمتع بروح دعابة من النوع النادر.. هذه الروح هى التى مكنته من تحويل هذه المصيبة التى آتته ليلاً إلى مسرحية هزلية أخذ يضحك منها وعليها.. وتراه كلما حكاها لغيره يستغرق فى الضحك.. وحتما لابد وأن تشاركه هذه السخرية من خلال ما يحكيه لك من مواقف تتسم بالعبثية المطلقة.. ولن أغالى حين أقول أننى وطوال الخمسة والأربعين دقيقة التى قضيتها مع الأستاذ مختار السويفى أقول له السؤال وهو يجيب عليه.. ضحكت وكأنما لم أضحك من قبل.. وربما كانت هذه هى المرة الأولى منذ اجراء هذه السلسلة الطويلة من الحوارات التى أشعر فيها بسرور وسعادة مصدرها الأساسى كان الشعور المتبادل بيننا والذى كان أساسه الحب والضحك.. ولو كانت الكلمات تسمع قبل أن تقرأ.. لدونت لكم هذه الضحكات عبر هذه الأوراق.. وهو ما سجله بالضبط شريط التسجيل الذى صاحبنى فى هذه الرحلة، على ارتفاع أكثر من مائة متر عن سطح الأرض!

ولسوف تشعر أنت أيضا عزيزى القارىء بهذه السخرية الممزوجة بالمرارة، حين تقرأ كلمات هذا الحوار.. والسبب يرجع إلى أنها تجربة خاضها مفكر كبير وعالم من علماء الآثار المصريين.. ووكيل وزارة للنقل البحرى.. وأيضا كاتب ومؤلف لأكثر من خمسين كتاباً فى مختلف فنون المعرفة.. أضف إلى ذلك أنه كاتب صحفى وساخر عظيم.. أما الشىء الأكثر أهمية والذى نتج عنه القدر الكبير من الضحك والسخرية.. فهو أن صاحب هذه التجربة.. قد زجوا به خلف الجدران السوداء بلا تهمة ولا ذنب ارتكبه.. وإنما بسبب وشاية من آخرين.. هذه التهمة لم يقتنع بها حتى رجال الأمن الذين قدموا إليه مع ساعات الفجر الأولى.. ولم يجدوا فى مكتبه سوى كتب تتغنى بحب مصر وآثارها وآدابها وفنونها.. ومؤلفات كثيرة كتبها فى التخصص الذى اشتهر به فى مجال النقل البحرى..

ولعلك حين تسمع صوت هذا المفكر والأديب وهو يحكى لك كيف جاءوه فجراً ودخلوا عليه إلى حجرة مكتبه، وهو لم ينم بعد، حيث كان منهمكاً فى إنجاز تقرير تفصيلى مطلوب على وجه السرعة، يتناول المشاكل والمعوقات وطرق إزالتها أو معالجتها حتى يتم نقل كميات المواد التموينية الضخمة التى تستوردها البلاد فى مواعيد مناسبة وباجراءات سلسة وطرق صحيحة.. لا تملك إلا أن تتعجب على هذه الأوضاع التى كثيرا ما تثير السخرية والحزن وأيضا الإستغراق فى الضحك!

حتى وهو رهين القيد الحديدى الذى وضعوه فى معصمه خوفاً من الهرب – على حد قولهم – لم يفقد الابتسامة التى عبر من خلالها عن هذه المسرحية الهزلية التى تمت ومازالت فصولها باقية.. لأن عليه أن يقضى عقوبة لجريمة لم يرتكبها ولم يعرف أبعادها بعد.. وهو يقول إن أول إشارة التقطها عقله وعرف من ذبذباتها أن التهمة ربما تكون بسبب الفكر والأدب والثقافة.. كانت حين عثروا على أربعة كتب، منها رواية الأم لمكسيم جوركى ومجموعة قصصية لأنطون تشيخوف.

وقد استكمل صورة مادار فى ذهنه حين زجوا به مع «الرفقاء» – وهى كلمة جمع.. مفردها «رفيق» – من أعضاء الحزب الشيوعى وبعض اليساريين المصريين!!.. لقد تحول الكاتب والمفكر والإنسان مختار السويفى فى لحظة واحدة – ودون أن يدرى – إلى معارض شيوعى أو يسارى!! مع أنه – وكما أكد لى وأكد لهم – لا يحب السياسة.. بل يكرهها كثيرا.. ولم يحد فى حياته عن طريق الديمقراطية. ولكن على حد قوله: لا تجد من يسمع إلا بعد ثلاثين يوماً.. حين تقدم على كتابة تظلم أمام قاض مدنى.. والذى له الحق فى الأخذ بما تروى ومن ثم يفرج عنك..

والأمر لم يكن بهذه السهولة.. كما يروى.. أو كما أكتب.. لقد وصل إلى سجن طره فى الصباح المبكر.. ودون كلمة واحدة، وبعدما أخذوا منه كل متعلقاته.. رموه فى زنزانة إنفرادية لمدة ثلاثة أيام!!

إنها بحق رحلة داخل عقل وقلب أحد فرسان الكلمة السوية الذين مازالوا فى عطاء دائم لم ولن ينقطع أبداً.. هذه العطاء المستمر لم تؤثر فيه مثل هذه الحادثة المنفردة التى جعلته يقضى أكثر من خمسة وأربعين يوما داخل جدران السجن.. وله ولنا مع هذه الأيام ذكريات نعرفها من خلال متابعة «متأنية» لتفاصيل هذا الحوار.

**** كم مرة دخل فيها الأستاذ الكاتب الكبير والمفكر المصرى المعاصر مختار السويفى السجن؟!**

- أنا الحمد لله لم أدخل السجن سوى مرة واحدة. وهى هذه المرة التى سوف أحكى لك عنها! وأرجو- بل وأتمنى - أن تكون المرة الأولى والأخيرة.. وظروف هذه المرة.. أو تقدر تقول سببها اننى كنت قد نشرت كام مقالة فى جريدتى الجمهورية والأهرام ما بين سنة ١٩٧٤ وأواخر ١٩٧٦..

**** اسمح لى أن أقطع حوار هذه النقطة.. وأسأل.. فى سنة كام دخلت السجن؟!.**

- فى عام ١٩٧٧.. فى أعقاب الحركة التى تمت فى مصر أيام ١٨ و١٩ يناير والتى أطلق عليها الرئيس السادات «انتفاضة» الحرامية..!

وحين نعود لحديث الأسباب.. أقول لك إننى كنت قد نشرت عدة مقالات فى جريدتى الجمهورية والأهرام.. وكنت وقتها أعمل «مدير عام» فى قطاع النقل البحرى، وكان الرئيس السادات قد أصدر ورقة أكتوبر التى كانت مقدمة لقرارات الانفتاح الاقتصادى.. وقد لاحظت من خلال متابعة خاصة أن هناك شبه هجوم على قطاع النقل البحرى الذى كنت أنتمى إليه.. هذا القطاع به العديد من التخصصات والأنشطة المتعددة.. ومع ذلك لاحظت وجود نوع من التركيز الهجومى على تخصص واحد فقط وهو «التوكيلات البحرية».. حيث اتضح أن غالبية الذين بدأوا فى الأخذ بسياسة الانفتاح يركزون جهودهم على هذا الجانب دون جوانب النقل البحرى الأخرى.. وطبعا السبب فى ذلك أن هذا القطاع من أكسب وأربح قطاعات النقل البحرى.. أضف إلى ذلك أنه قطاع لا يحتاج إلى جهد أو فن أو علم.. الحكاية مجرد دكانة أو مكان صغير حتى ولو صرف عليه نصف مليون جنيه.. واستطاع صاحب هذا المحل أن يحصل على توكيل ملاحى.. من المؤكد أنه سوف يعوض هذا النصف مليون فى الأسبوع الأول!!.

إذن فيما يخص هذا القطاع لم تكن العملية مقصودا بها الانفتاح من أجل مساعدتنا.. ولكن من أجل نهب أموالنا. وكان هذا هو موضوع مقالاتى التى كتبتها أولا فى جريدة الأهرام.. وتساءلت من خلالها: لماذا التركيز على جانب التوكيلات

الملاحية دون النظـر إلى قطاعـات النقل البحرى الأخرى؟!! وقـد بلغ عدد هـذه المقالات اثنتى عشرة مقالـة.. ثمانى مقالات بالجمهـورية وأربع بـالأهرام.. وكلها تنـاولت هذا الجانب وما يتفرع عنه من موضوعات أخرى.. أول مقالة نشرت فى هذا الموضوع كانت فى منتصف عام ١٩٧٤ وآخرها فى أواخر عام ١٩٧٦!.

ودعنى أقول لك قبل الانتقال إلى سؤال آخر.. عن فحوى هذه المقالات، لأنه رغم أنها كـانت تتناول هـذا الجانب من مـوضـوع النقل البحرى إلا أنها تنـاولتـه من مختلف الجوانب. فمثلا بعض هـذه المقالات كان إقتصـاديا صرفاً.. يعنى أقـول فيه على سبيل المثال شروط الإستثمار فى النقل البحـرى.. وطالبت فى إحدى هذه المقالاتِ بـأنه إذا كان ولابد من تأثر النقل البحرى بسياسة الانفتاح فلماذا لا يأتون إلينا بسفن جديدة ترفع أعلام مصر.. أو ناقلات بترول.. أو إنشاء موانىء جديدة حتى ولو كانت قطاعا خاصا.. أو يدعموا الأرصفة البحرية الموجودة، إلى آخره.. بجانب ذلك كانت هناك بعض المقالات نشرتها بمساعدة الكاتب الكبير محسن محمد الذى كان يرحب بهذه النوعية رغم خوف شخصيا وخشيتى من رفضـه لها. ومن هذه النوعيـة ما كتبته عن أحـد المستثمرين فى مجال قطاع النقل البحـرى.. هذا المستثمـر الذى ظهر فجأة على السـاحة الاقتصـادية المصرية.. حيث ادعى أنه مهندس وأطلق على نفسـه كبير المستثمرين العرب!! إنه شىء وهمى من هذا القبيل. وهذا الرجل إستطاع فى سنوات قليلة أن يجمع ملايين الدولارات من المصريين فى الدول العـربية وجـاء إلى مصر وافتتح شركة للملاحـة البحريـة.. وقد لاحظت أنه رغم مـا يبدو على نشاطـه من مشروعية، إلا إننى اكتشفت فيما بعـد أن هذا المستثمر قد جاء من أجل تخريب الاقتصاد القومى مستغلا سياسة الإنفتاح هذه، وقد إتضح هذا الاتجاه حين لاحظت إنه كان يلجأ إلى توظيف أبنـاء بعض المسئولين بالدولة من أجل التغطية على أعماله غير المشروعة.. وطبعا الحكاية كانت معروفة.. فقد جمع هذا الـرجل كل هـذه الملايين وإنطلق بها هـارباً إلى خـارج مصر. وبـذلك اتضحت صحـة شكوكى التى كتبتها قبل هروبه بعدة سنوات.

والملحـوظة التى تستطيع أن تصـل إليها فى نهايـة الأمـر أن كل هذه المقـالات التى سجنت بسببها كانت مقـالات فى موضوعات بعيـدة عن السياسة.. ولم تخرج عن خط

نقد بعض السياسات الخاطئة فى مجال النقل البحـرى!! ولعلك تندهش إذا ما عرفت أن هذه المقـالات قد تـركت أثرا طيبا على مستـوى المهتمين بالنقل البحـرى كله.. بل وعلى مستوى بعض الاقتصاديين المهتمين بهذا القطاع..

ولم يدر فى ذهنى أبداً.. أننى يمكن أن أدخل السجن بسبب هذه المقالات التى لم تكن تهدف سوى الصالح العام!

ولعلنى أذكـر لك أن هناك – بجـانب هذه المقـالات – أسبابـا أخرى تأتى فى المقـام الثانى.. وهى مـوقفى من المرحوم عصمت السادات وأخيه الـذى أراد أن يدخل مجال النقل البحرى.. ولولا وقـوفى ضده فى هذا المجال لكان هو الآخـر قد استطاع أن يجمع الملايين من قطاع التوكيـلات البحرية!. ورغم أننى لا أجزم بـوقوف عصمت السادات بشكل مباشر ضدى فى هذه القضية إلا أننى استنتجت ذلك.. والسبب ربما يرجع إلى أن هـذه المقابلـة وقعت عـام ١٩٧٦ – ربما فى سبتمبر أو نوفمبر من عـام ١٩٧٦ – وقبل وقوع هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة!

**** ليسمح لنا الكاتب والمفكر أن يحكى لنا عن ظروف اعتقاله؟!**

– هو أنـا كان يـوم الجمعة السـاعة الثـانية والنصـف صباح يـوم ٢٢ ينايـر عام ١٩٧٧.. وأثناء وقوع الأحداث التى سبق وحكيت لك عنها وهى أحداث ١٨ و١٩ يناير! وعلى ما أذكر أنه قد صاحب وقوع الانتفاضة منع التجول. ومع ذلك لاحظت وأنا كنت سـاكن وقتها بحى غمـرة الذى يطل على شـارع رمسيس.. وكنت وأنا سهـران أسمع النـاس تهتف فى الشـوارع رغم سريـان هذا الحظـر. ورغم أننى كنت أسكن بـالـدور السادس. وعلى فكرة أنا لا أنام بالليل كثيرا لأننى أعشق الليل وأعشق العمل فى هدوئه.. وقتها على مـا أذكر كنت مشغولاً للغايـة فى حل مشكلة متعلقة بـالنقل البحرى.. وكنت وقتها أقلب فى أوراقى الخاصة من أجل البحث عن حل.. وكـان معى وقتذاك ملف هذه المشكلة كى أدرسه بعنايـة.. وكنت قد بدأت ساعتها كتابة التقريـر المفروض أن أقدمه وفيه الحل الذى نبحث عنه.. وفجأة دق جرس بـاب شقتى.. وقد أصابتنى الدهشة من طريقة الطرق على الباب لأنها كانت طـريقة إستفزازية.. وأقسم لك بالله أننى حتى تلك اللحظة لم أكن أتخيل أنهم قـوة من رجال البوليس.. وكل مـا تصورته أنهم مجمـوعة

المشاغبين الذين كنت أسمع أصواتهم منذ دقائق فى قلب الشارع! لذلك أصابنى القلق واتخذت وضع الاستعداد.. وقمت من فورى كى أتأكد مما تصورته.. فنظرت من العين السحرية الموجودة بالباب.. فوجئت برؤية عدة أنفار ومخبرين ومعهم اثنان من أمناء الشرطة وقائد من رجال البوليس بالزى المدنى.. قمت بفتح الباب.. وعلى الفور سألونى.. إنت مختار السويفى؟!. وقبل أن أجيبهم انطلقوا داخل الشقة!. وقاموا بحملة تفتيش واسعة!! خاصة فى المكتبة، وبعد أكثر من ربع ساعة رأيتهم وقد عثروا على بعض الكتب وأخذوها إلى جنب.. منها كتب أدبية لمجموعة من الأدباء الروس!. ويحضرنى هنا أن أروى لك أننى قد عزمت على هؤلاء الضيوف أن أقدم لهم أى تحية حتى ولو كوب شاى.. فرفضوا وخاصة ضابط البوليس. ولكن منظر المخبرين والإرهاق الظاهر فى وجوههم جعلنى أقدم لهم الشاى.. وسرعان ما استجاب الضابط هو الآخر حين عرضت عليه أن يشاركنى فى كوب الشاى.. بعد التفتيش عثروا كذلك فى درج مكتبى على مبلغ ألف دولار وألف جنيه وتذكرة سفر.. ومنذ هذه اللحظة التى أخذوا فيها هذه النوعية من الكتب أحسست بما هو قادم!!.. إننى أصبحت الآن محسوباً على التيار الشيوعى!! وإلا لماذا لم يأخذوا مثلا دائرة المعارف البريطانية أو كتبا أخرى من هذا القبيل. ورغم ذلك كنت شديد الاطمئنان لأننى كنت قد اشتريت هذه الكتب من المكتبات العامة.. ولا ضرر من الإحتفاظ بها..

المهم.. أعود كى أحكى لك قصة الألف دولار والتذكرة التى عثروا عليها وهى خاصة بسفرى إلى دولة سنغافورة.. لقد لاحظت أنهم أخذوا هذه الأموال.. وقد اعترضت بشدة، ولكن الضابط الذى تحول بعد لحظات إلى إنسان مصرى لطيف طمأننى بأن كل شيء محفوظ.. وبالتالى وضعهم بجانب الكتب.. والألف دولار هذه لا تتصور قيمتها على نفسى كبيرة، فقد حصلت عليها من مكتب الأمم المتحدة كى أصرف منها خلال رحلتى إلى سنغافورة.. حيث اختارونى محاضراً دولياً فى شئون النقل البحرى ممثلا لمصر ولدول الشرق الأوسط. وكنت سوف أسافر بعد هذا الحادث المشئوم بأيام إلى سنغافورة كى التحق بدورة تدريبية لإعداد محاضرين فى اقتصاديات النقل البحرى للدول النامية.

ولكن للأسف لم يتحقق هذا الحلم.. وأقول لـلأسف لأنني بعد نجاحي في الحصول على هـذه المنحة الـدولية ممثـلا لمصر وممثلا للشرق الأوسط، لم أتمكن بسبب حـادث السجن من تحقيق هذه الرغبة. وأنا أذكر أن هذه الدورة كان من المفروض أن تبدأ من ٦ فبراير عام ١٩٧٧ وتستمر لمدة ستة أشهر. وبعد تفتيش الشقة.. طلب مني الضابط أن يصحبني معه من أجل استكمال بعض الاجراءات على حد قوله!. وحتى هذه اللحظة لم أكن أتصور أن المسألـة يمكن أن تكون عقـوبة أو اعتقـالا لأنني - وكما ذكرت لك - لم ارتكب ذنباً أعـاقب عليه. وقـد كرر الضـابط على مسامعي أن المسألـة مجرد شكليات وربما تستغرق ساعـة واحدة، وبعدها تعود إلى المنزل. وقـد وافقته على ما طلب مني.. وقد حـدث أيضا شيء غـريب في هذه اللحظـة ويثير السخريـة والضحك في آن واحد.. فعندمـا خرجت من غـرفة المكتب من أجل تغيير مـلابسي استعدادا للـرحيل.. فوجئت باثنين من أمناء الشرطـة يقفان على باب حجرة النوم التي أغير فيهـا ملابسي!!. وطبعا خوفا من الهرب أو أنني قد أقفز من الشباك أو شيء من هذا القبيل.

وبعـد أن ارتديت مـلابسي.. أشار عليّ الضـابط بهدوء أن آخـذ بعض احتياجـاتي الشخصية في شنطة صغيرة.. وعلى الفـور بادرته بالقول: إذن المسألـة حتطول؟! فردد نفس كلماته الأولى بأنها مجرد شكليات! المهم أخذت الشنطة التي أشار عليّ بها.. وقبل أن نغادر الشقـة استفسرت منه: هل لـديه إذن من النيابـة؟.. وكان يحمل بـالفعل هذا الاذن المدون فيه بعض المعلومات العامة.. وليس فيه اسمي بالتحديد.. ونزلنا من الشقة وركبت معـه في سيارتـه الملاكي الخاصة بـه. وانطلقنا نسير طـوال الليل حتى سجن مزرعة طرة.. حيث فوجئت بأن السيارة لم تذهب بنا إلى مكتب المباحث كما وعدني.. بل ظلت تسير بمحاذاة كـورنيش النيل مما زاد جـرعة الشك في نفسي.. وأردت أن أتـأكد فسألته للمرة الأخيرة: ما هي الحكايـة؟! وأين نحن ذاهبون؟!.. فرد عليّ بنفس طريقته الهادئة: المسألة إن اسمك جاء في كشف المطلوب اعتقالهم.. وأنا من ناحيتي.. -والكلام ما يزال للضابط - أعرف أنك مظلوم.. وربما مـا جعله يقول ذلك أنه حين جاء في الفجر فـوجيء بي أكتب المذكرة التي حكيت لك عنها، وكـانت نحو عشرين صفحة كان يظنها في بداية الأمـر منشورات!! وقد أكد هـذا المفهوم بداخله أنني أيضـا طلبت منه توصيل هذه المذكـرة إلى مكتبي في النقل البحري لأهميتها الشـديدة في العمل.. وللحق فقـد قام

بتوصيلها بكل أمانة.

المهم الآن ونحن على أبواب سجن طره.. شد هذا الضابط على يدى بقوة.. وإعتذر لى باعتبار أن هذه المهمة من واجبه المكلف به. وقد ترك هذا السلوك فى نفسى أثرا طيباً.. فى وقت حدوث هذه المصيبة التى لم أكن أتوقعها.

وبعد دخولى إلى المعتقل.. وبعد حملة تفتيش واسعة لملابسى وملابس غيرى من المعتقلين الآخرين الذين قدموا معنا.. وزعونا على الزنازين.. كل واحد فى زنزانة إنفرادية حقيرة وقذرة.. ولم يكن بها أى شىء يدل على صلاحيتها للإقامة فيها حتى لكلب أجرب!.. وظللت بها هكذا لمدة ثلاثة أيام حيث أضافوا لنا فى نفس هذه الزنزانة ثلاثة مساجين معتقلين مثلى.. ولم تتعد مساحة هذه الزنزانة مترين × مترا!! فكيف نستطيع أن ننام بداخلها.. بل أكثر من ذلك – وبعد ثلاثة أيام أخرى أضافوا لنا معتقلين جدداً فأصبحنا خمسة أفراد فى المساحة الضيقة!!.

ودعنى أقول لك شيئاً هاماً جدا اكتشفته لحظة وجودى منفرداً داخل هذه الزنزانة القذرة.. هو أن الثانية والدقيقة كانت شيئا ولا الدهر!.

ولك أن تتصور أننى بعد قضاء أسبوع فى هذا الحيز الغريب لم أكن أعرف سبب الاعتقال أو هدفه أو متى سينتهى؟!. وكل ما كنت أسمعه من بقية الزملاء الموجودين بالزنازين الأخرى.. أننى اعتقلت بسبب الشيوعية.. وقد عرفنى بذلك الشاعر أحمد فؤاد نجم الذى كان مسجونا فى الزنزانة المجاورة.

❊❊ لو أردنا أن نعرف من الأستاذ مختار.. كم قضى فى السجن.. ماذا يقول؟!

– أنا قضيت فى الاعتقال وفى سجن طره بالضبط ٤٥ يوماً.. وهى المدة الشرعية بتاعتهم التى بعدها لابد من الإفراج أو تجديد الاعتقال.. وطبعا يرجع الفضل فى ذلك بعد ربنا إلى القضاء المصرى المدنى العادل.. حيث كانت ادارة السجن تسمح لكل معتقل أن يتظلم إلى محكمة مدنية.. ووفقا لما لدى هذه المحكمة من معلومات يحق لها أن تفرج عن المسجون أو تجدد حبسه أو إعتقاله. وكان لابد أن يتم النظر فى هذا التظلم خلال

شهر من الاعتقال.. والشيء الغريب أنك لابد أن تمكث خمسة عشر يوماً داخل السجن حتى بعد قرار المحكمة بالافراج عنك. وهذا بالضبط ما حدث لى..

**** يعنى نقدر نقول: ما هى أهم الاجراءات التى تم اتخاذها من أجل الإفراج عنك؟**

- أعود وأقول لك إن إدارة السجن فى كل فترة تمر على الزنازين من أجل تسجيل أسماء المعتقلين الذين يطلبون التقدم بتظلم.. فيأخذون اسمك فى كشف كبير ثم يخبرونك فيما بعد بموعد الجلسة. وقد تقدمت بتقييد اسمى بجانب ما قام به بعض المحامين من أصدقائى حيث بلغ عدد هؤلاء المحامين خمسة محامين!.

وسبق أن ذكرت لك قصة الثلاثين يوماً ثم قصة الخمسة عشر يوما التى يجب أن أقضيها فى السجن حتى بعد قرار المحكمة بالافراج.. والسبب فى ذلك إتاحة الفرصة للحاكم العسكرى للتصديق على الحكم إما بالموافقة على الإفراج أو الإلغاء.. ولك أن تتصور كيف قضيت هذه المدة. لقد عشت أياماً مرعبة خاصةآخر يوم.. لقد كنت أتصور - رغم براءتى - أن الحاكم العسكرى من الممكن أن يرفض الإفراج عنى. والحمد لله فقد صدق الحاكم العسكرى على قرار الإفراج وخرجت مساء اليوم الخامس والأربعين. ولعلنى أسجل هنا بهذه المناسبة تحية خاصة لرجال القضاء المصرى العادل الذى تحمل خلال هذه الفترة عبء الإفراج عنى وعن غيرى من الزملاء المفكرين المعتقلين. وعلى ما أذكر أنه فى نفس الجلسة قد تم الإفراج عن أكثر من تسعة عشر من غيرى من المعتقلين.

**** .. كما عرفنا سبب الإعتقال.. ماهى الأسباب التى استندت إليها المحكمة فى قرار الإفراج؟!**

- والله الأسباب كما ذكرها المحامون المدافعون عنى.. هى جهودى فى مجال النقل البحرى وجهودى الفكرية والأدبية.. بجانب أننى لم أكن منتمياً لأى حزب أو جهة سياسية.. ولاتتصور أن هذه الأسباب قد قيلت أمام المحكمة فقط.. بل سبقها تحقيق

داخل السجن.. ومن المؤكد أن المحكمة قد استندت إلى هذه الأسباب أيضا. فقد أجرت نيابة أمن الدولة معنا تحقيقا ونحن خلف الجدران.. وقلت فيه إننى جئت هنا على سبيل الخطأ. وإكتشفت فيما بعد أنها كانت تحقيقات مبدئية للغاية. ولكننى فى أثنائها عرفت التهمة الموجهة لى بالضبط.. لقد كنت متهما بالماركسية وأننى أكتب مقالات تهاجم الانفتاح الاقتصادى وتحمل أفكاراً ماركسية.. وأننى كنت أعد خطة للهرب إلى سنغافورة بناء على تذكرة السفر التى ضبطت بدرج مكتبى.. ليس هذا فقط.. بل إننى قد تلقيت دعما ماديا من الخارج بسبب الألف دولار.. وأكثر من ذلك أن الألف جنيه المصرية التى حكيت لك عنها.. كانت مسلسلة الأرقام وكل مائة جنيه منها كانت مدبسة بدبوس.. الأمر الذى جعل جهات المباحث تعتقد – بل تكتب فى تقاريرها – أن هذه الأموال كانت معدة للتوزيع!! أيضا كانت هناك تهمة أخرى وهى أننى ألقيت محاضرة عن الديمقراطية لبعض العمال!. وكانت مفاجأة أيضا، فلم يحدث أبدا أن ألقيت أى محاضرة من هذا النوع.. وفى التحقيق اكتشفت ما يمكن أن يضحكك عاماً كاملاً. فقد كنت أزور الفنان والرسام زهدى أثناء قيامه بإعادة طلاء شقته، وكان بهاآنذاك أحد العمال وزميله.. وقد اشتركا معنا فى مناقشة كانت بينى وبين زهدى وزائرآخر أعرفه.. حيث وجه أحد هذين العاملين سؤالاً لى عن مفهوم الديمقراطية بإعتبار أنها كلمة يسمعونها كثيرا ولا يعرفون معناها!!. وبالتالى أخذت أشرح لهما معناها كما جاءت فى اللغة اليونانية.. وتتصور أن الذى أوصل هذه المعلومة إلى رجال المباحث كان أحد هذين العاملين!!. وقد وجدتها مدونة أمام المحقق الذى جاء كى يأخذ أقوالى فيما نسب إلىّ.. ليس هذا فقط، بل فوجئت بأن الزائر الآخر الذى كان موجودا معنا فى بيت زهدى وهو الصحفى الأستاذ الفنان عبد المنعم القصاص قد جروا رجليه فى هذه القضية بسبب هذه الزيارة مع انه لم يتكلم إطلاقا، وظل ساعتها يستمع فقط.. هذا بالإضافة طبعاً إلى الفنان زهدى.. وتعرف التهمة المدونة كانت إيه؟!.. أننا نزود هؤلاء العمال بأفكار هدامة.. تصور!! لقد كانت هذه التهم بالنسبة لى تهماً بشعة ومرهقة نفسيا.

*** وهل نستطيع أن نقول أن نزاهة القضاء المصرى هى السبب فى خروجك من هذه الورطة إن جاز التعبير؟**

– دى فعلاً حقيقة!. وكانت فرصة كى أرد على كل ما جاء بتقرير المباحث من إتهامات.. وكانت المحكمةآنذاك واسعة الصدر حيث استمع القاضى إلى كل ما قلته وبأمانة. وعلى ما أذكر أن رئيس المحكمة كان هو المستشار الصدفى..

*** ما هو تأثير تجربة السجن على الكاتب والإنسان مختار السويفى..؟!**

– تبدأ هذه التجربة منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها الزنزانة التى حكيت لك عنها.. فى فجر يوم ترحيلنا من المنزل إلى سجن طره!.. لحظتها فقط شعرت بقيمة الحرية التى وهبها اللـه للإنسان.. لقد اكتشفت أنها أعظم نعمة من اللـه، خاصة وأنت سجين زنزانة منفردة!. ومما زاد من آلام النفس قذارة المكان الذى دخلت إليه والذى بات عليك أن تقيم فيه رغماً عنك.. ولا أستطيع أن أصف لك مقدار هذه القذارة النابعة من الروائح الكريهة المنبعثة من «جردل البول والبراز» الموجود بجانبى لمدة ٢٤ ساعة!.

أضف إلى ذلك شكل الباب الحديدى الكئيب.. وهو باب الزنزانة الذى ينبعث منه صوت مخيف حين إغلاقه. واستمرت هذه الوحدة فى الحبس الانفرادى حتى أضيف لنا آخرون كما حكيت من قبل.

**** وبخصوص ما يتعلق بالورق والقلم.. هل كان يسمح لكم بالحصول عليه؟!**

– الورق والقلم كان من الأشياء المستحيلة.. لكن الشىء الجديد أنه فى الأسبوع الأخير قبل الإفراج.. سمحوا لنا بقراءة الصحف، كما سمحوا لنا بالكتب سواء التى تأتينا من الخارج أو التى نستعيرها من مكتبة السجن!

**** وهل تعرضتم لتعذيب؟!**

– أبداً.. وهذا هو الشىء الغريب الذى حدث فى سجون مصر فى فترة ما بعد منتصف

السبعينات.. وهقولك ليه؟!.. لأنه كان فى هذه الفترة تجرى محاكمة الضباط الذين اتهموا فى قضايا تعذيب المعتقلين.. وطبعا كان هذا فى تصورى هو السبب الرئيسى.. ولولاه لتعرضنا للتعذيب مثلما تعرض غيرنا من قبل. حتى أثناء إجراء التحقيقات معى داخل السجن.. كانت تتم بعيداً عن شبح التعذيب!.. وأكثر من ذلك فقد اتسمت معاملات ضباط السجن آنذاك بشىء من الرحمة والإنسانية.. ويمكن ده كان موضع استغراب.. وربما يكون ذلك راجعاً إلى إحساس الضباط أنفسهم بأننى دخلت هنا بقضية فكرية ملفقة!!.

**** كم كتاباً ألفتموه خلف الجدران؟!. أو حتى ما هى الأفكار التى خرجت بها من هذه التجربة!!.**

- أنا لم اكتب كتباً فى السجن.. ولكننى كتبت قصصاً قصيرة وهربتها إلى خارج السجن ونشرت فى مجلة صباح الخير وأنا مسجون. ومن بعد خروجى جمعت هذه القصص مع ما كتبته من قصص سابقة ونشرتها فى كتاب بإسم «مساخر من العاصمة والأقاليم». وعلى ما أذكر فى هذه الفترة وأنا داخل هذه الجدران السوداء كتبت قصة بعنوان «واحدة أرتيست».. وكان المرحوم حسن فؤاد رئيساً لتحرير صباح الخير، وكنت وقتها أنشر فيها القصص القصيرة التى أكتبها.. وبعد تهريبها نشرت فى العدد الجديد.

وقد نبهنى إلى نشرها حكمدار عنبر السجن وهو العقيد محمد صفوت.. وكان من الضباط المصريين المحترمين.. حيث جمعتنا سويا جلسات متعددة عرف من خلالها مشكلتى ووظيفتى.. وربما أقول إننا تحولنا إلى أصدقاء فى الفترة التى سبقت خروجى من السجن مباشرة.

**** .. وكم كتاباً ألفتموه بشكل عام؟!**

- هم حتى الآن بلغوا ٥٤ كتاباً..

**** .. وقبل الإعتقال..؟! كم كان عددهم؟!**

- مؤلفاتى جميعا قبل دخولى السجن.. كان معظمها فى مجال النقل البحرى.. وربما

أكون المصرى الوحيد الذى له مؤلفات بهذه الغزارة فى هذا الميدان.. لأن أغلب هذه المؤلفات كانت باللغات الأجنبية.. وكتبها مؤلفون أجانب.. بالإضافة إلى ذلك كانت لى كتب أخرى فى الفن والأدب ومسرح العرائس.

وقد تغير مؤشر النوعية بعد خروجى من السجن.. فكتبت أدباً ساخراً ومؤلفات عن آثار مصر وتاريخها القديم.. ومازلت أكتب كتبا عن النقل البحرى وآخرها «قاموس مصطلحات النقل البحرى والتجارة الخارجية».

**** .. ومن هى أهم الشخصيات التى قابلتموها فى فترة الاعتقال؟**

– طبعا تعرفت على شخصيات كثيرة جداً.. بعضهم من اليساريين.. مثل الشاعر أحمد فؤاد نجم.. ومن غير اليساريين أحد المحامين واسمه صلاح القفص.. وهو محام من محافظة الغربية وأيضا كانت تجمعنى به علاقة خاصة من واقع دخوله السجن فى قضية سياسية ملفقة مثلى تماماً.

وأيضا تعرفت على الصحفى الأستاذ عبد المنعم القصاص.. زوج الزميلة الأستاذة الصحفية أمينة شفيق. وأيضا العقيد محمد صفوت الذى سبق الحديث عنه.. وكذلك المستشار يوسف دراز الذى حقق معى أثناء إعتقالى فى السجن.. وتقدر تقول إن علاقتى بهؤلاء قد قلت كثيراً.. وتتم الآن فى صورة ضيقة وبشكل تلعب فيه الصدفة دورها.

**** وهل هناك شخصيات أخرى جمعتكم بها قصص وحكايات داخل السجن غير الذين ذكرتهم؟!**

– طبعا فيه كتير.. ودعنى أحكى لك عن بعض الحكايات الطريفة التى حدثت لى داخل السجن.. فقد كانوا يسمحون لنا بفسحة خارج الزنازين من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة ظهراً.. ثم فسحة أخرى من الساعة الثانية حتى الرابعة عصراً وهو موعد التمام واغلاق الزنازين على المساجين. وفى هذه الفسح تعرفت على الكثيرين من اليساريين الشباب المتحذلقين فى الاشتراكية قوى قوى.. والذين يتكلمون بلغة «الحنجورى» حسب التعبير الظريف الذى ابتدعه الكاتب الساخر الأستاذ محمود

السعدنى.

وفى إحدى هذه الفسح تقدم منى أحد هـؤلاء الشباب وسألنى هامساً: هو حضرتك «طيار» (هكذا سمعت الكلمة).

فقلت على الفور: لا.. أنا باشتغل فى النقل البحرى..

قال: أنا عارف.. بس هل صحيح أنت طيار..

قلت: يابنى بأقول لك أنا بشتغل فى النقل البحرى.. أبقى طيار إزاى..

قال: أنا قصدى هل أنت «تيار ثورى»..؟

قلت: وإيه التيار الثورى ده كمان؟

قال: حضرتك متعرفش تنظيم التيار الثورى؟!

قلت: لا والله.. دى أول مرة باسمع أن فيه تنظيم اسمه التيار الثورى!

وانتهى الحوار عند هـذا الحد.. ولكن فى اليوم التالى ذكر لى الشاعـر أحمد فؤاد نجم أن الشباب بتـوع تنظيم (٧ يناير) مبســوطين منى ومعجبين بى ويعتبروننى قدوة فى القيادة التنظيميـة، نظراً لأنى السكرتير العام للجنـة المركزية لتنظيم «التيـار الثورى» ومع ذلك فأنا أخفى المنصب التنظيمى الذى أشغله ولا أبوح بسره لأحد!!

– يانهار أسود!.. إن هذا الإعجاب يـودينى فى ستين داهية!!.. وإيه حكاية تنظيم «٧ يناير» ده؟

استنكر أحدهم هذا السؤال وقال لى بحدة:

– أنت حتتريق علينا يا رفيق..؟!

أجبته بحدة أكثر: والله عمرى ما سمعت عن تنظيم اسمه «٧يناير».. أنا أعرف إن ٧ ينايـر هو عيد ميـلاد المسيح عليه السلام لدى طـوائف الكنيسـة الشرقية.. وأنـه أيضا تاريخ ميلادى أنا شخصيا!

وهنــا تســاءل بسخريــة: يعنى حضرتك عــايـز تقـول إنك انت اللى عملت تنظيم ٧

يناير..؟!

كان من الصعب أن يتم حوار معقول بينك وبين مثل هؤلاء المتحذلقين «الأسياخ».. كانوا لايملون الحديث عن الاشتراكية والمادية الجدلية وأفكار ماركس وأنجلز ولينين وتروتسكى وماوتسى تونج. ولايطيقون الحديث عن تاريخ مصر القديم أو الحديث أو عن الزعماء الوطنيين المصريين أمثال عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول..

وحكاية طريفة لاتقل طرافة عن الحكاية السابقة.. فقد اكتشفت شيئا جميلا جدا فى حوش العنبر الذى تـوجد الزنازين على جانبيـه، وهو حوش واسع عرضه نحـو ثلاثة أمتار وطوله نحو خمسة عشر مترا، ويتجمع فيه ساعة الفسحة نحو مائة معتقل..

وقبيل الظهر من كل يوم، تنكسر أشعة الشمس متخطية الأسوار العالية التى تحيط بالعنبر من كـل جانب، وتنعكس على ركن الجدار الأيسر للعنبر.. وكـانت هذه الجدران مدهونة بالجير الأبيض منذ مدة طـويلة.. ربما منذ أيام محمد على الذى بنى ليمان طره فى عهده.. وربما بسبب الرطوبة والـزمن تخمرت طبقة الجير الأبيض وكوّنت ذراتها فى بعض الأركان حبيبات دقيقة جداً على شكل بللورات أو كريستالات متناهية فى الصغر. ولكنها تعكس أشعة الشمس المنكسرة عليها وتحللهـا إلى جميع ألوان الطيف من اللون الأحمر فى طرف إلى اللون البنفسجى فى الطرف الآخر، مـروراً بالألوان المبهرة الأخرى كالأزرق والأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر.

كنت أجد متعة عظيمة فى النظر إلى هذه الكريستالات من زوايا مختلفة، حيث تتشكل الألـوان فى تـركيبات طبيعيـة فى منتهى الجمال والـروعـة.. وكنت أقضى معظم وقت الفسحة متأملاً فى تلك التشكيلات اللونية ومستمتعا بسعادة لا حد لها.

وحتى هـذه المتعـة الرائعـة لايتركك الـزمـلاء لكى تتمتع بها.. فقـد تقدم إلى أحـد اليساريين المعروفين - وكان اسمه الأستاذ فاروق - وجذبنى من ذراعى وهو يعاتبنى بشدة على هذا الانزواء والوحـدة والصمت والإنعزال عن الآخرين.. وهم لايرضون أن أضع وجهى فى الحائط بمجرد خـروجى من الزنـزانة، ويجب على أن أتحمل وألا أتألم على هذا النحو الغريب.

وعبثا حاولت أن أشرح له أنى لا أتألم ولا يحزنون، وإنما أتمتع بمشاهدة التشكيلات والتكوينات اللونية التى تكونها بللورات الجير، ولكنه لم يقتنع بهذا الكلام، وقال إن مثل هذه الخيالات قد تؤدى بى إلى الجنون وإنى لابد أن اختلط بالآخرين واندمج فى الحديث مع الرفاق!

وطبعا تعرفت أيضا على بعض الشخصيات الأخرى من عالم السجن، فقد كان هناك بعض المساجين يأتون بهم إلى العنابر التى نقيم بها من أجل تنظيفها.. وخدمتنا.. ومن أهم الشخصيات التى تعاملت معها من هؤلاء شخصية السجين الحلاق!!. حيث سمحوا لنا بعد مرور أكثر من خمسة عشر يوماً بحلاقة الذقن.. وطبعا لايسمح لك فى هذه الحالات بإصطحاب أى ماكينة حلاقة أو موسى.. وأرسلت إلينا إدارة السجن هذا الحلاق ليحلق ذقن من يريد أن يحلق ذقنه.. وكان يستخدم فى عمله قطعة «جريد» طويلة وفى آخرها قطعة من شفرة موسى.. وتعرف كانت بتؤدى غرضها على أحن وجه.. وبعد فترة من تعاملى مع الحلاق اكتشفت إنه محكوم عليه فى قضية قتل، ولك أن تتصور مدى الرعب الذى انتابنى بشدة.. ومن يومها رفضت تماماً حلاقة ذقنى حتى خرجت!!.

شخصية أخرى تعرفت عليها من هذه النوعية.. ولكنه كان سجيناً أميناً.. فقد توثقت علاقتى به إلى درجة أنى إعتبرته أمين سر وجودى داخل الجدران.. فقد كان هو همزة الوصل بين أسرتى التى تبعث إلينا بالزيارة الأسبوعية وبينى. وكان له معى مواقف شجاعة.. إذ تحمل فى مرة من المرات تهريب إحدى خطاباتى لأسرتى. ولكن للأسف ضبط هذا الخطاب وعوقب السجين بسببى.. حيث رفض الاعتراف بأننى أرسلت معه الخطاب.. وهذا السجين كان يعرف كل أفراد أسرتى من كثرة تعامله معهم.

**** .. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر؟!**

– أنا أعتبرها أسود نقطة فى حياة الإنسان.. والمفروض فى السجن أن يكون رادعاً لمن يرتكب جريمة.. ولكن المفكر لا يرتدع بالسجن.. وأسألك: ولماذا ندخل فى الأساس إلى هذا المكان اللعين؟!.

وأرجو أن أقول لك أيضا أن أسود نقاط السجن تكون بالنسبة للرجل المظلوم.

**** .. وبشكل عام هل ترى فى السجن عقوبة رادعة للحد من الإجرام؟**

– شوف يا أستاذ.. إن الدارسين لعلم النفس الجنائى يرون فى السجن مثلما تقول فى سؤالك.. ولكن المفروض أن هذا الردع يخضع لعملية نسبية.. كيف!.. أقول لك.. إن القانون بنصوصه موجود منذ بداية حضارة الإنسان.. فهل تمكن هذا القانون من مقاومة الجريمة.. لا أظن؟.

وفى تصورى بالنسبة لأسباب وقوع الجرائم.. أرى ما يراه بعض الفلاسفة الذين شغلتهم هذه الخصوصية كثيرا من حيث أننا لو وفرنا الرفاهية التامة للناس فسوف تقع الجريمة.. وإذا عاش الناس فى ضيق أيضا تكثر الجريمة.. وهنا تظهر نظرية النسبية فى العقاب والتى حدثتك عنها.. فالجريمة إذن مرتبطة بحياة البشر على الأرض.. وبشكل عام لابد من العقاب الذى يختلف من مجتمع لآخر.. ونشترط ألا يصاحبه تعذيب.

وبالنسبة للمفكرين بوجه عام.. طبعا من العيب أن نزج بهم مع السفاحين والقتلة ومرتكبى الجرائم الأخلاقية.. وأتمنى ألا تكون هناك عقوبة أو سجن أو اعتقال للمفكر!.. وإذا ما تحولت نظرة المسئولين إلى المفكرين على أنهم مجرمون.. فلابد أولاً من محاكمتهم أمام محاكم مدنية.. ثم إفساح المجال أمامهم كى يقولوا كلمتهم.. وحتى لو فشلوا فى إثبات أنهم ليسوا مذنبين.. وحكم عليهم بالعقوبة.. فلابد من معاملتهم معاملة تخالف معاملة غيرهم من المجرمين الآخرين. والجرائم كثيرة، ومتنوعة. وأحب أن أسجل لك هنا شهادتى بهذا الخصوص.. إنه رغم السلبيات التى نعيشها وعشنا من خلالها، فإننا أسعد شعوب المنطقة العربية فيما يتعلق بهذه المسألة. فلدينا قدر كبير من الحرية.. وقدر كبير من الكلام.. حتى ولو لم يأخذ به، وهذا يجرنا إلى موضوع هام وهو كيف نعالج الرأى المعارض بعيداً عن شبح الإعتقال أو السجون. فلكل مفكر حريته فيما يشاء أن يقوله مادام يبعد عن العنف ولايخرج عن الورقة والقلم.. فالرأى المعارض له أيضا قيمة ولابد من الإستفادة به.. وليس معنى المعارضة الخصومة..

ولكن حين تخرج هـذه المعارضة عن شرعيـة الأوراق والقلم وتلجأ إلى وسـائل أخرى للعنف، فهنا لابـد وأن يتدخل القـانون– وبحزم – لـوقف هذا العنف الـذى خرج عن شرعية الفكـر، الذى لاينـادى أبداً بإستخـدام أى وسيلة من وسـائل العنف. وأمـامنا القنوات التى يمكن أن نعبر من خلالها.. مثل وسائل الإعلام.

❊❊ وما رأى الأستاذ مختار السويفى فى أحوال سجون مصر الآن؟!.

– أنا حين اعتقلت دخلت مكـان اسمه ليمان طره.. وبداخلـه وضعت فى قسم اسمه قسم الإستقبال.. وكان فى نظرى – وحسب المدة التى قضيتهـا فيه – من أسوأ الأماكن فى ليمان طره.. ولم أشاهد أماكن داخل هـذا الليمان أسوأ حالاً منه.. ولكننى سمعت أن بـداخل هـذا الليمان أماكن أخـرى جيـدة.. وبها وسـائل معيشة طيبـة مثل السرايـر والبطاطين.

❊❊.. مـاذا لـو كنتم مأمـورا للسجن.. أثنـاء اعتقـال مفكـريـن.. كيـف سيكـون تعاملكم مع هؤلاء المفكرين؟!

– هو طبعا هذه الحكاية محكومـة بلوائح ونصوص.. وأنا كدارس للقانون أرى أن هناك عـدة طرق لتفسير هذه اللوائح وهـذه القوانين.. وفعلاً لو كنت كما تقـول فى هذا المنصب لأخذت الجانب غير الجامد فى تنفيذ هذه اللوائح داخل السجن. وأنا نفسـى كنت أعامل داخل السجن فى أثنـاء فترة الاعتقال وفقا لهذه اللوائح، ولكن بتفسير غير جـامد ويتسم بالإنسانية من جانب بعض ضباط السجن.. وأقول البعض.. لأن الأغلبية كانت تتمسك بتطبيق هذه النصوص بشكل جـامد وقاس.. وبالنسبـة للمفكرين كنت سوف أتعـامل معهم من هـذا المنطلق.. خـاصـة العـامل الإنسـانى.. لأننى أتحرك فى حـدود اللوائح.

❊❊ .. ومـــاذا لـو كـان الأستـاذ مختار السـويفـى رئيسـا للحكـومـة أو وزيـراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكريـن مطلوب اعتقالهم. ما هو رد الفعل الذى سيكون لديه؟!

– لو كانوا مفكرين ومطلوب القبض عليهم.. فى هذه الحالة أرفض وأصر.. وأنا أعلم

أنها أوامر عليا تفوق سلطاتى.. وأحاول أن أوصل صوتى بالإعتراض على هذا القرار..
وإذا لم أوفق أستقيل فوراً. وقد يتم تقديم هذه الاستقالة وقبولها سراً.. وقد يشاع
وقتها أننى قد أقلت من منصبى.. إلا أنه فيما بعد سوف يفصح عن مضمونها
وأسبابها.. وعندئذ سيقال.. إن هذا الرجل المسئول قد استقال، لأنه رفض أن يسجن
مفكراً.. وما أقصده هنا مرة أخرى هو المفكر الذى لايستخدم وسائل العنف لتوصيل
رأيه للناس.

الحكاية العاشرة ترويها الدكتورة نوال السعداوى:

حتى هذه اللحظة.. لا أعرف
لماذا دخلت سجن النساء!!

*** آلو..**

- مين؟..

*** الدكتورة نوال موجودة؟..**

- مين عايزها؟..

* ... ...

- أهلا وسهلا.. خير.. أنا نوال..

*** ممكن تحددى لنا لقاء.. لإجراء هذا الحوار..**

- قبل ما نحدد الموعد.. عليك الأول أن تقرأ كتبى.. وخاصة كتابى (......) لأن فيه تجربتى عن السجن..

*** قرأته يا دكتورة.. وأيضا قرأت الحديث الصحفى الذى أجرته معك مراسلة وكالة رويتر بالقاهرة عن ذات الموضوع..**

- ممكن تتصل بى مرة أخرى.. بعد أسبوع..

*** مفيش مانع.. بشرط تحديد اللقاء..**

***

وهكذا تحدد هذا الموعد.. وكان هذا الحوار.. وكلماته التى حاولت أن أخرجها من

بين التاج الأبيض الذى تتحلى به الدكتورة نـوال السعداوى.. فوق رأسها.. إنه شعرها الفضى الذى تتركه فى غجرية يدل على اقتناعها بحريتها إلى أقصى الحدود.. فهى تفعل وتقول وتـرى ما تريـده من منظار الحرية الـواسع.. الذى زينته بكلمات علقتهـا فوق صدرهـا وساماً عظيم الأهميـة.. ولا تمل أبدا من ترديـد الكلمات التى اعتبرتها مفتاح حياتها وأساس وجودها فى الحياة..

«أبى كان حـراً وأمى كانت حرة منذ الطفـولة.. جرت الحرية فى عـروقى مع الدم.. رأيت أمى متمردة ترفض سلطة أبيها العسكرية وتثور على زوجها اذا إرتفع صوته فى البيت.. ورأيت أبى غاضبا ثـائرا فى وجه الحكومة والملك والانجليز.. وجـدتى الفلاحة الفقيرة سمعتها تغنى ضد الظلم وضد الفقر وحزن السنين»..

وحين تفـرغ من قراءة هـذه الكلمات التى تمثل مفتـاح شخصية هـذه المرأة.. التى يحلو لبعض النقاد أن يطلقوا عليها «المرأة المتمـردة دائما» تتصور أن الحياة لديها هى كل شىء فى الوجود.. وأن الحرية أغلى ثمـرة نجح الانسان على الأرض فى قطفها عنوة ورهبة.. وهى لا تفـرق فى هذا المجـال بين الرجل والمرأة ولا بين الفن والسيـاسة رغم تأكيدها الدائم على القول: «لقد كرهت السياسة وأنا طفلة، وكرهتها وأنا شابة، وكرهت الحرب، ولم تكن تشغلنى أمور السياسة ولا تثيرنى فى أحـداثها.. كنت مشغولة بالفن والأدب.. لكن اكتشفت أن الفن والأدب لا يوجدان بغير الصدق، وأن الصدق لا يمكن أن يوجد بغير الحرية، والحرية لا توجد بغير ثورة.. ومن أجل الحرية يجد الفنان نفسـه فى حلبـة السيـاسة.. من أجل الحريـة لا يمكن فصل الفـن عن السياسـة.. والحريـة هى الثورة.. حرية جميع الأفراد فى المجتمع رجالاً ونساءً»..

وحتى لا نسترسل فى الحديث أكثـر من ذلك ونبعـد عن صلب مـوضـوعنـا عبر صفحات هذا الكتاب.. توقفنا عند أول اشارة حمراء قابلتنا ونحن فى الطريق لمقابلتها.. وجعلنا منهـا نقطة انطلاق نحو عـالم الدكتورة «نوال السعـداوى» فيما يخص تجربة السجن والاعتقال وتأثيرهما على فكرها فى الحاضر وفى المستقبل..

عنـدئذ وقبل تشغيل شريط التسجيل لتفريغ مـا بـه من كلمات.. بحثت بأمانـة عن مدخل لرحلتنا عبر هذه الأوراق.. قبل أن ينطلق صـوت الدكتورة كى تحكى لنا قصتها مع سجن النساء.. ولم أجـد سوى هذه العبـارات الساخنة التى لا يـزال الدم ينبض فى

حروفهـا رغم مرور ثمانِ سنوات على كتـابتها: «لأنى ولدت فى زمن عجيب يسـاق فيه الانسان إلى السجن لأنــه ولد بعقل يفكر.. لأنه ولـد بقلب يخفق للصدق والعدالة.. لأنه يكتب الشعر أو القصــة أو الرواية.. لأنه نشر بحثـا علميا أو أدبيا، أو مقالا ينـادى فيه بـالحريـة.. لأننى ولدت فى هـذا الـزمن، لم يكن عجيبـا أن أدخل السجن، فأنـا اقترفت الجرائم جميعا»..

« كتبت القصة والرواية والشعر.. ونشرت بحوثا علمية وأدبية لكن الجريمة الكبرى أننى امـرأة حـرة وولدت بعقـل يفكر فى زمن يحاولـون فيـه الغـاء العقل.. لم أدخل فى حياتى لعبة السياسة ولا الأحزاب ولا الصحافة حتى مهنة الطب هجرتها.. ولم يبق لى من سلاح فى حياتى إلا القلم.. أدافع به عن نفسى.. وعن حريتى وعن الآخرين.. وربما لهذا السبب كسروا بابى وسـاقونى إلى السجن.. ولم أفـزع ولكنى غضبت.. ومع ذلك سأظل أكتب حتى ولو أخذوا منى القلم والأوراق.. سأكتب على الجدران وعلى الأرض.. وعلى قرص الشمس ووجه القمر.. لإيمانى أنه لا شىء اسمه المستحيل فى حياتى.»

***

وكما اتفقنا من قبل.. لن يكون هنـاك حوار بالمعنى المتعارف عليـه والذى يقوم على (س وج).. وانما هو استرسال فى حديث يطول ويقصر.. مع بعض وقفات.. فى سؤال أو أكثر حين نـريد أن نغير من اتجاه رياح الكـلام.. بقى أن نقول.. تعـالوا معى نسبح مع هـذه الكلمات فى بحر لا أريـد أن أصف عمقه.. لأننى أفضل دائما أن يكتشف القـارىء العزيز موقع قدميه قبل أن يبدأ..

لقد توقفنا سويا عند تحديد موعـد هذا اللقاء.. ومن بعد المكالمة التليفونية.. صدقت فيما وعدت به.. فبعد اسبوع بالضبط عاودت الاتصال من أجل تحديد الزمان والمكان.. والتقينا.. ودار جهاز التسجيل كى يلتقط حتى أنفاس الـدكتورة نوال السعداوى وهى تحكى لى بانفعـال غريب.. رغم أنها قـد فجرت شحنـات هذه الانفعالات مـن قبل عدة مرات.. فى كتبها أو فى أحاديثها الصحفيـة.. ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على هذا الحدث إلا أننى نجحت كثيرا فى إثارة هذا الماضى البعيد.. وحركت بداخلها اللا وعى كى تحكى لى بكل صدق وبكل أمانة حتى أدق التفاصيل..

***نريد أن نعرف من الدكتورة نوال.. كم مرة دخلت فيها السجن أو المعتقل؟..**

- مرة واحدة.. ولكن سبقها تحقيق فى مباحث أمن الدولة فى عام ١٩٧٢..

*** رغم أن قصة اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. معروفة للجميع وهى المرة الأولى التى اعتقلت فيها.. الا أننى أريد أن أسمعها تفصيلا من الدكتورة نوال.. والظروف التى صاحبت هذا الاعتقال؟..**

- القصة كلها كتبتها بالتفصيل فى كتاب صدر لى بعنوان «مذكراتى فى سجن النساء» وصدر عام ١٩٨٦.. وسوف أحكى لك بعض ملامحها: سمعت دقة على الباب.. كنت جالسة إلى مكتبى الصغير فى غرفة نومى.. عقارب الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر يوم الأحد ٦ سبتمبر عام ١٩٨١.. تجاهلت الدقة على الباب.. ربما يكون البواب أو بائع اللبن أو المكوجى.. لقد كنت أكتب رواية جديدة.. ثم جاءت الدقة الثانية.. لازلت جالسة أتجاهل الباب وتذكرت على الفور ما حدث لى أول مرة حين طلبتنى مباحث أمن الدولة وحققت معى.. كان ذلك عام ١٩٧٢.. بسبب محاضرة ألقيتها أمام جموع من الطلبة أغضبت وزير الصحة آنذاك.. كما أغضبت نقابة الأطباء ودور النشر وأجهزة الإعلام.

ومن يومها أصبح اسمى فى القائمة السوداء.. الدق على الباب يزداد.. أعود إلى ما أنا عليه من التفكير فى أحداث ما كتبته من روايتى الصعبة.. وكان الدق هذه المرة بعنف وقسوة.. وتكررت الدقات على الباب.. نهضت وسرت نحو الباب.. لقد شاهدت خلف زجاجه ظلالا طويلة سوداء.. سرت رعشة فى جسدى.. كنت وقتها وحدى بالشقة.. زوجى سافر.. وأولادى خرجا ولن يعودا قبل الليل..

هتفت من وراء الباب بخوف.. من الطارق؟.. جاءنى الصوت الغريب: بوليس.. فتحت الشراعة.. اتسعت عيناى فى ذهول.. عدد كبير من الرجال المسلحين بالبنادق.. وصوت خشن يقول بلهجة آمرة: افتحى الباب.. وعندما رفضت فتحوه بالقوة.. ومن النافذة التى تطل على الشارع الضيق الذى أسكن فيه تمكنت من الدور الخامس أن أشاهد أمام باب العمارة عدداً من سيارات البوليس ورجالاً مسلحين.. وفى لحظات سمعت صوت انكسار الباب وكأنه انفجار تحت قدمى.. ومن بعدها أخذونى إلى

السيارة التى كـانت تنتظرنى أسفل بـاب العمارة.. فتحت عينى ووجدتنى جـالسة فى السيارة وإلى جوارى ضابـط بوليس الذى بادرنى بقوله: تعبتينـا جدا يا دكتورة.. ألم تسمعى خطبة الأمس التى قالها الرئيس السادات؟.. لو سمعتيها لعرفت كل شىء..

*** اسمحى لى أن أقطع عليك طريق هذه الحكاية.. وأسألك لماذا تم التحفظ على الدكتورة نوال السعداوى؟..**

– هذا هو السؤال الذى بلا جواب.. ولكن جوابه واضح جدا إنه فى ظل حكم الرئيس السادات.. تم الإعلان عن تكـوين المنابر والأحزاب كبـداية قوية كان يـراها لاستعادة المجتمع المصرى للديمقـراطية المفقودة.. والحقيقـة أننى صدقت مثل هـذه الشعارات.. وقلت فى نفسى ربما تكـون رغبة صحيحـة.. وعلى ذلك بدأت فى حيـاتى أمارس النقـد والكتابـة وحرية الـرأى استنادا إلى هذا الإعـلان.. فإذا بى أدخل السجن.. ودائما كنت أقولها نكتـة لأننى صدقت الرئيس الســادات فدخلت السجن.. وأحب أن أؤكـد لك أنه رغم هذه الصحوة التى صاحبت اعتقادى بعـودة الديقراطية.. فإننى لم أنضم أبدا إلى أى حزب أو أى تجمع سياسى سواء قبل الثـورة أو بعدها.. فلا اتحاد قومى ولا اتحاد اشتراكى.. ولا حزب مصر.. ولا أى حزب مؤيد أو معارض.. أو وطنى أو يسار..

طول عمرى أرفض تماما الانضمام إلى الأحزاب السيـاسية وحتى الآن.. وهذا نابع من إيمانى بعدم الرضا عن أى حزب سياسى..إننى من يوم أن وعيت للحياة السياسية وأنا من مـواليد ١٩٣١.. لم أدخل هذا الميدان.. ومنـذ طفولتى المبكرة وأنـا أكتب.. فقد كتبت فى هذه السن المبكرة رواية بعنوان « مذكرات طفلة اسمها سعاد» .. ولكننى بدأت النشر بعـد تخرجى فى كليةالطب مبـاشرة ابتداء من أعـوام ١٩٥٦ و١٩٥٧ و١٩٥٨.. وعلى أية حال إننى أعتبر نفسى روائية ولست كاتبة سياسية.

وأقل كتابـاتى فى ميادين المرأة وميدان العلم والكتابـة السياسية أعتبرها نـوعاً من الفن.. لذلك تجدنى لم أكتب حتى هـذه اللحظة كتبا سيـاسية بالمعنى المتعـارف عليه.. وبالنسبة لتصوراتى الشخصية أعتبر أن السياسة تدخل فى كل شىء أعلاه الفن.. ومن الصدق أننى تخرجت من كلية الطب.. رغم تحول العديد من الأطباء من جيلى إلى طريق الأدب.. وخلاصـة القول.. إننى لم أدخل حزبـا سياسيـا طوال حياتى لقنـاعتى بعدم جدية هذه الأحزاب فيما تقوم به من أعمال..

والحقيقة أن دخولى السجن كـان أمرا غريبا.. ولم أتوقعه.. حتى أيـام عبد الناصر.. رغم أننى كنت متوقعـة هذا الإجراء من زبـانية الثورة.. وعلى وجه الخصـوص وزير الداخلية آنـذاك شعراوى جمعة.. حيث كنت فى موقف تحد معه.. لقد كـان هناك تحديا واضحا بيننـا أيام كنت عضـوة نشطة فى نقابـة الأطباء.. التى شغلت فيهـا فى يوم من الأيام منصب سكرتير عـام النقابة بعد العـديد من الجولات الانتخابية النـاجحة.. لقد كنت على وشك الاعتقـال بـالفعل فأنا لم أتكيف مع أى نظـام سيـاسـى فى مصر لا قبل الثـورة ولا بعدهـا.. لأننى أشعر أنـه توجـد هوة سحيقـة بينى وبين العاملين فى هـذا الميدان.. ليس هذا فقط.. بل هذه الهوة مـوجودة بينى وبين كافة المثقفين المصريين حتى الموجود منهم داخل أحزاب المعارضة

*** لو أردنا أن نعرف أثر تجربة السجن أو الاعتقال على فكر الدكتورة نوال السعداوى.. فماذا تقولين؟..**

– أولا كانت تجربة فريدة من نـوعها مرت فى حياتى.. لأننى كنت أعتبر السجن مثل الموت.. شىء مجهـول ورهيب ومخيف.. وعلى فكـرة طـول عمـرى لم أدخل محكمـة ويمكن ولا قسم بـوليس.. رغم أن حيـاتى كلهـا تمرد وممكن أنها كـادت تقـودنى إلى السجن أو المحكمـة.. أو قسم بـوليس فى أية لحظـة، ولكن ظـروف الحيـاتية الخاصـة جعلتنى بعيدة تمامـا عن هذه الأماكن.. وأول مـرة أسمع فيها عن السجن وعما يحدث بداخله كان من زوجى الثالث الدكتور شريف حتاتة حيث سجن ١٣ سنة مرة واحدة.. وقد حكى لى أهـواله ووسـائل التعذيب فيـه خصوصا أيـام حكم عبد النـاصر.. وكان جسمى وقتهـا يصيبـه الخوف والقلق فى آن واحـد.. ومـع ذلك لم أتصـور رغم هـذه الحكايات أنـه سيأتى اليوم الذى أدخل فيه هـذا السجن وأشاهد فيه هـذه الحكايات فى الواقع.. لذا كان السجن قبل هذه التجربة منطقة مظلمة فى حياتى.. أشبه بالموت ورحلة القبور..

وبخصوص تجربة السجن الأخيرة هـذه.. فتقريبا كنت الانسانة المصريـة الوحيدة ضمن ١٥٣٦ معتقـلا سيـاسيا التـى رفضت أن تفتح باب شقتهـا لضـابط البـوليس للدرجة التى جعلتهم يقدمون على كسر البـاب ودخول الشقة بالقوة ورغم أننى لم أكن أدرى ماذا يدور خارج العالم وعلى الساحة السياسية فى مصر آنذاك.. فقد رفضت فتح

الباب احتجاجا على الطريقة واللهجة التى اتبعوها معى فى ظهر ذلك اليوم المشئوم.. هذا الموقف أغضبنى جـداً، وأنـا دائما ما أغضب لأشيـاء أشعـر أنها تمس الكـرامة.. لـذا أصابنى هياج وغضب شديـد وقتها جعلنى أطلب منهم إبراز طلب أو أمر القبض علىّ.. ولم يجدوا أمـامهم من حيلـة الا أن يقـولـوا لى إن أمـر التفتيش صـادر من السـادات شخصيا.. فزاد رفضى مما جعلهم يلجأون إلى كسر الباب بالقوة..

واذا ما رجعنـا إلى أصل سؤالك عن تأثير تلك التجربـة المريرة على حياتى الفكـرية أقول لك بكل أمانة.. إنه كان تأثيرا مـريرا نتج عن رؤيتى الخاصة لما وصل اليه النظام فى تلك الفترة بما فيـه من نتاجـات فكريـة وثقافيـة كثيرا ما شعـرت قبل دخولى هـذه التجـربـة أن بينى وبينها هـوة سحيقـة.. ازدادت بعـد فترة السجن.. تلك الفترة التى أظهرت لى الوجه الآخر لهذا النظام الذى كثيرا ما رفضته.. وزادت قناعتى آنذاك أن هذا النظام لا يمكن أن يعيش طويلا.. وأعتقد أن إحساسى وتصورى كانا فى محلهما.. فبعد أقل من عدة أشهـر تمت حوادث الاغتيـال التى راح ضحيتها الـرئيس السادات وتغير النظام وتبدلت الأيام..

لقـــد كنت أرى أن مثل هـــذه الأنظمـة لا يمكن أن تعيـش إلا فى ظل تجهيل العقل.. وحبسه ومعاقبـة الذين كانوا يفهمـون لأنهم أصحاب عقل وهم ضد المعـرفة والحمد لله.. الأمـر لم يطل أكثر من اللازم.. فقـد انتصر العقل.. وتغلبت المعرفـة.. وعلى فكرة إننى امرأة على استعداد أن تبيع حيـاتها من أجل حفنة معرفة.. طول عمـرى.. هذا هو مبدئى.. المعرفة عندى تساوى حياتى وحريتى..

والمعرفة التى أعرفهـا وأتعامل معها.. معرفة بلا حـدود.. معرفة فى كل شىء.. وقد تسألنى عن نـوع المعرفـة السياسيـة التى أميل إليهـا.. هل هى المعرفـة اليساريـة أم اليمينية؟.. أقول لك الصدق.. إننى أكره هـذه التسميات.. لأن المعرفة فى يقينى ليس لها حـدود.. وتفسد بهذه التسميـات والتصنيفـات.. وبدون الـدخـول فى هذه المسميـات السياسيـة أحب أن أؤكد لك أن امـرأة مثلى.. تكتب ما كتبتـه وأكتبه.. لابـد وأن تدخل السجن وتحاكم بصرف النظر عن اليمين أو اليسار أو الوسـط..

ولو عدت بك أو بنفسى داخل هذه الجدران الصماء السوداء.. وأحكى لك كيف كان لها تأثير السحـر على حيـاتى داخل وخـارج السجـن.. لقلت لك إننى اكتشفت أن هـذا

السجن اللعين كـان كالموت يستحق الاستكشـاف.. وطـوال حياتى أنظـر إلى من دخل السجن وخـرج على أنه عـرف شيئا لم أعـرفه.. وعـاش حياة لم أعشهـا.. والفرق بين السجن والموت أن الإنسان قد يخرج من السجن ويعـود إلى الحياة ويحكى للناس عما رآه.. أما الموت فلا أحد يعود ولا أحد يحكى.. لهذا لم تكن تجربة الموت تطوف بخيالى.. أما السجـن كم تمنيت أن أدخل السجن بشرط أن أخرج منـه مرة أخـرى سليمة.. وفى الـوقت الـذى أريـده لكنها شروط لا يمكن أن يضمنهـا أحـد.. وظل السجن فى خيـالى كالكابوس كالموت..الداخل فيه مفقود.. والخارج منه مولود..

وفى السجن عرفت النقيضين.. قمـة الحزن وقمة الفـرح.. ذروة الألم وذروة اللذة.. وفى بعض اللحظات تصـورت نفسى أعيش قصة حب جـديدة كيف لا أدرى؟.. لكن فى السجن وجدت قلبى متفتحا للحب كما كنـت فى أول الشباب وربيع العمر.. وفى السجن أيضا استعدت كل طفولتى وأصبحت أصفق وأرقص فـرحا لمجرد سماع الملعقة وهى تقلب السكر.. كما عشت الحيـاة الجماعية وسط بقيـة النساء والفتيـات داخل جدران السجن..

***

واذا ما خـرجت بك من حـديث السجن.. إلى حديث المعتقـد السياسى مـرة أخرى.. أؤكد لك عدم صحة ما قيل عن معتقداتى السيـاسية الخاصة فيما يتعلق بالشيوعية أو اليسـار.. إننى لم أكن فى يوم من الأيـام منهم.. ولا أعتقـد ما يعتقـدون.. حتى الحزب الاشتراكى لم أدخله.. بالعكس كـان لى العديد من المشاكل مع نظـام جمال عبد الناصر، واصطدمت كثيرا ببعض رجاله.. وأيضا كان لى مواقف عدائية قبل ثورة يوليو مع الملك فاروق وفساده وفى رأيى أن ما حدث بعد ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم يتغير كثيرا عما كان قبل هذا الحدث وكل مـا فى الأمر تغير الأشخاص والأشكـال.. لكن نفس البطانـة كانت هى.. هى.. والأهـداف كـذلك.. لقـد تغيرت الشخصيـات وتغيرت الشعـارات ولكن المضمون مازال كما هو.. قائم على الاستغلال وكراهية العقل والمعرفة..

وخلاصة القـول إن تجربة السجن يمتد تأثيرها داخل المفكر طـويلا لأنها تعمق ما بداخله من أفكار.. وتثـرى تجاربه بشكل لم يحدث من قبل.. وقد حرصت على تسجيل تجربتى هذه فى كتاب واحد صدر لى وطبع أكثر من ثلاث طبعات.. وبشهادة الناشرين..

كان أكثر الكتب المباعة خلال السنوات الماضية..

*** لو قلنا.. لماذا يسجن المفكر بشكل عام؟..**

- فى رأيى إذا كان الإنسان رجلاً أوامرأة صاحب فكر أو رأى حر مستقل.. فلابد وأن يصطدم بشكل عام مع السلطات الحاكمة.. هذا الصراع سيؤدى به حتما إلى السجن.. وبشكل يكاد يكون قاطعا.. وإذا ما تركوه فيكون مرد ذلك لأسباب أخرى أهمها ضعف تأثير المفكر وما ينادى به من أفكار، ولكن فى حالة إحساس السلطة بقوة هذا المفكر وبخطورة رأيه الحر المستقل، فلابد من الإسراع باعتقاله والقاء القبض عليه وسجنه.. والمسألة يمكن تشبيهها بميزان، كلما كان المفكر هامشيا ولا أثر له تظل كفته غير راجحة وكفة السلطة أقوى.. لأنها لا تضعه فى حساباتها.. والعكس صحيح.. أنه كلما أصبح المفكر مؤثرا.. كلما رجحت كفته.. وتفوقت على كفة السلطان وبالتالى لابد وأن يسارع هذا السلطان بالقضاء على هذا المفكر المؤثر الذى بدأ خطره ينتشر من خلال أفكاره وكلماته وكتبه التى أصبح لها صدى داخل صدور وعقول الناس.. لأن المفكر المؤثر تثير أفكاره وآراءه المناقشات داخل المجتمعات.. وبالتالى تؤدى إلى تحريك مياه البركة الآسنة.. ويبدأ الناس فى التفكير لمناقشة وملاحقة صاحب الرأى الذى نجح فى اجتياز عقولهم وصدورهم..

من هذا المنطلق نجد أن هذا المفكر سيكون دائما فى صراع مع النظام بصرف النظر عن النتيجة التى هى السجن أو الاعتقال.. ولاحظ أن الرئيس السادات نفسه لجأ إلى هذا الأسلوب مع المفكرين حينما ضعف.. ومالت كفته عن كفة المفكرين..

وبشكل عام أحب أن أؤكد لك أنه حينما يضعف النظام يلجأ إلى اسلوب اعتقال المفكر أو المفكرة.. ولكن طالما أنه قوى.. فلا يعبأ أبدا بقوة الفكر والمفكرين.. ولاحظ أيضا أن قوة النظام تستمد من تطبيق النظم الديمقراطية العريقة والبعد عن أسلوب حكم الفرد والديكتاتورية المطلقة التى تخاف الفكر والمفكرين..

وهنا يحضرنى سؤال وجواب فى آن واحد يرتبط بهذه الخصوصية وهو.. كيف يمكن لأى نظام مقاومة أو معالجة الفكر المعارض أو الفكر الرافض مادام لم يخرج هذا المفكر عن إطار الشرعية والمصلحة العامة؟.. هذا عن السؤال.. فأما الاجابة فهى تقول أولاً لابد أن نعرف هل المعارضة الفكرية هذه ضرورة لخدمة المجتمع والنظام

السياسى أم لا؟..

بصرف النظر عن النتيجة التى عادة ما تتبلور فى السجن أو الاعتقال فهذا السجن أو الاعتقال قد يفيد الفكر والمفكرين فى حالة ضعف النظام لانه بطبيعة الحال يكشف هذا الضعف ويعريه أمام المجتمع وأفراده.. بل وأمام أفكار أصحاب الرأى الحر.. وداخل صدورهم وعقولهم.. وأنا أضرب لك مثالاً واحدا خاصا بحالتى.. أن الرئيس السادات قد سارع بالكشف عن ضعف نظامه عندما سجننى ضمن المفكرين المصريين الآخرين.. والمفكر الحقيقى من وجهة نظرى لا يخاف السجن.. رغم أننى أخاف منه جدا وكما سبق أن حكيت لك مثل الموت تماما.. ولكننى حين عرفته وألفته.. لم أعد أخاف منه.. وكذلك أى مفكر لا يخاف السجن حين يتعامل معه.. أو حين يتذوق مرارته، ويظهر ذلك فى عدم اهتمامه بالتجربة الثانية أو الثالثة على هذا الطريق..

والنقطة الثانية.. لابد وأن نعرف هل المفكر ضرورى أو غير ضرورى للحياة.. طبعا ضرورى وجزء من الحياة والنظام.. وهناك أساليب متعددة لمحاربة الفكر والمفكرين بخلاف السجن، ويمكن أن تكون أقوى تأثيرا من ذلك.. مثال الغربة.. والتجاهل واغلاق سبل النشر أمامه.. وأشياء أخرى كثيرة وفى حالة إيماننا بضرورة وجود الفكر داخل المجتمعات لابد وأن نمد له يد العون.. ونمهد الطرق أمام المفكرين حتى يستفيد منهم المجتمع بصرف النظر عما يكون من موقفهم مع أو ضد السلطة.. لأن الغاية العظيمة للمفكرين هم خدمة الإنسان والأخذ بيده نحو التقدم..

ومن هنا نجد أن المصير بعيد تماما عن ذهن المفكر ما دامت أفكاره تؤدى دورها فى خدمة الإنسان الذى هو محور وهدف لأفكاره وآرائه.. ان لذة الفكر والمعرفة تفوق أى لذة أخرى ولو دخلت فى دور الألم والتعذيب.. وعلى الأقل بالنسبة لى.. إن عملية الفكر ضرورية لوجودى.. ومن أجل أفكارى أنا على استعداد للتضحية حتى بحياتى.. ولا يهمنى المصير ما دمت قادرة على التفكير وإبداء الرأى بحرية وباستقلال.. وأعتقد كلنا يعرف قصة فيلسوف اليونان العجوز الذى فضل أن يتجرع السم.. على أن يتراجع عن أفكاره.. رغم أنه كانت أمامه فرص عديدة من أجل النجاة من الموت.. والعودة إلى الحياة من جديد.. لقد رأى أن مجرد التنازل والتراجع عن أفكاره هو الموت بعينه..

وبالتالى كان عليه أن يقبل الحل الأول.. وهو أن يموت فداء آرائه وأفكاره.. لذا كثيرا

ما تجد المفكرين لا يعبأون بالمصير من منطلق أن التفكير فـريضة ولذة ومتعة للمفكر ولغيره.. والتفكير فى المصير يعطل الفكـر ويقيده ويصيبـه بالجبن والهزيمـة.. وحينما تتغلب لذة التفكير على المفكر فهى تفوق آلام السجن أو الاعتقال..

ولا تعتقـد أن المسألـة شخصيـة ترتبط بـواقع المفكـر فقط.. إنها تمتـد إلى بـاقى المجتمع.. على الفـرض أن المفكر يهمه فى المقـام الأول ذاته من حيـث التفكير والإنتاج.. وحتى فى مثل هذه الحالات.. تجد صـدى لقوة الأفكار وآراء هـذا المفكر تزحف نـاحية أفراد المجتمع من واقع مؤلفاته وآرائه المنشـورة هنا وهناك سواء أراد أم لم يرد.. لأن عمليـة التأثير تخرج عن ذاتـه وترتبط بما يخرج من تجويف عقلـه من آراء وأفكـار.. وروعة الفكـر بالنسبة لصاحبـه أنه أول الذين يحكمون عليـه.. وأول المتمتعين به.. أو بمعنى آخر فى تصورى أن الفكـر لابد وأن يثرى صـاحبه.. ويدفعـه إلى الأمام.. ثم بعد ذلك تأتى المرحلـة الثانيـة.. وهى زحف تأثيرات هذا المفكـر على المحيطين به من أفـراد المجتمع..

وهذا ينبع أساسا من ثقة المفكر بنفسه وبأفكاره وعلى الأقل بالنسبة للدكتورة نوال السعـداوى كروائيـة.. لابـد أن تستمتع أولا بعبـاراتها وأفكارهـا.. ثم من واقع هـذا الإحساس الجميل الذى أراه وأشعر به بعد كتابة الفكرة أو الرأى يأتينى إحساس آخر بقيمة هـذه الأفكار لـلآخرين من حولى.. وهـذه هى قمة المتعـة التى تتفرع من داخلك ويستظل بها الآخرون.. إننى ببساطة أحكم على تـأثير أفكارى وعباراتى أولا.. وأتوقع لها نفس التأثير على الآخرين من حولى..

***

***من واقع تجربة الدكتورة نوال السعداوى داخل السجن.. هل ترين من الضرورى أن يكـون هناك سجن خـاص بـالمفكريـن؟ أم يزج بهم وسط المجـرمين والقتلة وأصحاب السوابق؟..**

- هناك بالطبع فرق بين جريمة الرأى والتفكير.. وبين الجرائم الأخري.. لذا أرى أنه لابـد من الفصل بين النوعين.. وليس معنـى ذلك أننى أدين أصحاب الجرائم الأخـرى وخاصــة القتلة.. لأننى عشت وسط هـؤلاء ولى رأى شخصـى فيهم.. لكن هنـاك فرق ولابد من وضـع هـذه التجربة فى الحسبان.. وبـالنسبة لوجود هـذا الاختلاط القائم فى

السجون.. وعدم الاعتراف بالتفرقة بين جرائم الفكر والرأى والجرائم الأخرى، فإن له فائدة عظيمة تجعل المفكـر يعيش عالما جديدا عليه كـان من المستحيل أن يعيشه خارج هذه الجدران، والا فيكف يتأتى للمفكر صاحب الرأى أن يدخل عالم الجريمة بقدميه ما لم يجده داخل السجن.. لـذا نجد هـذا الاختـلاط يفرز صـداقـات من نوع غـريب بين المفكرين وأصحاب الرأى وبين هؤلاء المجرمين..

وبالنسبة لى شخصيـا فقد اكتشفت وجود أصوات عجيبـة وصراخ ونواح ونحيب يذيب القلب.. مصدره الأمهات السجينات مع أطفالهن الذين ولدوا بالسجن.. ثلاثمائة طفل داخل عنبر واحـد مثل عنبرنـا لا يفصلنـــا عنهم ســوى نصف جـدار لا يصل الى السقف.. هكـــذا الحال ليل نهار.. لقـد رأيـت الجحيم فـوق الأرض بعينى.. انـــه عنبر الأمهات فى سجن النساء فى القناطر الخيرية.. لذا رأيت عنبرنا هو عنبر النعيم، وجنة الله فوق الأرض والمسائل كلها نسبية.. نحن أربع عشرة امرأة فى العنبر.. عندنا مساحة من الأرض.. لكن الى جوارنا وعلى نفس المساحـة نفسها من الأرض تتكدس مئات الأمهات ومئات الأطفال.. لكل أم طفل على الأقل.. أجساد النساء متلاصقة والأطفال.. وكثيرا ما يتشابكن بالأيدى والأرجل.. ينطلق اللسان.. ينطلق السباب.. قاع المجتمع.. قاع القاع..

هذا بالفعل ما رأيتـه داخل سجن النساء.. ومعرفتى بهذا العالم انقسمت إلى قسمين أولهما.. التقرب من عالم الإجرام فى صوره المتحركة هنا وهناك.. والآخر عالم المفكرات اللائى تـم اعتقالهن معنـا.. بالنسبـة لعالم الاجرام.. عـرفت «فتحيـة القتالـة».. هكذا يسمـونها.. وفى السجن تتشـابه أسماء النســاء.. ويفـرقـون بين الواحـدة والأخـرى بجريمتهـا وتضاف الجريمـة إلى اسمها كـاللقب.. يقـولون فتحيـة القتالـة، أو فتحية مخدرات.. أو فتحية حراميـة، أو فتحية سياسية، إذا كانت السجينة تهمتهـا سياسية.. ونعود لفتحية القتالة.. فقد كانت تدهشنى أحيانا بحركاتها المشوقة القوية أو صوتها الواثق، أو كلامهـا السـاحر وذلك الذى كـان يكسو عينيها فتذكرنـى بزينب ابنة عمتى الفلاحة..

وفتحية هذه حكايتها حكايـة.. كما سمعتها من الشاويشة.. لقد ضربت زوجها على رأسه بـالفأس.. ثم قطعت جسمه قطعـا صغيرة جمعتها فى شوال وألقتـه فى البحر كى

يأكله السمك.. وقد انفعلت بها وبحكايتها أكبر من انفعالاتى بحكايات زميلاتى من السجينات السياسيات.. لأنى اكتشفت فى السجن المدعية السياسية والشعارات والضعف.. كما اكتشفت فى هؤلاء المجرمات قوة وصلابة وصدق غريب.. لذلك خرجت من السجن كارهة السياسيين ومتعاطفة إلى أبعد حد مع هؤلاء المجرمات.. وعلى رأسهم «فتحية القتالة».. ومع ذلك كان لى مع زميلاتى السياسيات مواقف سوف أحكيها لك فيما بعد..

ومن الشخصيات التى تعاملت معها بالإضافة الى هؤلاء وهؤلاء الشاويش «بدرية».. تلك الشخصية الغريبة الأطوار والأفكار.. والتى تأثرت بها كثيراً وسجلت تأثرى بها فى كتابى عن السجن.. هذه الشاويشة التى لا يمكن أن يفوت عليها أى شيء.. كانت دائما جالسة فى الحوش.. ساقاها ممددتان دائما.. نحيلتان.. مشققتان.. ومن حين لحين كانت تلك الشاويشة تغمض عينيها.. من يراها يظن أنها نائمة لكنها كانت ترى كل شيء من تحت الجفنين نصف المغلقتين.. والغريب أنها كانت كثيرا ما تناقشنى فى أفكارى.. لأنها كانت تعرف من أنا.. ولماذا جئت إلى هنا..؟!

وأنا أذكر فى مرة من المرات أنها دافعت عنى بقولها ردا على سؤال إحدى السجينات: هى دكتورة فى الطب والكتابة.. لكن تهمتها الوحيدة هى الكتابة، لا هى فى الجماعات الدينية ولا هى فى الأحزاب الشيوعية ولا هى فى أى حزب.. لكن يا دكتورة يقولون عنك انك تكتبى كلام ضد السادات شخصيا وطبعا الناس لازم تكتب رأيها وتقول الحق.. لكن كل الناس تخاف وتسكت

وبادرتنى بقولها الغريب فى وسط هذا الحديث الطويل:.. والكتابة يعنى لها فايدة يا دكتورة.. ما هى الكتابة كلام على الورق وخلاص ولا ينوبك الا دخول السجن.. لكن على العموم كل شيء نصيب ولنا نصيب نشوفك وسط زميلاتك.. كلكم ناس محترمون.. ولا يمكن يدخل عنبر السياسة الا الناس المحترمون سواء فى سجن الرجال أو النساء..

ولازالت كلماتهم مؤثرة بداخلى حتى هذه اللحظة.. ومازلت أسمع صوتها يردد هذا الكلام.. عنابر السياسة كلها ناس عندها أصل.. لكن العنابر الأخرى.. حرامية..

متسولات وتاجرات مخدرات.. كلهم أولاد حرام.. الا القاتلات.. أحسن ناس.. الواحدة منهم لا تعرف اللف أو الدوران.. والقتل مش جريمة.. لحظة غضب وتفوت.. وكل واحدة تدخل عندنا هنا تقول أنا لم أعمل أى ذنب..

لقد كنت كثيرا ما أتابع حديث الشاويشة بدرية وحديثها من آن لآخر.. وعرفت فيها الإنسانة المصرية الصادقة.. وهذه نوعية أخرى..

***

أما النوعية الثالثة من أنواع البشر والنساء اللاتى تعرفت عليهن داخل هذا العالم الجديد.. هم السياسيات.. وأساتذة الجامعة من النساء ودعنى أحكى لك كيف كان اللقاء بيننا..

لقد كانت أصعب لحظة فى حياتى هى التى سبقت دخولى الزنزانة.. كان المشهد مهيبا.. مخيفا.. والظلام مساعد على هذه الرهبة وعندما دار المفتاح فى باب الزنزانة ثلاث دورات دب الصمت فى أذنى.. ومن بعدها دخلت إلى هذا الفراغ السحيق.. أغمضت عينى ثم فتحتها عديداً من المرات.. كانت هناك أشياء تتحرك بالقرب منى.. تعرفت على أحد الوجوه تحت الضوء الأصفر.. هتفت بسرور: صافيناز... وتعانقنا.. صحفية وأديبة.. لم أكن قد رأيتها منذ سنين طويلة.. تغيرت كثيرا ولم تكن ترتدى الحجاب..

رمقتنى عينان من خلال ثقبين فى النقاب الأسود وسألت: من زميلتنا الجديدة؟

ردت صافيناز: الدكتورة نوال السعداوى صاحبة الكتب الخطيرة.. الكتب المليئة بالكفر..

رأيت جسما يتحرك فوق الدور العلوى لأحد الأسرة ونهضت من نومها فجأة تهتف: أهلا نوال.. لقد كانت الدكتورة أمينة رشيد الأستاذة بجامعة القاهرة.. وقد التقيت بها عدة مرات فى بيتى وفى بيوت بعض الصديقات..

وفى لحظات دار بيننا حوار حول كتبى التى صدرت خاصة وأن بعض الموجودات بالعنبر اتهمونى بالكفر والإلحاد.. وفى وسط هذه المناقشات الحامية.. فجأة سمعنا المفتاح يدور فى الباب، انفتح باب العنبر ودخلتِ امرأة ثم انغلق الباب.. رأيت وجهها فى الضوء الأصفر وهى تقبل نحونا وهتفت بسرور: لطيفة.. إنها الدكتورة لطيفة الزيات..

التى بـادرتنى بقولها إنها قـرأت فى جـريدة المسـاء اسمى ضمن المتحفظ عليهن وحين عدت إلى البيت وجدت البوليس فى انتظارى.. وها أنا معكم الآن..

ولم يمض يومـان حتى رأينا الـدكتورة عواطف عبـد الرحمن تـدخل علينا العنبر.. وبدأت تحكى ما حدث.. وانضمت إلينا جميـع الزميلات فى العنبر كنا وقتها أربع عشرة امرأة وفتاة.. مـن مختلف الأجيال والأعمار والأفكار وعلى فكرة كل هـؤلاء النسوة قد انقطعت عـلاقتى بهن تقـريبا بعـد خـروجى من السجن أو إن شئت قلت العـلاقة قـد تضاءلت.. وقـد تصورت أنها سـوف تقوى.. ولكن حدث العكـس.. لأنه داخل السـجن تكتشف معادن البشر.. وكانت معادن المجرمات ألمع من معادن بعض السياسيات..

وهنـاك بخلاف ذلـك العديـد من الصـور التى مـازالت عالقـة فى ذهنى حتى هـذه اللحظة.. وأذكـر لك منها على سبيل المثال.. أنـه كانت تحرسنا ضـابطة تدعى شكـرية ومعها الشاويشـة التى حكيت لك عنها آنفا والتى كانت تحمل لها كـرسيها كى تجلس فوقه أمامنا.. وقد رأيت فى يدها بعض الأوراق البيضاء وقلما.. وقامت تعد هذه الأوراق ورقـة ورقة ثم عـدتنـا واحدة واحـدة.. وقـالت أربع عشرة امرأة وفتـاة وأربع عشرة ورقة.. لكل واحد منكن ورقة واحدة تكتب الطلب الآن أمـامى بالملابس التى تريدها ثم تسلمنى الطلب والقلم.. إلى هذه الدرجة كانت الأوامر مشددة لمنع أى وسيلة من وسـائل التعبير لذلك حينما كـانت تضيق بى الأمور وتستـدعينى الحاجة كى أكتب.. أكتب على الأرض.. وقـد حذرتنى الشـاويشة فى إحـدى المرات.. بأن الكتابـة على التراب يمكن أن تعرضنى للتأديب.

وتحضرنى هنا قصة غريبة مرتبطة بموضوع الورق والقلم.. منظر مدير السـجن فى ثوبه الجميل.. تفوح من مـلابسه رائحة العطر.. ومن خلفه طابـور طويل من العساكر والمسئولين.. وهم يمـرون أمامنا بهذه المنـاظر النظيفـة فى الوقت الذى كنـا فيه نجلس أمامهم حفـاة بملابسنا القـذرة نسبيا.. ونكتشف فى النهايـة أن هذا المهرجـان الطويل العريض سببه حملـة تفتيش مفاجئة على الورق والقلم.. ففى لحظات يدخلـون العنابر من أجل هذا الهدف النبيل.. وكثيرا ما توعدنا المأمور وحذرنا من وجود أى ورقة حيث اعتبر وجودها بيننا أخطر من وجود سلاح..

بالذمة أليس هذا المشهد من مشاهد مسرحية عبثية كانت تمثل أمامنا فى الواقع.. وقد

أيقظتنى هذه العبارة وزادت بداخلى الإصرار على مواصلة طريق الفكر والرأى والكتابة.. ولك أن تتصور.. طول عمرى أكتب.. ولكننى لم أكتشف قيمة ما أكتبه إلا فى اللحظة التى سمعت فيها مأمور السجن يقول: إن وجود الورقة داخل العنبر أخطر من وجود طبنجة.. تلك لحظات لا أنساها وأنا أتذكر اسمه جيدا.. لأن لى معه قصة.. دعنى أحكيها لك..

فعندما أفرجوا عنى.. وأخذونى من السجن إلى الرئيس مبارك.. ونشرت صورتنا بالأهرام وعرفنى.. وفى اليوم التالى لهذه المقابلة رجعت السجن مرة أخرى أحمل لزميلاتى أطعمة وأغطية ومن أجل الاستفسار عن أسباب عدم الافراج عنهن.. فوجئت بمعاملة غاية فى الإنسانية والذوق.. وساعدنى يومها على توصيل هذه الأطعمة لبقية الزميلات داخل العنبر الذى كنت فيه معهن بالأمس.. رغم أن ذلك كان ممنوعا.. كما سمح لهن باعطائى ورقة مهربة كرسالة لى من أجل التوسط لدى المسئولين لنقلهم إلى مستشفى القصر العينى بدلا من العنبر..

وفعلا نجحت فى هذه المهمة.. حتى تم الإفراج عنهن بعد أسبوعين.. وفى أثناء عودتنا من السجن فوجئنا بسيارة الشرطة قادمة الينا بسرعة غير عادية فوقفنا فورا واعتقدت أنهم حتما سوف يقبضون على من جديد.. وربما أعود إلى زميلاتى داخل عنبر سجن القناطر.. خاصة واننى أثناء لقاء الرئيس مبارك قد أفصحت عن رأيى فيما حدث لنا، وتصورت حتى هذه اللحظة أننى سأعود إلى السجن بسبب ذلك، ولكن ما حدث كان أغرب حيث وقفت أمامنا سيارة الشرطة ونزل منها سيادة اللواء مقبلا نحونا.. وسلم علينا بحرارة منقطعة النظير وهنأنى بسلامة الخروج من السجن.. حقيقة موقف لن أنساه طوال حياتى.. لقد خاب ظنى هذه المرة.. ولم أعد إلى السجن بل عدت إلى بيتى من جديد..

*** نحاول أن نقترب بعض الشىء من عموميات الأسئلة.. ونقول هل تعتقد الدكتورة نوال السعداوى أن السجن بوضعه الحالى أو ما كان عليه يمكن أن يعالج ظاهرة الاجرام.. وهل هناك بدائل أخرى لعلاج هذه الظاهرة؟..**

– طبعا هناك بدائل كثيرة لأننى أعتبر السجن ليس علاجا لأى نوع من الجريمة.. والسجن فى رأيى يأتى بنتيجة عكسية.. وأضرب لك مثلا بحالتى.. كنت قبل دخوله

أخاف منه كالموت.. وبعد أن دخلته.. ربما لو تعرضت له مرة ثانية فلن أخافه.. بل يزيدنى إصرارا من أجل المضى قدماً فى طريقى، والسجن بمفهومه العام وهدفه الأساسى هو عقاب.. وفى أحيان كثيرة لا يكون عقابا.. بل دافعا لمزيد من الجرائم.. والسبب أن الخوف منه يزول فور دخوله.. إذن حينما يفقد العقاب وظيفته.. فلا وجود ولا تأثير لهذا العقاب والدولة عادة ما تعتبر السجن سلاحاً تخيف به الخارجين على القانون.. فحين يفقد السلاح فاعليته.. أيضا تُفقد قيمته.. إن خلاصة القول أن السجن لم يعد وسيلة إصلاح ولا وسيلة عقاب.. ورأيى أنه لابد من إغلاق السجون.. ولكن ووفقا للأعراف البشرية منذ القدم أنها أصبحت جزءاً من النظام الاجتماعى فلا يوجد بوليس إلا ووجد السجن.. وعلى فكرة أن السجون تزدهر ويظهر مفعولها رغم ما قلته لك فى ظل حكم الفرد والدكتاتورية..

هذا فيما يخص أصحاب الفكر المستنير.. أما بخصوص الجرائم العادية مثل القتل والاغتصاب والسرقة.. والأنواع الأخرى منها فإن السجون تمتلىء بأصحابها من هذه الجرائم حين يضعف القانون ولا يساير هذه الجرائم أو تطورها.. والبديل بالنسبة لعلاج ظاهرة الاجرام.. بعيدا عن ظاهرة المفكرين وأصحاب الآراء.. فى تصورى يبدأ من دراسة ظاهرة الإجرام نفسها والتعامل نفسيا مع كل جريمة على حدة ومحاولة إزالة أسبابها.. على الأقل إذا عاقبنا أحد مرتكبيها.. فسوف نقى المجتمع شر ارتكابها فى المستقبل.. ما دمنا قد تعاملنا معها من زاوية البحث عن الدوافع والأسباب.. وبعد دراسة الدافع والأسباب نلجأ إلى العقاب.. لأن الدوافع فى الأساس هى التى تحدد الجريمة من لا جريمة..

وعلى فكرة.. فقد أثبتت أغلب الدراسات الميدانية أن الانسان المستريح فى مجتمعه من كافة نواحيه لا يرتكب جريمة..

***

وبمناسبة الحديث عن السجن ومسئولياته.. فقد سألتنى فى وسط كلماتك ماذا أفعل لو كنت مأمورة لسجن النساء.. فى فترة اعتقال سيدة تدعى «نوال السعداوى».. عارف أول حاجة أقوم بعملها هى إيه.. أن أستقيل فورا.. وأرفض هذا المنصب.. ولو قبلته وحضر إلى السجن معتقلون من المفكرين.. سوف أرفض سجنهم أو أقدم

استقالتى فورا.. وليس هـذا جديدا على.. فأنا ضد الوظيفة منـذ حياتى العملية.. لأننى أكتشف دورى الحقيقى فى الكتابة.. إذن ليس موقفا بل هو مبدأ.. ونفس الشىء إذا كنت أنا أيضا فى منصب رئيس الحكومـة أو فى منصب وزير الداخلية.. كنت حتما سأرفض مثل هذا الإجراء.. وعلى فكـرة لو كنت رئيسا للحكومة.. وقدم لى وزيـر الداخلية كشفا بهذا المعنى.. عارف كنت رفـدته فورا.. أو أجبره على الاستقـالة.. فكيف يجرؤ على مثل هذه الخطوة.. التى تمثـل إجراء تعسفيا لا أرضاه مطلقا.. أو على الأقل اعتقلـه بدلا من اعتقال المفكرين..

*** لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكرين فى دول العالم الثالث بتوقيع رئيس الدولة شخصيا؟..**

– وهو لازم رئيس الدولة هو اللى يـوقع على أوامر الاعتقالات؟ واذا حدث ذلك فإنه يدل دلالة قاطعة على دكتاتورية الفـرد.. وهذا عكس ما يحدث فى الدول الصناعية أو ما تطلقون عليه أنتم الدول المتقدمة.. فـلا يمكن أن يقع مثل ذلك.. لأنه يوجد شبه انفصال بين رئيس الدولة وأفراد الشعب.. وتتم المعاملات من خـلال مؤسسات ثابتة وكيانات تحترم الفرد أولا قبل المسئول أو الحاكم.. كذلك سلطـة رئيس الدولة هناك سلطة تنبع من دوره واقتناع النـاس به.. بعكس الدول النـامية ودول العالم الثـالث.. فان الحاكم عـادة يكون أقـوى من الجماهير لاعتماده على وسائل قمعيـة وعنيفة تـرهب الشعب.. وبالتالى يتصور نفســه سيداً وحاكماً قوياً. ومن هنا كان لابـد وأن يوقع رئيس الدولة على اعتقال المفكرين باعتبارهم العدو الأول له وحتى يأمن شرهم بنفسه..

الحكاية الحادية عشرة يرويها محمد حسنين هيكل:

سـر العملية رقم (٩)..
والزنزانـة رقم (١٤)

حين أعددت قائمة بأسماء هؤلاء المفكرين الذين هم ضيوف هذه الأوراق.. وقع اختيارنا على الأستاذ محمد حسنين هيكل كأحد رموز الفكر المصرى الحديث.. باعتباره كاتبا صحفيا نال شهرة واسعة وارتبط بأحداث ثورة يوليو وأعمال الزعيم جمال عبد الناصر.. والذين عاشوا تجربة السجن.. وقد أخذتنى الحيرة.. وبات السؤال يؤرقنى ليلاً ونهاراً.. من أين أبدأ؟.. خاصة وأن الأستاذ هيكل من مفكرينا المصريين القلائل الذين زج بهم فى المعتقل رغما عنهم.. ولم يكن يتصور هو أو نحن فى مصر أو فى أى دولة من دول العالم العربى أو الخارجى أنه سوف يعيش هذه التجربة بعد أيام المجد الخوالى. ولكنه قد حدث.. ودخل السجن وعاش خلف القضبان.. وكنت أمنى نفسى أن نلتقى به كى يحكى لنا تجربته خلال هذه الرحلة.. مثلما حكى لنا المفكرون الآخرون.. وبدأت الرحلة رغم إيمانى بصعوبة اجتياز عالم هذا المفكر أو حتى الاقتراب من مجال وجوده.. ولكنها كانت المحاولة التى هى أساس استمرارية الإنسان فوق الأرض..

وبدأت السعى جاهدا من أجل البحث عن البداية.. وقد كانت عبر أسلاك التليفون الصماء.. ولا أريد أن أحكى كم عانيت الأمرين من أجل الحصول على أرقام مكتب الأستاذ هيكل.. مرة واثنتين.. وثلاثاً.. وأخيرا عثرت على الأستاذ منير عساف مدير المكتب .. وبلطفه المعهود تحدث معى بود وشجعنى على الاستمرار فى طلب إجراء هذا الحوار.. ورغم تكرار المحاولة لم أيأس.. لاقتناعى أن الأستاذ هيكل سوف يوافق فى نهاية الأمر على مقابلتى وإجراء هذا الحوار.. لأنه صحفى كبير ويعرف معاناة الصحفى حين يصر على إتمام عمل يعتقد أنه هام.. وبالفعل.. صدق إحساسى.. فقد

شعرت أن الأستاذ هيكل قد عرف بإلحاحي.. وإصراري على مقابلته.. وجاء الفرج عبر أسلاك التليفون الآخر مرة.. حين أبلغني الأستاذ منير مدير مكتب الأستاذ هيكل.. أن الأستاذ يريد أن يراني وقد حدد لي موعدا في العاشرة من صباح أحد أيام الأسبوع..

***

وفي الموعد المحدد.. انطلقت أبحث عن العنوان الذي أملاه لي عبر التليفون.. وبالقرب من ميدان الدقي بالقاهرة.. وبالضبط بعد عبور كوبري الجلاء.. توقفت عند شارع النيل.. كي أسأل عن العمارة رقم ٩٢ .. واكتشفت أنها لا تبعد سوى عدة أمتار عن منزل الرئيس الراحل أنور السادات..

وفي مدخل العمارة الضخمة التي تطل على النيل.. شاهدت مكتباً يجلس به بعض الرجال.. يحملون في أيديهم أجهزة لاسلكي .. وتوقعت أنهم سوف يسألونني أين أنا ذاهب؟.. ولكن لم يحدث.. فواصلت رحلتي حتى الأسانسير الذي نقلني إلى الدور الرابع.. وأمام الشقة رقم ٤٣.. وقفت أنتظر لحظات حتى انتهى جرس الباب من دورته.. وبعد أن انقطع صوته انفتح الباب.. وعلى الفور انتقلت إلى مقابلة الأستاذ منير عساف الذي كرر ترحابه لي وأبلغني أن الأستاذ هيكل ينتظرني بمكتبه حالاً..

كنت مازلت أتصور أنني سوف أنتقل من مكتب السكرتير الى مكتب الأستاذ هيكل خلال رحلة ربما تستغرق خمس دقائق أو أكثر.. لكنني فوجئت بوجودي أمام أستاذنا هيكل بعد أقل من لحظة.. فقد اكتشفت وجود مكتبه ملاصق لمكتب السكرتير.. وبجوار الحائط المجاور للباب.. كان مكتب الأستاذ هيكل.. الذي رحب بي بشدة.. وأجلسني أمامه في كرسي ربما تم وضعه لهذه المقابلة.. ولم يمهلني لحظة واحدة.. فقد طلب مني أن أدخل في تفاصيل الحوار رغم أنه كان يرفض ولا يزال يعطي أحاديث صحفية لصحفيين مصريين..

وكما قلت سابقا.. ربما ترحيب الأستاذ هيكل على إجراء هذا الحوار معي يرجع إلى اقتناعه بأنه يسجل رأيه عن فترة تاريخية ارتبطت بأحوال مصر.. رغم تأكيده لي أنه ليس لديه أي جديد.. لأن رأيه في هذا الموضوع قد سجله في العديد من الكتب.. وأشهرها كتابه« خريف الغضب»، والحق أقول إنني استفدت من هذا الكتاب كثيرا.. ورجعت إليه

وإلى غيره من كتب الأستاذ هيكل بنـاء على نصيحة من الأستاذ منير مديـر مكتبه.. مثل كتاب« بين الصحافة والسياسة».. وكتاب تحقيقات المدعى الاشتراكى..»

وقبل أن أوجـه لـه أول سؤال إستـأذنته لحظـات من أجل تسجيل لقطـات ذهنيـة وكتابية أنقل من خلالها للقارىء وصفا دقيقا لمكتبه الكبير.. الذى يغلب على أثاثه الطابع الكلاسيكى.. ودائما كنت أنظـر إلى أصابعه التى تتعامل برفـق مع«السيجار» المشهور الذى انطفأ أكثر من مرة.. وكثيرا ما كان يلجأ الى أعواد الكبريت لإشعاله ثم يغير رأيه.. ويظل بدون أدخنة بين أصابعه حتى انتهى الحوار معى تقريبا.. . . .

وبين الحين والحين.. يصل إلى مسامعى صـوت قطعة مـوسيقية كـلاسيكية.. ظلت تدوى فى غرفة المكتب بصوت خـافت وجميل.. وكلما توقفت لحظات كنت أركز بصرى هنا وهنـاك لالتقاط صورة ذهنية لصـومعة هذا المفكر الكبير.. ولاحظت خلفـه وجود ثلاث خـرائط لمصر بثلاث لغات مختلفـة وبعض الكتب القليلة الموجـودة فوق المكتب.. وطبعا كتابـه الأخير«ملف أزمة الخليج» بالإضافة إلى مكتبة بعـرض الحائط المقابل له حيث يجلس.. ويغلب عليها الطابع الكلاسيكى كذلك.. وفوق أرففها مجموعة كبيرة من الكتب بمختلف لغات العالم..

وتوقفت عن رسم هذه الصورة.. حين شعرت برغبة أستاذنا أن نبدأ.. ومن أجل أن يشجعنى على المضى قـدمـا فى طـريق الحديث سألنى بـود عن الصحفيين الشبـاب وأحـوالهم وكيف كان يصيبـه الحزن والألم عنـدما لم يكـن يلتقى بهم حتى فى نقابـة الصحفيين.. ووعدنى بمـزيد من اللقـاءات وأن مكتبه مفتـوح لنا.. بشرط عـدم إجراء حوارات صحفيـة.. وخفق قلبى بشدة عند جملته الأخيرة.. ولكنـه أفهمنى أننى خارج هذا الاستثناء وأنه سوف يبدأ إجابته على أسئلتى حالا.. وقد كان.. فبعد أكثر من خمس وأربعين دقيقة.. انتهى الحوار.. الذى تقول كلماته: الآن.. وبعد أربعة حروف بالضبط سوف نبدأ بالتفاصيل.. وكان هذا السؤال:

*** كم مرة دخل فيها أستاذنا هيكل السجن.. خـلال حياته الصحفية والفكرية الطويلة؟..**

– قبل أن أجيب على سؤالك لابد وأن نرجع إلى الوراء سنوات قليلة حتى نعرف كيف

بدأت رحلتى الصحفية الطويلة.. ومن خلال متابعتك.. سوف تعرف عدد هذه المرات..

لقد دخلت بلاط الصحافة فى أخبار اليوم لأول مرة عام ١٩٤٦.. ولم أكن موجودا حين أنشأها مصطفى وعلى أمين عام ١٩٤٤.. لأننى بدأت فترة التكوين المهنى الأولى عام ١٩٤٢ واستمرت حتى عام ١٩٤٤ فى جريدة «الإجيبشيان جازيت».. وكانت وقتها أكبر الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر عن شركة الإعلانات الشرقية التى تملكها أسرة «فينى».. ولقد بدأت مساعد مخبر صحفى فى قسم الحوادث وظللت به قرابة عام، حتى انتقلت إلى العمل كمراسل حربى» بمنطقة العلمين » أثناء أحداث الحرب العالمية الثانية.. وقد أتاح لى هذا النوع من العمل الصحفى الجديد فى هذا التوقيت بالذات الالتقاء بالعديد من الشخصيات السياسية والفكرية التى أصبحت القاهرة ملتقى لهم على اختلاف لغاتهم ومهامهم بمناسبة أحداث الحرب العالمية الثانية..

وجاءت الخطوة التالية حين تعرفت على الأستاذ «محمد التابعى» فى مكتب رئيس التحرير.. مستر«هارولد إيرل».. واكتشفت من خلال هذه المقابلة أن الأستاذ التابعى صاحب مجلة آخر ساعة قد تابع بعض نشاطى الصحفى الأمر الذى جعله يحرص على انتقالى معه للعمل بمجلته فوافقت على الفور..

وفى آخر ساعة عملت محررا فنيا ومحررا برلمانيا وفقا لتوجيهات الأستاذ التابعى.. وقد تأثرت به كثيرا.. كما أشهد أننى تعلمت منه الكثير.. ولقد وجدتنى شديد الإعجاب بأسلوبه الحلو السلس، حتى إننى فى بداية حياتى الصحفية رحت أقلد أسلوبه.. وكانت مجلة آخر ساعة فى ذلك الوقت مجلة وفدية، وفى أجوائها وجدت نفسى بحكم طبيعة المصادر المتاحة أقرب إلى الوفد، مع إحساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار..

ثم صدرت مجلة أخبار اليوم الأسبوعية، وكان لصدورها آنذاك حدثا صحفيا ضخما كما كان حدثا سياسيا.. وكانت منافسا قويا لآخر ساعة الأمر الذى جعل الأستاذ التابعى يسارع من أجل تطويرها وأنا بجواره.. ولكن تجربة التطوير هذه لم تنجح لعدة أسباب.. الأمر الذى أدى بالأستاذ التابعى إلى أن يقرر بيع المجلة عام ١٩٤٦

للأخـوين مصطفى وعلى أمين بعد مفاوضــات طويلة دارت بينه وبين أصحــاب أخبار اليـوم.. ورغم هذه الظـروف فقد ظلت عـلاقتى وطيدة بـالأستاذ التـابعى الذى كـان يعتبرنى أقرب تلاميذه إليه.. كما أنه كان يعتبرنى«اكتشافا» قام به شخصيا.. وقد طلب منى أن أستمر أعمل معه فى آخر ساعة رغم أنه باعها.. وأخبرنى أن هذا الطلب جاء بناء على رغبة الأخوين مصطفى وعلى أمين، اللذين أكدا لصــاحب اخر ساعة أنهم لا يريدان من كل طاقم المجلة سوى أربعة صحفيين بالتحديد هم التابعى وأنا واثنان آخران ..

حدث ذلك فى الوقت الذى بدت فيه المفاوضات معى من أجل الانتقال إلى صحف دار الهلال.. فقـد عرض على الأستـاذ إميل زيدان رئاســة تحرير مجلـة الاثنين، ومع ذلك فضل الأستـاذ التـابعى وجودى معــه فى آخـر سـاعة والانتقـال للعمل مع الأخـوين مصطفى وعلى أمين فى مجلة أخبـار اليوم.. وباختصـار وجدتنى أعتذر لـلأستاذ إميل زيدان.. ووجـدتنى فى دار أخبار اليوم محررا فيهـا وسكرتيرا لتحـرير آخر سـاعة فى نفس الوقت.. وقد اجتهـدت كثيرا للعمل فى مجال التحقيق الصحفى.. وتصادف فى هذه الأوقات أن تفشى وبـاء الكوليرا فى مصر.. وكتبت عـدة تحقيقات صحفيـة لفتت أنظار الكثيرين من المسئولين..

ثم انتقلت للعمل فى مجال التحقيقات الصحفية الخارجية.. وبـالتالى وجدتنى باحثا عن المتاعب فى كل مكـان أغطى الحوادث الساخنة فى الشرق الأوسط وما حـوله.. وبعد العمل المتـواصل داخل صحف أخبـار اليـوم لمدة ٥ سنـوات متواصلـة.. عـرض على الأخوان مصطفى وعلى أمين رئاســة تحرير مجلة آخـر ساعـة فقبلت هذا المنصب على الفـور.. ومن خـلال مـوقعى فى هـذا المنصب الجديد، بـدأت عـلاقـاتى تتسع داخليـا وخارجيا سياسيا واجتماعيا فى الوقت الـذى كانت فيه الساحة السياسية فى مصر تمر بفترة جيشان هائل تشير كل وقائعها الى أن عصرا بأكمله يعيش آخر أيامه.. وقبل قيام ثورة يوليو فى صبيحــة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبالضبط فى ١٨ يوليـو التقيت مصادفة بالبكباشى جمال عبـد الناصر والصـاغ عبد الحكيم عامر.. وكنت آنـذاك فى زيارة للواء محمد نجيب فى بيتـه ودار بيننا نقاش سـاخن حول مـا يجرى فى البلاد ودور الجيش فيــه.. ومن بعد هـذا اللقاء دعـوت عبد النـاصر ورفيقه لـزيارتى فى منـزلى لاستكمال

مناقشاتنا.

وبالفعل حضرا إلى بيتى وتحدثنا طويلا واتفقنا على اللقاء مرة أخرى وهكذا استمرت علاقتنا حتى وجدت نفسى داخل أحداث الثورة أتابع أحداثها أول بأول من مقر هيئة أركان حرب الجيش بكوبرى القبة(مكان وزارة الدفاع الآن) وكنت همزة الوصل بين الضباط الاحرار وبين الأستاذ مصطفى أمين فيما يتعلق بالمهام الصحفية .. والأخبار التى ينشرها فى صحف أخبار اليوم.. وهكذا استمرت علاقتى تزداد يوما بعد يوم بالزعيم عبد الناصر.. حتى يوم وفاته حيث كنت أقرب الناس إليه.. وكنت وقتها رئيسا لتحرير جريدة الأهرام التى انتقلت للعمل بها منذ عام ١٩٥٧..

***

أعتقد الآن.. أنك من خلال هذا السرد لاحظت أننى لم أتعرض لتجربة السجن أو الاعتقال.. حتى أوائل شهر يوليو عام ١٩٧٨ حين تمت إحالتى إلى المدعى الاشتراكى للتحقيق معى، رغم أنه قد حام حولى شبح هذا الإجراء عدة مرات قبل ذلك فى أعوام ١٩٧٦و١٩٧٧ ويبدو أن ذلك كان مقدمة للحدث العظيم الذى وقع لى وانتهى باعتقالى فى سبتمبر عام ١٩٨١..

واستأذنت مفكرنا الكبير الاستاذ هيكل أن يحكى لى بعض ملامح التحقيق معه لدى المدعى الاشتراكي قبل أن يحدثنا عن تجربة خريف الغضب الذى اعتقل فيه فى سبتمبر عام ١٩٨١.. خاصة أنه قد اعتبر هذا التحقيق بداية حقيقية لمضايقته والتأثير على حياته الفكرية وحرية الرأى لديه..

ولم أجد إلا سماحة الأستاذ.. واستجابته السريعة لما طلبت فقد توقف بنا شريط الأحداث راجعا إلى الوراء عدة سنوات.. وبالضبط فى أوائل شهر يونيو عام ١٩٧٨.. وما قبلها بأعوام قليلة..

– قال الاستاذ هيكل: أتذكر مرة من المرات قد بلغت فيها الحملة ضدى مداها من أجل التحقيق معى بدون وجود أسباب موضوعية يستندون إليها ونشرت إحدى الصحف صباح أحد الأيام ما يكاد يكون عريضة اتهام ضدى، بل ونشرت ما يكاد أن

يكون حكما مسبقا.. وكان هنـاك قول صريح بأنى محال لاشك فى ذلك اليوم إلى المدعى الاشتراكى.. وكان مقـررا أن يلقى الرئيس السادات يومهـا خطابا فى اللجنة المركـزية للاتحاد الاشتراكى آنذاك.. وكان التلميح أن الإحالة آتية ضمن هذا الخطاب..

وجاء الخطـاب المنتظر، وجـاء خلوا مما جـرى الوعيد بـه، لكن الشبح ظل يحوم.. يقترب أحيانا ويبتعد أحيانا أخرى.. ولم تكن الإحالة على المدعى الاشتراكى هى الشبح الوحيد وإنما كانت هناك أشباح أخرى..

وظلت الأمور مستقرة نوعا ما حتى كـانت مبادرة السفر إلى إسرائيل فى أواخر عام ١٩٧٧، وأبديت فيها رأيى.. ومضت الأسابيع والشهـور مشتعلة بالتوتر والقلق حتى عام ١٩٧٨ حين تم الاطاحة بأوضاع المسرح السياسى المصرى آنذاك وجاء من يهمس فى أذنى بأن الدور قد جاء على.. ثم أشيـع أن هناك قوائم إحالات إلى المدعى الاشتراكى وأن أسمى ضمنها..

وتأكد لى هذا الخبر حين عرفت من مصادرى الخاصـة أنه قد صدر قرار بمنعى من السفر انتظارا لتحقيق سوف يجريه معى المدعى الاشتراكى..

وتحدد بالفعل موعد الجلسة الأولى.. الأربعاء ١٤ يونيو عام ١٩٧٨.. وتعاقبت بعد ذلك جلساته واحدة بعد أخرى.. عشر جلسات كاملة.. أربع منها فى شهر يونيو وخمس فى شهر يوليو ، وجلسة ختـامية فى اليوم الاول من أغسطس.. وربما تتساءل لماذا هذا التحقيق؟.. ومـا هى النتيجة؟.. وردى على هذا السـؤال.. لا أعرف حتى الآن.. وكـل ما أعرفه فقط هو أن أى إساءة إلى مصر لم تصدر عنى..

***

والآن جاء دور حكاية الاعتقال ولابد أننا جميعا فى انتظار أن نسمعها .. وقد سجلها الأستاذ هيكل من قبل فى كتابه« خريف الغضب».. فقلت متسائلا:

*** نريد أن نعرف حكاية اعتقالكم عام ١٩٨١؟ وتأثير هذه التجربة على كتاباتكم وآرائكم فى المستقبل؟..**

– إذا كنت سأروى الآن طرفا من وقائع تفـاصيل اعتقالى فإنى أفعل ذلك فى حقيقة

الأمر لمجرد شرح صورة الاعتقالات فى حد ذاتها، لأن ما حدث لى حدث مع مئات غيرى فى طول مصر وعرضها.. ولابد أن التجربة التى رأيتها بعينى قد عاشها كل هؤلاء الذين كان من قدرهم أن يتعرضوا لغضب الحاكم آنذاك..

ففى حوالى الثانية من صباح يوم ٣ سبتمبر كانت هناك طرقات على باب شقتى بالإسكندرية حيث كنت هناك بعد عودتى من باريس.. كان معى فى الشقة ليلتها اثنان من أبنائى وسمع أحدهما طرقات الباب فذهب ليجد اثنين من ضباط مباحث أمن الدولة يطلبان منه فتح الباب.. فجاء لإيقاظى من النوم فذهبت وفتحت باب الشقة لهما ودعوتهما إلى الدخول.. وقال لى على الفور إننى مطلوب لمباحث أمن الدولة.. ونظرت فى ساعتى، وكانت الساعة الثانية صباحا.. وذكرتهما بأننى أنا الذى صنعت عبارة «زوار الفجر» فى مقالاتى بالأهرام فى وقت الرئيس عبد الناصر.. فكيف يحدث ذلك فى عصر الديمقراطية.. وكان كلا الضابطين والحق يقال مهذبا فى تصرفاته.. قالا إنهما فى أشد الأسف، ولكنها مكلفان بأمر يتحتم عليهما تنفيذه.. وسألتهما أن آخذ حقيبة بما أحتاج إليه من ملابس وأدوية.. وكان ردهما بأن لدى عشر دقائق أحزم فيها حقيبتى.. وسألت ما إذا كان على أن أحزم حقيبة كبيرة لغياب طويل؟ وكان ردهما: «ليس أكثر من يوم أو يومين»..

وسألتهما ما إذا كنا سنذهب إلى القاهرة، وإذا كان ذلك فهل نذهب فى سيارتى؟ وكان ردهما بالنفى، ثم أضافا أن هناك ترتيبات لكل شىء.. وحزمت حقائبى وشددت على يد ابنى، ولم أشأ إيقاظ أصغر أبنائى حتى لا يتأثر بمايراه يحدث أمامه.. وخرجت من باب الشقة دون أن أقبل ابنى الذى كان فى وداعى، لأنى أردت أن يكون مشهد الوداع خاليا من أى انفعالات عاطفية يمكن أن تفسر على أنها مظهر ضعف..

وعندما خرجت من باب الشقة، راعنى ما رأيت.. فعلى الردهة خارج الباب كانت هناك ثلة من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة وكان هناك أحد الضباط يمسك بجهاز لاسلكى يبلغ فيه أولا بأول تفاصيل عملية الاعتقال..

والتفت فوجدت المصعد جاهزا فى الدور السابع حيث شقتى، وفى داخله أحد الضباط مسلح بمدفع أوتوماتيكى.. ثم اكتشفت أثناء هبوط المصعد أن كل أدوار

العمارة التى أسكن فيها محتلة بالجنود، وكانت أصداء أجهزة اللاسلكى التى يحملها بعضهم تصدر أصواتا موحشة فى ظلام الليل وسكونه.. وعندما نزلنا إلى مدخل العمارة، راعنى مرة أخرى ما رأيت، فقد كان المدخل محتلا بقوة مسلحة كبيرة، وسمعت أحد الضباط يهمس بجهازه اللاسلكى بأن العملية رقم (٩) قد نفذت.. وتساءلت باسما: اذن فأنا العملية رقم(٩)؟..

ولم أتلق جوابا.. لكنه كان واضحا أن ذلك بالفعل هو رقم عملية القبض على.. كان المشهد الذى وجدته فى ردهة مدخل العمارة أشد غرابة من كل ما سبق.. المدخل نفسه محتل كموقع عسكرى من باب المصعد إلى مدخل العمارة.. وخرجت إلى الشارع، ومن العجيب أن المنظر الذى وجدته أمامى كان كئيبا أكثر منه مخيفا.. بل لعله كان فى جزء منه سخيفا كذلك.. فعندما يزيد حجم القوة أو العنف عن الهدف أوالغرض المطلوب منهما تحقيقه، فإن الخلل فى التوازن بين الوسائل والغايات يكشف إحساس القوة بعجزها، ويفضح إحساس العنف بضعفه..

كان الشارع الذى تقع فيه العمارة التى أسكن فى الصيف إحدى شققها بالإسكندرية شارعا صغيرا يمتد متعامدا على طريق الكورنيش ويؤدى إليه..

والآن فقد وجدت أن إحدى سيارات اللورى المحملة بجنود الأمن المركزى تقفل جانب الطريق المؤدى إلى الكورنيش، فى حين أن سيارة أخرى كانت تقفل جانبه الآخر الذى يبدأ من شارع مواز لطريق الكورنيش.. وكان منظر اللوارى المسلحة وغيرها من سيارات الحملة البوليسية الملكفة باعتقالى صاخبا- أو هكذا بدا لى فى ظلام الليل- خصوصا بالأضواء الملونة فوق السيارات حمراء وزرقاء.. وكانت بعض الأضواء ثابتة وبعضها الآخر لا يكف عن الدوران.. وكانت المحركات كلها تهدر، وأجهزة اللاسلكى مفتوحة، والإشارات حول تنفيذ العملية وتقدم مراحلها تروح وتجىء بين القيادة فى مكان ما وبين القوة المتقدمة والمحيطة بى الآن..

وكان المشهد كله يكتسب مسحة من لون أصفر كثيف تبعث به مصابيح الشارع المدلاة من أعمدة عالية، وتضفى على الموقف كله جوا يكاد يكون سينمائيا، والتفت إلى الضابط الذى كان بجانبى وقلت له: « كأننا فى مشهد من فيلم «زد» (مشيرا بذلك إلى

الفيلم الشهير عن إرهاب حكم الكولونيلات بعد انقلابهم العسكرى واستيلائهم على السلطة فى اليونان).. ولم يظهر لى أن اشارتى إلى مشاهد ذلك الفيلم الشهير قد وجدت صدى لها.. وهكذا مشيت صامتا إلى سيارة صغيرة دعانى الضابط إلى الركوب فيها معه كبادرة من جانبه.. وبدأ الموكب المسلح كله يسرى فى ظلام الليل إلى طريق الكورنيش، والأضواء الحمراء والزرقاء تلمع أمامه ووراءه.. وسألت الضابط« ما كان هناك داع لهذه القوة كلها لتنفيذ اعتقالى؟»، ولم يقل شيئا، واستطردت فى حالتى كانت تكفى إشارة تليفونية تطلب إلى الحضور إلى مباحث أمن الدولة وكنت بالتأكيد سوف ألبى حتى ولو جاءتنى الإشارة وأنا فى سفر عمل خارج مصر».

ومرة أخرى لم يقل شيئا.. وساد الصمت لبضع دقائق، والموكب يواصل اندفاعه، وسألته:

– الى أين نحن ذاهبون؟..

وحينئذ كان لديه ما يقوله لأول مرة، وقد قاله برقة شديدة:

– انتظر وسوف ترى بنفسك كل شىء حينما نصل الى مركز قيادة العملية فى الاسكندرية..

وحاول الضابط أن يفتح بابا للحديث، فراح يتذكر كم كان يقرأ مقالاتى فى الأهرام باهتمام، ثم سألنى ما إذا كانت هذه أول مرة أعتقل فيها؟ وكان ردى بالإيجاب.. وكان تعليقه:

– ان الظروف تتغير..

***

ووصل موكبنا أخيرا إلى مبنى ضخم عرفت فيما بعد أنه مقر مديرية الأمن فى الاسكندرية.. وكان المشهد الذى ينتظرنا هناك حافلا.. كان هناك مئات من جنود البوليس يحيطون بعشرات من السيارات تحمل غيرى من المعتقلين.

وبدا لى أن مواكب بعد مواكب من سيارات المعتقلين تقوم من هناك محاطة بالحراسة اللازمة متجهة بأقصى سرعة إلى القاهرة.. وكانت الصفارات المدوية

والأضواء الملونة تفتح الطريق لكل موكب من هذه المواكب.. ونزلت من السيارة محاطا بـالحراسـة، والتفت حـولى فإذا خليط هـائل من المعتقلين شبـاب وشيـوخ، مشـايخ وقسس– كلهم الآن فى نفس المصير.. وحملقت فى سيـارة الأسرى التى كانت على وشك أن تتحرك محاطـة بحراستها ولمحت وجهـا مألوفا داخلها هـو وجه الدكتـور محمود القـاضى.. ولوحـت له مشجعـا، وقـال الدكتـور القـاضى: سـوف نتقابل فيما بعـد بالتأكيد..

وانطلق موكبـه مع من كانوا معـه من الأسرى وسألنى الضابط الذى كـان لا يزال بجانبى: «أظنك الآن عرفت ما هو الموضوع وأين نحن الآن؟».

ثم سألنى عما إذا كـان يستطيع أن يقـدم لى أى خدمـة، ورجـوته، إذا كـان ذلك فى استطاعته، أن يتصل بـابنى تليفونيا ليبلغه أننى ذاهب إلى القاهـرة .. وقال إنه سيفعل (بكل سرور) .. وسألنى عن رقم تليفونى وأعطيته له قائلا:

– أظن أن مباحث أمن الدولة لابد تعرف رقم تليفونى»..

وقال إنـه سيتصل، ويبدو أنه لم يتمكن من ذلك.. وبـدأ إعداد القافلـة التى تقرر أن أكون ضمنها فى الرحلة إلى القاهرة.. كان مركزها سيارة «بيجو» من سيارات البوليس المصفحة والعتيقة.. ووجدت معى رفاقا بينهم الأستاذ ابراهيم طلعت وهو نائب وفدى سابق وأديب وشاعر ومحدث ممتاز، ثم الأستاذ عادل عيد وهو قاض سابق وكان أحد النواب المستقلين البارزين.. ووجدت أيضـا أحد قـادة الحركة العمالية المقتدرين، وكان أيضا نـائبا سابقا وهـو الأستاذ أبو العز الحريـرى.. وبدأ موكبنا يتقـدم على الطريق الزراعى فى اتجاه القاهرة.. وكانت الرحلة إلى القاهرة هى الشىء المخيف فعلا فى العملية كلها، فقـد كان جنـدى البوليس الملكـف بقيادة السيارة نصـف نائم ويبـدو أن أقداح الشاى التى تنـاولها قبل بدء الرحلـة لم تستطع أن تتغلب على تعب وسهر يـوم طويل ومرهق..

كانت السيارة تتأرجح تحت قيادتـه وتوشك فى بعض الأحيان أن تصطدم بسيارة الحراسة أمامنا وبالموتوسيكلات المحيطة بها من كل جانب.. وسألت عما إذا كان يمكن أن يقود السيـارة غيره، ولم يلتفت أحد لاقتراحى.. وراح الموكب ينـدفع بأقصى سرعة

على الطريق إلى القاهرة.. كانت السيارة محملة بأكثر من طاقتها العادية بالأسرى وبالضباط وبالجنود وبالمخبرين.. ولم يكن هناك مفر من الاستسلام للأمر الواقع.. ورحنا نتحدث فيما يجرى غير عابئين بأن كل كلمة نقولها مسموعة من هؤلاء المحيطين بنا..

وسألنى الأستاذ ابراهيم طلعت عن تقديرى للموقف، وكان ردى أن العملية كلها كما أراها من حولى تكشف حالة« انفلات أعصاب».. ورحنا نخمن فيما بيننا عن الجهة التى يمكن أن يذهبوا بنا إليها.. ولم نستطع أن نصل الى ظن أكيد.. وطلبنا فتح جهاز الراديو، علنا نسمع شيئا يلقى ضوءا على مصيرنا، وفتحوا لنا جهاز الراديو فعلا، لكن على محطة القرآن الكريم التى كانت على وشك تفرغ من إذاعة صلاة الفجر..

ولم تخل الرحلة من مواقف طريفة، فقد صاح الأستاذ إبراهيم طلعت فجأة أنه لابد من إيقاف الموكب لأنه يريد أن ينزل لحظة من السيارة لحاجة يقضيها .. وحين بدا له أن الاستجابة لطلبه ليست كافية، صاح مرة أخرى يقول:

– «إننى أعانى من مشكلة بروستاتا، وإذا لم أنزل من السيارة لحظة لما أريد النزول من أجله فإنى قد أموت، وعليكم أن تتحملوا مسئولية موتى»..

وتوقف الموكب قرب أحد الحقول على الطريق الزراعى، ونزل الاستاذ ابراهيم طلعت لما يريد، ثم استأنف الموكب تقدمه، وكان الصبح على وشك أن يطلع..

ووصلنا القاهرة حوالى الساعة السابعة.. وسألنا ما إذا كان فى استطاعتنا أن نشترى بعض الصحف، ورفض طلبنا.. وتنبأ الأستاذ ابراهيم طلعت أننا ذاهبون إلى نيابة أمن الدولة، لكن موكبنا تجاوز الطريق المؤدى إليها.. ومرة أخرى تنبأ الاستاذ ابراهيم طلعت بأننا قد نكون فى الطريق إلى سجن القلعة، لكننا مرة أخرى تجاوزنا الطريق المؤدى إليه.. وحين دخلنا إلى كورنيش المعادى فقد بدا واضحا أننا فى الطريق إلى منطقة سجون طره.. واستقر بنا المطاف أخيرا أمام سجن من سجون طره.. كان سجنا جديدا.. ويبدو أنه – رغم سوء أحواله – بنى بمعونة أمريكية، وكان البحث لا يزال جاريا عن اسم له.. ومن المفارقات أن الاسم المقترح له فى ذلك الوقت كان اسم «سجن السلام»..

وكنت قد تصورت أننا سوف نسجن كمعتقلين سياسيين، وكان هؤلاء عادة يلقون فى السجون معاملة خاصة من حيث انه كان يسمح لهم بالكتب والورق والأقلام.. وهكذا فإنى جئت فى حقيبتى ببعض الكتب ودفاتر المذكرات والأقلام.. واكتشفت فور وصولنا إلى السجن أننى كنت غارقا فى الأوهام.. ففى صالة استقبال السجن صودر كل ما كان معى ومع غيرى من الكتب والأوراق والأقلام.. بل ومن الأدوية والمحافظ والنقود.. وحتى الملابس.. سمح لكل منا بغيار داخلى واحد وبمنشفة وبفرشة أسنان بدون معجون لأن معجون الأسنان كان يجب أن يوافق على دخوله معنا أطباء السجن باعتباره نوعا من الأدوية فى تقديرهم..

وقد قيل لنا على أى حال إن أطباء السجن سوف يقررون فى اليوم التالى ما يلزم أى واحد منا من الأدوية، بما فيها معجون الأسنان.. والتفت حولى ونحن مازلنا بعد صالة استقبال السجن المحاطة من كل ناحية بالقضبان الحديدية - فاذا مصر كلها تقريبا.. هناك: شخصيات بارزة فى الحياة العامة المصرية، وساسة مشاهير، واقتصاديون، وكتاب ومثقفون كبار.. قيادات ورموز لكل التيارات السياسية والفكرية فى الحياة المصرية كلها وفى شتى مناحيها.. وكان هناك أيضا رجال دين اسلامى.. أما رجال الدين المسيحى الذين رأيتهم فى مديرية أمن الاسكندرية، فلم يكونوا معنا.. واقتادنى بعض الحراس الى الزنزانة رقم (١٤).. وكنت وحدى فيها.. وتلفت حولى أستكشف أحوالها: زنزانة صغيرة عليها باب من الحديد فى أعلاه قضبان تصل منها أصوات الضجة الجارية فى السجن.. صليل قضبان حديدية وصيحات مساجين ووقع أقدام حراس قعقعة سلاح..

وكانت هناك عشر مراتب من المطاط ملقاة داخلها وعشر بطاطين تفوح منها رائحة الـ «د. د. ت.».. وكانت هناك حفرة فى ركن من الزنزانة تمثل دور الحمام فيها، وفى ركن آخر كانت هناك مجموعة من الأوانى المصنوعة من الصاج.. وتمددت على إحدى المراتب أفكر فى كل ما جرى وأحاول تمثل معانيه وأبعاده.. ومضت ساعة أو أكثر قليلا، وسمعت صليل الباب الحديدى ومفتاحا يدور فيه.. ثم انفتح الباب عن جاويش يتبعه اثنان من الجنود، أحدهما يحمل صفيحة علاها الصدأ، وآخر يحمل صفيحة أخرى

ملأى بأرغفة الخبز، وتغطى الاثنان سحابة من الذباب..

وسألنى الجاويش بحزم: «أين قروانتك؟» وقلت له: «ليس عندى قروانة».. وأشار بيده إلى كومة من الأوانى المصنوعة من الصاج وقال لى: «هذه هى القراوانات، ولك واحدة فيها».. وسألته عما يريده بالضبط، وكان رده: «أريد أن أعطيك طعام اليوم».. وكان واضحا أنه يريد أن يعطينى بعضا من العسل الأسود فى القروانة ورغيفين من الخبز.. واعتذرت له شاكرا.. ومع انى قد بدأت أشعر بالجوع، فقد كان منظر المعروض على من الطعام كافيا لصد أية شهية.. وقال الجاويش اننى اذا رفضت استلام طعامى فسوف يخطر ضابط السجن بامتناعي.. وقلت له إنه حر فى إخطار من يشاء.. وبعد دقائق جاء أحد ضباط السجن يسألنى: «لماذا لم تتسلم طعامك وليس هناك غيره طول اليوم» وأضاف متلطفا: «إننى أعلم أن هذه أول مرة لك فى السجن، ولكنك سوف تتعود». وقفزت إلى موضوع آخر، فقد سألته: ماإذا كان سجنى سيكون انفراديا لأنى مازلت وحدى فى الزنزانة».. وكان رده بالنفى، وزاد تلطفه معى حين قال: «الحقيقة أننا كنا نريد أن نجد لك رفاقا يناسبونك». وسألته: «أين الذين جاءوا معى من الاسكندرية؟ «وقال:» إن معظمهم فى الزنزانة رقم ١٢، ولكنها امتلأت عن آخرها.. وأضاف أنه سوف يحاول أن يجد لى رفاقا يناسبوني..

وغاب نصف ساعة ثم عاد ومعه الأستاذ ابراهيم طلعت والأستاذ كمال أحمد وهو من قيادات الحركة الناصرية الشابة، وقال لى إن الاثنين تطوعا لكى يسكنا معك فى نفس زنزانتك.. ثم قال: «إن هناك بعضا من الشباب المتدينين عرفوا أننى معهم فى نفس السجن وطلبوا الاقامة معى لكى يناقشونى فى بعض آرائى، ولكنه أمهلهم لحين استئذانى فى أمرهم.. وشكرته ورجوته أن يأتى بمن يريد.. وجاءوا، وكان بينهم أحد زعماء الطلبة المتدينين فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة واسمه «أكمل» وبدأ نوع من الحياة الجديدة المشتركة يسرى فى الزنزانة بعد ساعات من الوحدة.. ومضت ساعات.. ثم فتح باب الزنزانة بعد الظهر، ودخل أحد الضباط يطلبنى للخروج معه..

وتفاءل الأستاذ إبراهيم طلعت بأسرع مما ينبغى وقال: «هو الإفراج بالتأكيد... لابد أنهم أحسوا بضغوط دولية بشأنك فقرروا الإفراج عنك فورا».. وقلت له فى محاولة

لتهدئة تفاؤله: «لا تسرف فى حسن الظن. إن من قرروا اعتقالى لابد أنهم حسبوا مسبقا ما يمكن أن يثيره القبض على ردود فعل فى الداخل أو فى الخارج، وماداموا قد أقدموا على هذه الخطوة فليس من السهل عليهم أن يعودوا عنها بهذه البساطة»..

وحملت أمتعتى – الغيار الداخلى والمنشفة وفرشاة الأسنان وتبعت الضابط الذى جاء لاستدعائى.. وعند غرفة مدير السجن وجدت فى انتظارى ضابطا برتبة لواء ومعه ثلاثة من العمداء.. كانوا فى انتظارى وظهر أن الموضوع يتصل بطلب تفتيش شقتى ومكتبى وبيتى الصغير فى الريف.. وبدأت مسيرتنا فى موكب مسلح جديد فى اتجاه بيتى ومكتبى فى الجيزة.. وبعد ان تم التفتيش، وصادوروا بعض ما عثروا عليه من أوراق، سألتهم مشيرا إلى بعد المسافة ومشقة الطريق الى بيتى فى الريف، وتساءلت ما اذا كان ممكنا تأجيل ذلك إلى الغد لأنى متعب.. لكن الأوامر كانت صارمة، كما أن الاشارات المتبادلة بين السيارة التى كنت فيها وبين قيادتها فى مكان ما كانت تصر على إتمام العملية رقم (٥)..

وكان اللواء المسئول عن هذه العملية غير قادر على أن يجد لنفسه حيلة فى هذه الأوامر الصارمة.. ومرة أخرى أبديت نوعا من الاحتجاج: «لم يكن هناك داع لهذه الحملات المسلحة كلها.. لقد كان جندى واحد يكفى لتفتيش شقتى ومكتبى بدلا من وضعهما كما حدث تحت احتلال عسكرى كامل، وبدلا من الذهاب إليهما بموكب مسلح على هذا النحو»..

وسألت الضابط المكلف بالعملية: «ما هو الذى تبحثون عنه بالضبط».. وكان رده: «أوراقك السياسية». وقلت له: «إن الكل بما فيهم الرئيس السادات يعرفون أننى منذ زمن طويل نقلت أوراقى السياسية التى أخشى عليها إلى خارج مصر».. وأضفت: «إذا كنتم تريدون أواقى السياسية فلماذا لا تعيدوا إلى جواز سفرى الذى صادرتموه من أحد أدراج مكتبى أثناء التفتيش ثم نسافر معا الى الخارج لنعود بهذه الأوراق؟ «ولم يعلق بشىء. كان قد صادر أيضا بعض المراجع الاسلامية التى كنت استعين بها أثناء عملى فى كتابى عن الثورة الايرانية.. والآن أضفت: «أرجو ألا يكون بين التهم الموجهة الى تهمة انتمائى إلى الجماعات الاسلامية؟».. كان من بين الأوراق التى صادرها أيضا

من شقتى مذكرة برأى حـزب الوفد الجديد فى اتفاقيات كامب ديفيـد، وكان مرفقا بها بطاقة باسم الاستـاذ محمد فؤاد سراج الدين أضاف اليها صـاحبها بخطه عبارة «مع تحياتى»..

كنت قد التقيت بـالاستاذ فؤاد سراج الدين فى جنـازة إحدى قريباتـه وسـألنى أثناء موكب الجنازة مـا اذا كنت قرأت بيان حزب الـوفد الجديد عن اتفاقيـات كامب ديفيد، وأجبته بالنفى، فأرسلهـا إلى فى اليوم التالى مشفوعة ببطاقة منـه.. والآن كان الضـابط المكلف بالتفتيش يريـد مصـادرة المذكرة.. وبالطبع لم يكن أمامى ما أفعلـه إلا أن أتركه يصادرها، لكنى حاولت أن أرفع بطاقـة فؤاد سراج الدين المرفقة بها، ومنعنى من ذلك قائلا: «إن البطاقة أهم من المذكرة نفسها»..

وكان بيتـى الريفى – حينما وصلنـا اليه – تحت احتـلال عسكرى كبير آخـر، فقد سبقتنا اليه لـوارى محافظة الجيزة التى تتبعها النـاحية التى يقع فيها، وكـان أكثر ما أسفت له حين وصلنـا ساحة البيت أن لـوارى البوليس داست بعض أحواض الـزهور المحيطة به.. وبـدا اهتمامى بالزهور فى تلـك الظروف مدعاة للاستغـراب.. وشغل أحد الضباط المراقبين نفسه بإصدار الأوامر إلى جنوده الذين انتشروا تحت أشجار المانجو يأكلـون ثمارها بأن يكفـوا عما يفعلون ورجـوتـه بأن يتركهم كما شاءوا شريطـة أن يبتعدوا عن أحواض الزهور..

وفى بيتى فى الـريف – وبينما كان الضبـاط من القوة منهمكين فى عمليـة التفتيش – عاد الى الإحساس طاغيا بالجوع، واستأذنت ضباط الحملة ما اذا كان فى استطاعتى أن أطلب طبقا من البيض المقلى، وجاءنى الطبق عـائما فى السمن .. وهكذا اضطررت إلى أن أستأذن مرة أخرى وما إذا كـان يمكن استبدال البيض المقلى ببيض مسلوق لأن كثرة السمن فى البيض المقلى يمكن أن تحرك كل مشـاكل المرارة والكلى التى أعـانى منهـا.. وجاءنى الإذن بـالموافقة، لكن التفتيش كان قـد تم وصادر الـذين قاموا بـه ما أرادوا مصادرتـه، وبينه بعض كتب كارل ماركس وقلت للمـرة الثانية ضاحكـا: «يبدو أننى هنـاك فى شقتى كنـت متهما بـالتطـرف الـدينى، والآن فـإننى على وشك أن أتهم بالشيوعيـة».. ولم أسمع ردا، واستأذنت ما إذا كنت أستطيع أن أحمل البيض المسلوق

وبعض أرغفة الخبـز – التى جاءنى بها غفير البيت – معى لكى آكلهـا فى السجن مادام التفتيش قد انتهى.

وبدأنا رحلة العودة إلى طره، ووصلنا هناك قبل منتصف الليل بقليل.. وكنت منهكا من التعب، ولكنى كنت مصمما على عـدم التبرم أو الشكوى مهما كانت الأسبـاب. فلقد أحسست أن خيطا رفيعا يفصل ما بين ابداء الشكوى وإبداء الضعف.. وهكذا فإننى فى الأيام الخمسـة الأولى للسجن لم أتناول طعامـا غير خمس بيضات مسلوقـة وخمسة أرغفة عدت بها من بيتى الريفى.. والغريب أنها اتسعت لاستضـافة رفاقى فى الزنزانة أيضا..

***

والحقيقة أن أكثر ما ساعدنى فى التجربة الجديدة على كل شىء شعور أحسست به منـذ اللحظة الأولى للقبض على، وهـو شعـور الصحفى أولا وأخيرا.. لقـد وجدت هـذا الشعور يعطينى نوعا من الانسلاخ عن الـواقع.. أحسست أننى مراقب يتابع الأحداث أكثر مما هو ضحية من ضحاياها.. وكنت شديد الثقة – حتى فى تلك اللحظات الأولى – إننى سأكتب فى يوم من الأيـام قصة كل مـا جرى.. وهكذا فإن الأسير فى العمليـة كلها تـراجع ليفسح المجال للصحفـى كى يتابع ويـراقب ويتأمل ويـربط أطـراف الدرامـا التاريخية التى تتحرك حوله بصرف النظر عن أنه هو نفسه جزء منها..

ولقد كان بعض رفاقى يندهشون من برود أعصابى فى مواجهة ظروف أقل ما يقال فيها إنها كانت مزعجة، ولم يتنبه أحد بـالقدر الكافى إلى عملية الانسلاخ التى جرت بين الأسير وبين الصحفى.. وهكذا رحت سـاعة بعد سـاعة أتأمل الحياة من حـولى وأتابع حركتها دقيقة بعد دقيقة منذ تلك اللحظات الموحشة بعد منتصف ليلة ٣ سبتمبر..

وبقينـا داخل الزنـزانات لا نبـارحها لمدة أحـد عشر يومـا.. ولم تكن لدى أى منـا معلـومـات من أى نوع عما يجرى فى الخارج.. ولم يكـن هناك مجال وسط تكـدسنـا البشرى داخل الـزنزانات للقيـام بأى حركـة طبيعية.. وقـد حاولت أن أعـوض نقص الحركـة عن طريق القيـام بتمارين رياضيـة واقفـا فى مكانى من الـزنزانـة.. ولم يكن مسموحـا بالقهوة أو الشـاى.. وكانت المياه المتاحـة لنا محدودة.. وحاول أحـد شبان

الجماعات الإسلامية معنا أن يعلمنى كيف أستطيع أن أستحم بكوب ماء لا أكثر.. وكنا ننام على الأرض كل واحد منا فوق مرتبته المصنوعة من المطاط، وكانت المراتب متلاصقة تغطى أرضية الزنزانة تماما.. وكانت قضبان الزنزانة على الجزء العلوى من بابها الحديدى مفتوحة للغارات من الذباب بالنهار والناموس ليلا.. وكنت أقول لرفاقى ضاحكا: «أسراب القاذفات تغير علينا نهاراً، وأسراب المقاتلات تغير علينا ليلا»..

وبعد أربعة أيام جاءت مجموعة من الأطباء وصرحت لنا ببعض ما كنا نحتاجه من أدوية شريطة أن نثبت أن حاجتنا ماسة اليها..

***

وتوقف شريط الذكريات.. ولم أستطع أن أجعل أستاذنا هيكل يضيف أكثر من ذلك.. وبالتالى انتقلت إلى سؤال آخر يقول:

***هذا ما حدث أيام حكم السادات فما رأى الاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فيما حدث للفكر المصرى والمفكرين أثناء حكم جمال عبد الناصر.. وأين كان حين حدثت التجاوزات التى أثرت سلبا على الفكر المصرى فى تلك الفترة؟**

– قبل كل شيء أحب أن أؤكد لك.. أنه بعد رحيل جمال عبد الناصر.. تعرضت مصر لحملة ضاربة على عصر عبد الناصر وعلى ما جرى فيه، فالصحف والاذاعة والتليفزيون وهى ملك للدولة واصلت لوقت طويل ولسنوات متصلة تشويه سمعة مصر فى عهد عبد الناصر.. وأنا لا أنكر أنه حدثت تجاوزات.. بعض التجاوزات، كما تحدث فى كل عصور التحول التاريخى.. ويشهد التاريخ أننى كنت الصحفى الوحيد الذى شهر قلمه فى وجه هذه التجاوزات وكان ذلك فى حضور عبد الناصر، ولم أنتظر وفاته.. ورغم أن تحفظاتى على ما كان يحدث آنذاك لم تؤت ثمارها.. إلا أننى قد أبديت رأيى فيها.. مسجلا بذلك موقفا من تلك التجاوزات.. ويكفى القول :إننى صاحب التعبير الشهير «زوار الفجر» الذى قلته فى فترة حكم عبد الناصر.. وغير ذلك فقد كتبت العديد من المرات عن قضايا الديمقراطية، ونقدت بشدة اجراءات الحراسات والاعتقالات وغير ذلك مما صاحب التجربة.

وأريد أن أقول بوضوح أن بعض ذلك كان ضروريا.. وبالنسبة لى كصحفى وهذا هو دورى فإن حدود جهدى فى هذا الميدان وكما أكدت لك هو أننى أشهرت قلمى لنقدها وتحملت فى ذلك مسئولية الكلمة.. وقد تعرضت بسبب ذلك لحملة ضاربة فى وجود عبد الناصر وحين تولى الرئيس السادات مسئولية الحكم كتبت مؤيداً إياه فى محاسبة مراكز القوى لما فعلوه فى حق الفكر المصرى وكذلك المفكرين.. وبالتالى أيدته فيما أقدم عليه من إغلاق المعتقلات وإلغاء الحراسات وإعادة الحرية لكل من أضير فى عهد مراكز القوى.

ويحضرنى عناوين بعض المقالات التى تناولت فيها التجاوزات التى حدثت فى عصر عبد الناصر.. مثلا المقال الذى نشرته بتاريخ ١٩ ابريل عام ١٩٦٨ بعنوان «ليس بالحسم وبالحزم.. ولكن بالعمل السياسى».. ومقال بعنوان «كيف تنشأ مراكز القوى» نشرته بتاريخ ٢٥ اكتوبر عام ١٩٦٨.. ومقال آخر بعنوان «أزمة الشك فى الصحافة المصرية» بتاريخ ٢٠ ديسمبر عام ١٩٦٨..

ولم يتوقف نقد هذه التجاوزات على قلمى فقط.. بل ساعدت الكثيرين غيرى ممن عملوا معى فى الأهرام بنقدها مثل ما كتبه الاستاذ توفيق الحكيم فى قصته التى نشرها بالأهرام بعنوان «بنك القلق» والاستاذ نجيب محفوظ الذى نشر له العديد من أعماله التى تعرضت بالنقد الشديد لبعض تجاوزات التجربة.

***

وانتقلنا بعد هذا الحديث.. إلى عنصر آخر من عناصر الحوار.. فقد سألت أستاذنا هيكل:

*** نريد أن نعرف من الأستاذ هيكل.. كم كتابا ألفه تأثرا بهذه التجربة؟..**

– يأتى فى مقدمة هذه الكتب.. كتاب «خريف الغضب» الذى يتصوره العديد من الناس أننى أعبر فيه عن ضغينة شخصية ضد الرئيس الراحل أنور السادات الذى اختلفت معه.. ومثل هذا التصور ليس صحيحا وليس قائما.. لأنى لا أحمل ضغينة شخصية على الإطلاق ضد السادات.. وإلى هذه اللحظة فلقد اختلفنا.. ولم يكن فيه

عامل شخصى على أى وجه من الوجوه.. والدليل على ذلك أنه خلال السنوات الأربع من رئاسته وكما اعترف السادات نفسه بأننى كنت أقرب الناس إليه..

وأيضا ليس صحيحاً ما قيل وقتذاك إن الرئيس السادات أقصانى من منصبى كرئيس لتحرير جريدة الأهرام.. وإن القطيعة بسبب ذلك قد استحكمت بيننا لقد كانت هناك خلافات فى الرأى بيننا واستحكمت فعلا أثناء فك الارتباط الأول بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية وبعده مباشرة إلى درجة لم أعد أستطيع معها أن أشارك فى التعبير عن السياسة المصرية.. ولعلك تعرف وربما لأول مرة أن قرار خروجى من رئاسة تحرير الأهرام كان قرارى.. وأن الأمور لم تصل بيننا فى لحظة من اللحظات إلى صدام.. ولم نتحول بهذا الصدام إلى أعداء.. والدليل أن الرئيس السادات عرض على منصب مستشار الرئيس بعد تركى الأهرام فاعتذرت.. ثم عرض على أكثر من منصب فى الدولة.. ومرة أخرى اعتذرت لأننى أحسست انه ليس فى مقدورى أن أخدم سياسات تتعارض مع ما أومن به..

واعترف لك أننى بدأت أفكر فى كتابة هذا الكتاب منذ اللحظة الأولى لاعتقالى فى سبتمبر عام ١٩٨١.. حين رأيت حولى فى السجن كل هؤلاء الذين يمثلون الرموز الحية لأهم التيارات السياسية والفكرية المؤثرة فى مصر.. وأثناء شهور السجن تحدثت طويلا إلى آخرين عما يحدث أولا مع هؤلاء الذين كانوا فى زنزانتى، ثم بعد ذلك مع غيرهم حينما سمح لى بالتجول بعض الوقت فى فناء السجن وأذكر لك أن من الكتب الأخرى التى ظهرت بعد تجربة الاعتقال هذه.. كتابين آخرين هما: وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى.. وكتاب بين الصحافة والسياسة..

***

وبعد دقائق طويلة من الحديث المتواصل.. توقف بنا الحوار لحظات.. فى البداية أصابنى الإحباط.. والإحساس بأن أستاذنا هيكل يريد أن ينهى الحديث.. ومما أكد لدى هذا الشعور.. أننى سمعت طرقات خفيفة على الباب ومن بعدها دخل الأستاذ منير عساف مستأذنا.. كى ينبىء أستاذنا بوجود ضيف آخر فى انتظار لقائه.. نظر إلى.. وبإصرار من جانبى ظهر فى أنفاسى المتلاحقة شعر أستاذنا هيكل أن الحوار لم ينته

بعد.. فكان رده الفورى أن ينتظر الضيف القادم لحظات أخرى فى مكتب الأستاذ منير.. واعتدل ناحيتى فى جلستــه.. وطلب منى أن أسأل من جديد ودون الـدخول فى تفاصيل حكاية ما أصابنى فى تلك اللحظة.. خرج من فمى سؤال يقول:

*** أستاذنــا محمد حسنين هيكل.. هل ترون أن سجـون مصر الآن تـواكب تطور عصر الجريمة؟.. وهل تؤدى دورها فى العملية العقابية؟**

– أنا عشت داخل السجن أيـاما طويلة.. ورأيت صــورة لم أتخيل أن ذهنى كان من الممكن أن يعيشـها على سبيل الحكـاية.. وأصـدقها.. السجن فى مصر بـوضعه الحالى لا يواكب تطـور الجريمة.. وفى العالم كله السجـون تتطور وتلائم هـذا التطور المذهل فى عالم الجريمة.. ويكفى أن أقول لك أنك داخل هـذا السجن تفقد آدميتك.. حتى المفكرين منا.. عاملونا بقسوة ومهانة..

والحق أقول لك إن أغلب الضباط الذين التقيت بهم داخل السجن كـانوا لا يوافقون على تلك المعاملة.. ولكنهـا الأوامر.. لقد عشت هذه التجربة داخل الـزنزانة رقم (٣٤).. ورأيت عالما غريبا.. ربما تقرأ عنه فى حكايات العصور الوسطى.

وبالإضافة إلى أنك تفقد هويتك وإنسانيك وتتحول إلى مجرد رقم.. تواجه بصعوبة الحياة داخل الـزنزانة وداخل جدران السجــن كله وكثيرا ما تحدثت عن هذه التجـربة وعن آثارهــا السيئة.. بالنسبة للـذين عايشوهــا.. وتقدر تقول إنها إذا كانت بـالنسبة للمفكر رحلة وحدث يتوقعه ويخرج منــه قويا وعظيما.. فإنها بالنسبة لأنواع الجرائم يكون لها الأثر العكسى.. فالمجرم يخرج من السجــن ثم ما يلبث أن يعود إليه.. لأننا لم نعرفه عــلاجه.. ولم يجد داخل السجن الرعــاية النفسية الكاملة التــى تحوله إلى إنسـان نافع.. ولا أريد أن أحدثك عن أشكال امتهــان آدمية الإنسـان داخل السجن.. وهى عادة ما تبدأ من لحظة دخـولك حيث تترك وراءك كل شىء.. ثم تتطور كلما دخلت مرحلة أو كلما دخلت زنزانة وتركتها إلى أخرى..

ورغم ذلك كنت أنا شخصيــا متماسكا غايــة التماسك ومتحفظاً جداً.. ولم يـؤثر فى مثل هذه الاجراءات.. حتى داخل الزنزانة.. وكنت أمارس حياتى بشكل يكاد يكون عاديا.. مثلا كنت أخرج من الزنزانة بملابس كاملــة.. البدلة الكرافت.. على الرغم من أنها البدلة

التى كدت قد خرجت بها من منزلى فى أوائل سبتمبر.. وكنت أمارس الرياضة.. وأقتصد فى الأحاسيس والانفعالات.. لأننى اكتشفت أن حركاتى داخل السجن مراقبة.. وأن هذه المضايقات كانت تتم بأوامر من الرئيس السادات شخصيا حتى أضعف.. لقد كانوا يكتبون تقريرا كل ساعة عن حالتى النفسية، ويعرض على الرئيس السادات.. وكنت ضمن أربع شخصيات مصرية يعاملون بنفس المعاملة وأذكر منهم فؤاد سراج الدين والدكتور حلمى مراد.. إننى أؤكد لك أن السجن فى مصر مطلوب أن يتطور حتى يواكب عصر الجريمة .. ولا ننسى التأكيد على حسن المعاملة.. والبعد عن امتهان آدمية الإنسان..

*** ولو كنتم رئيسا للحكومة.. أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليكم أسماء باعتقال مفكرين؟ ماذا كنتم تفعلون؟**

ـ أولا.. أنا لن أكون رئيسا للحكومة.. وثانيا: فى هذه الحالة.. سوف أناقش وزير الداخلية فى أمرهؤلاء المعتقلين.. وأرفض اعتقالهم لمجرد الاعتقال.. وأفضل أن يأخذ القانون فرصته فى العامل مع من يثبت اختلافه مع النظام.. ومادام لم يدان وفقا للقانون يفرج عنه فورا.. إننى سأكون ضد الاعتقال من أجل الاعتقال..

***

وبعد.. فهذا حصاد خمس وأربعين دقيقة من الأسئلة والإجابات التى حاولت من خلالها أن أنقل صورة صادقة لتجربة وأحاسيس أحد المفكرين المصريين الذين عاشوا تجربة السجن والاعتقال.. قولا وعملا .. وتأثروا بها.. ومن خلالها.. أيضا حاولت الاقتراب من عالم الأستاذ هيكل الشخصى والصحفى والسياسى.. واجتهدت كثيرا فى انتقاء الكلمات حتى تؤدى الغرض الذى من أجله.. كان هذا الحوار..

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٨٩٦٣ لسنة ١٩٩٢

الترقيم الدولى

I.S.B.N

977 — 270 — 040 — 9

